المواعظ الأخلاقية في شرح الأحاديث القدسية

يحتوي الكتاب على أربعين محاضرة

أول كتاب في شرح الأحاديث القدسية

السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء



المواعظ الأخلاقية
في
شرح الأحاديث القدسية


بسم الله الرحمن الرحيم

المواعظ الأخلاقية

في

شرح الأحاديث القدسية

يحتوي الكتاب على أربعين محاضرة

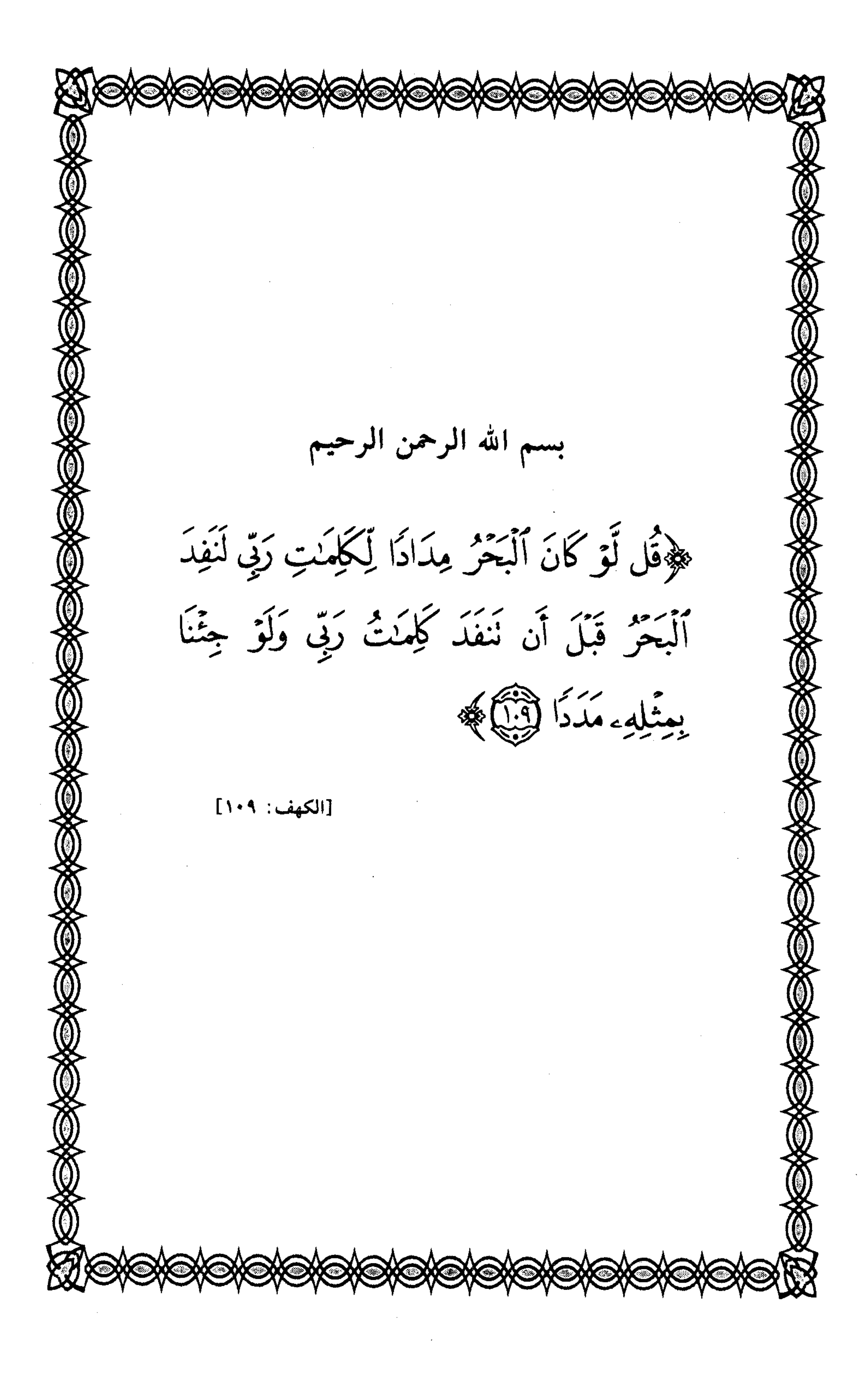
السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

[الكهف: ١٠٩]

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

الحديث القدسي:

هو ما يرويه العلماء الأخيار عن الأئمة الأطهار عن النبي المختار عن الله تعالى[١].

فهو كلام منقول عن الله تعالى على غير النسق القرآني، وإنَّما هو بالحديث الشريف أشبه، ولذلك يجري عليه ما يجري على الأحاديث من صحة، وضعف، ووضع، وحسن.

والحديث القدسي لا يتعرض لبيان الأحكام الشرعية، ولكنَّه يركّز على الدعوة إلى الله تعالى، والتحذير من المعاصي، ويدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق، وبالجملة فهو أشبه بالموعظة والتوجيه الأخلاقي.

والفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم:

---

(١) الجواهر السنية: ص٦.

١ ـ إنَّ القرآن الكريم هو معجزة الله تعالى الخالدة إلى يوم القيامة، أما الحديث القدسي فليس كذلك.

٢ ـ إنَّ القرآن الكريم ثابت عن الله تعالى، أما الحديث القدسي ففيه الثابت والضعيف.

٣ ـ إنَّ الصلاة لا تصح إلاَّ بالقرآن، ولا تصح بالحديث القدسي.

٤ ـ لا يجوز مسّ القرآن الكريم إلاَّ للمتطهّر، أمَّا الحديث القدسي فيجوز مسَّه ما عدا ما يذكر فيه من أسماء الله تعالى.

هذا الكتاب:

لقد كانت أمنيتي أن أؤلف كتاباً يبقى بعد موتي لينالي منه الأجر الذي لا ينقطع، وتفكَّرت في الكتب التي تبقى عبر الأجيال فوجدت أنَّ كثيراً منها يموت بموت صاحبها، ولكن الكتاب الذي يبقى هو ما له صلة بالله تعالى كالقرآن الكريم الخالد إلى يوم الدِّين، من هنا رأيت أن أؤلف في شرح كلام الله تعالى، فهو لا ينفد ولا يزول.

ولكني لمَّا رأيت الكثير من تفاسير القرآن الكريم، ولم أجد كتاباً في شرح الأحاديث القدسية، بدأت ـ بعون الله تعالى ـ في اختيار بعض الكلمات القدسية ثم شرحها بأسلوب المحاضرة لتكون في متناول إخواني الخطباء الكرام، وقد اخترت أربعين حديثاً اقتداءً بالعلماء والذين كتبوا في «الأربعين حديثاً» عسى أن يشملني الحديث الشريف: «من حفظ من أُمَّتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجها لله عزَّ

وجلَّ والدار الآخرة حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصدِّيقين والشُّهداء وحسن أولئك رفيقاً»[١].

وقد اخترت أكثر الكلمات التي تتناول العلاقة بالله تعالى ليكون الكتاب مكمّلاً لكتابي «في رحاب الله تعالى» و«في رحاب الأسماء الحسنى».

سائلاً الله تعالى أن يتقبَّل منِّي هذا العمل، إنَّه أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله الطاهرين.

وإلى القارىء العزيز أقول:

يا ناظراً فيه سل باللَّه مرحمة
على المصنف واستغفر لكاتبه
واطلب لنفسك من خير تريد به
من بعد ذلك غفراناً لصاحبه

---

(١) شكوى القرآن: ص١٤٤.

خلق العقل

عن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام:

«لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليَّ منك، أما إنِّي إيَّاك آمر وإيَّاك أنهي، وإيَّاك أُعاقب وإيَّاك أُثيب»(١).



المقدمة:

العقل هو نعمة اختصَّ الله تعالى بها الإنسان دون سواه من الحيوانات والنباتات، وبه يُثاب الإنسان ويُعاقب، فمن لا عقل له لا تكليف عليه، وبالتالي فهو معفو من الحساب والثواب والعقاب...

وورد أنَّ الثواب على قدر العقل.

فقد مدح أحدهم رجلاً عند الإمام الصَّادق عليه السلام لعبادته ودينه

---

(١) أُصول الكافي.

فقال عليه السلام: كيف عقله؟ فقال الرجل: لا أدري. فقال عليه السلام: «إنَّ الثواب على قدر العقل»[١].

وعن سليمان الديلمي: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فلانٌ من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا، فقال: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: إنَّ الثواب على قدر العقل، إنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبدُ الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة كثيرة الشجر ظاهرة الماء، وإنَّ ملكاً من الملائكة مرَّ به فقال: يا ربّ، أرني ثوابَ عبدك هذا، فأراه الله تعالى ذلك، فاستقلَّه الملك، فأوحى الله تعالى إليه: أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة أنسيّ، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا رجلٌ عابدٌ، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك. فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إنَّه مكان لنزهٌ، وما يصلحُ إلاَّ للعبادة، فقال له العابد: إنَّ لمكاننا هذا عيباً، فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربِّنا بهيمةٌ، فلو كان له حمارٌ رعيناه في هذا الموضع، فإنَّ هذا الحشيش يضيعُ، فقال له ذلك الملك: وما لربِّك حمارٌ؟ فقال: لو كان له حمارٌ ما كان يضيعُ مثل هذا الحشيش. فأوحى الله إلى الملك: إنَّما أُثيبه على قدر عقله»[٢].

ما هو العقل؟

جاء في النصوص الدينية الشريفة أنَّ الله تعالى خلق في الملكوت من نور مخزون مكنون أول خلق روحاني هو «العقل»، ففي الحديث:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله تبارك وتعالى خلق العقل من نور

---

(١) الكافي: ج١، ص١٢.
(٢) الكافي: ١/١٢/٨.

مخزون مكنون في سابق علمه الذي لم يطّلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرَّب»[١].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق العقل وهو أول خلقٍ من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرَّمتك على جميع خلقي»[٢].

وهذا العقل هو «جوهر درَّاك محيط بالأشياء من جميع جهاتها عارف بالشيء قبل كونه، فهو علَّة الموجودات ونهاية المطلب» كما عن الإمام علي عليه السلام[٣].

وبالتأمُّل بالنصوص المذكورة حول العقل وخلقته وكلامه وثوابه وعقابه يظهر أنَّه من العوالم الغيبية التي لها خلقة خاصة ـ لا يستطيع الإنسان أن يستوعبها ما دام في الدُّنيا ـ ومثله خلق الزمان والأيام والموت والحياة، والرُّوح.

وكما أنَّ الله جعل لكل مخلوق نفساً وروحاً، فقد جعل للعقل كذلك روحاً ونفساً، ولكن ليس كأنفسنا بني البشر أو أنفس الأشباح والأرواح والجن، بل جعل روحه الفهم، ونفسه العلم، ورأسه الزهد، ولسانه الحكمة، وفمه الرأفة، وقلبه الرحمة.. كما جاء في الحديث المروي عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى خلق العقل من نور مخزون مكنون في سابق علمه الذي لم يطّلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرَّب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه والزهد رأسه، والحياء

---

(١) العقل والجهل: ص١١.

(٢) الإنسان: ص١٤٦.

(٣) العقل والجهل: ص٢٢.

عينه والحكمة لسانه، والرأفة فمه، والرحمة قلبه، ثم حشاه وقواه بعشرة أشياء، باليقين والإيمان والصدق والسكينة والإخلاص والرفق والفطنة والقنوع والتسليم والشكر»[١].

وإذا كانت المخلوقات الحية تتركب من لحم ودم وعظم، فإنَّ تركيب هذا المخلوق النُّوراني، يقوم على أربعة عناصر رئيسية، هي العلم والقدرة والنُّور والمشيئة، كما جاء عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «خلق الله العقل من أربعة أشياء: من العلم والقدرة والنُّور والمشيئة بالأمر، فجعله قائماً بالعلم دائماً بالملكوت»[٢].

كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله في جواب شمعون بن لاوي بن يهودا من حواريي عيسى عليه السلام حيث قال: أخبرني عن العقل ما هو؟ وكيف هو؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعب منه؟ وصف لي طوائفه كلها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل حارت، فالعقل عقال من الجهل، وإنَّ الله خلق العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك، ولا أطوع منك، بك أبدأ وبك أعيد، لك الثواب وعليك العقاب، فتشعب من العقل الحلم، ومن الحلم العلم، ومن العلم الرشد، ومن الرشد العفاف، ومن العفاف الصيانة، ومن الصيانة الحياء، ومن الحياء الرزانة، ومن الرزانة المداومة على الخير، ومن المداومة على الخير كراهية الشر، ومن كراهية الشر طاعة الناصح»[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ص٢١.

(٢) العقل والجهل: ص٢١.

(٣) العقل والجهل.

شرح الحديث:

«لمَّا خلق الله العقل استنطقه» أي كلَّمه.

قد يقال: كيف كلَّمه مع أنَّه ليس من أهل النطق؟

وأجيب عن ذلك:

أولاً: إنَّ العقل من أهل النطق، فهو مخلوق من الروحانيين في العالم العلوي، إلاَّ أنَّ نطقه يختلف عن نطق البشر، فنطق البشر بحاجة إلى أداة مادية وهي اللِّسان والأسنان بينما نطق العقل لا يحتاج إلى ذلك، ومثله نطق الشجرة مع موسى عليه السلام ونطق الجوارح، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٢١].

ثانياً: أن يراد بالنطق المجازي، وهو الأخبار بلسان الحال.

«فقال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر».

إنَّ الأمر بالإقبال والإدبار هو تكويني، وهو انقياد تام من العقل تجاه الأوامر الإلهية... وليس المراد منه الحركة إلى الأمام أو الخلف، إذ لم يكن ثمة مكان في أول الخلق، بل المراد منه الإقبال والإدبار المناسب للعقل، كما يُقال مثلاً: فلان أقبل على العلم، وفلان أدبر عن الكسل.

وقد قيل في معناه:

١ ـ الإقبال على ما يصلح أن يؤمر به من الطاعة، والإدبار عمَّا ينهى عنه من المعصية.

٢ ـ الإقبال إلى المقامات العالية، والإدبار عن تلك المقامات والهبوط إلى المواطن الدنيوية[١].

٣ ـ الإقبال عبارة عن خرق الحُجب والوصول إلى معدن العظمة، والإدبار الوصول في عالم الكثرة بلا احتجاب[٢].

٤ ـ بناءً على القول بأنَّ العقل هو النبي محمَّد ﷺ، فيكون المراد أمره بالإقبال ترقيه على مراتب الكمال، والإدبار إنزاله إلى عالم البدن أو رجوعه إلى الخلق للقيام بدور التربية[٣].

ثم قال: «**وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليَّ منك**».

أي أنَّه تعالى يقسم بعزته ـ أي قوته وغلبته ـ وجلاله ـ أي عظمة شأنه وقدره ـ أنَّه ما خلق خلقاً أحبّ إليه من العقل، وهذا دليل على أهمية العقل في الصلة بين العبد وربّه، وإن كان المراد منه النبي محمَّد ﷺ فهو واضح في أنَّه أحبّ العباد إلى الله تعالى، وهو الموصوف بـ«حبيب الله».

ثم قال: «**ولا أكملتك إلاَّ فيمن أحب**» وهذا الكلام يدلُّ على تفاوت العقول، وإنَّ أكمل الناس هم أقرب إلى الله تعالى.

فعن رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامةُ العاقل أفضل من شخوص الجاهل. ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى

---

(١) شرح أُصول الكافي: ج١، ص٧٢.
(٢) جنود العقل والجهل: ص٣٨.
(٣) الأربعون حديثاً، للمجلسي: ص١٦.

عقل عنه، ولا بلغ جميعُ العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أول الألباب، الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩][١].

ممَّا تقدَّم ندرك أنَّ أعظم الناس عقلاً هم الأنبياء والأولياء عليهم السلام. وعلى رأسهم النبي محمَّد صلى الله عليه وآله والأئمة الاثني عشر عليهم السلام... فإنَّهم يتمتعون بعقل خارق، وذكاء حاد، وسرعة بديهة، وبُعد نظر، وبصيرة نورانية وحافظة لا تنسى.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله خلق العقل... فأعطاه خمسة وسبعين جُنداً... ولا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلاَّ في نبي أو وصي نبي»[٢].

وعنه عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خلق الله العقل فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال: ما خلقت خلقاً أحبّ إليَّ منك، فأعطى الله محمَّداً تسعة وتسعين جزءاً ثم قسّم بين العباد جزءاً واحداً»[٣].

❋ ❋

(١) العقل والجهل: ص٤٠.
(٢) جنود العقل والجهل: ص١٤.
(٣) سُنن النبي: ص١٠٦.

هدف خلق الإنسان

في الحديث القدسي:

«كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»[١].



الربح:

التجارة لها طرق وأساليب ونشاطات كثيرة، بدءاً من محل للبيع والشراء، إلى تعيين موظفين، إلى اعتماد الإعلان والدعاية والتسويق وإلى غير ذلك... والهدف من كل ذلك هو شيء واحد، وهو «الربح».

وهكذا الوجود بما فيه من سماء، وأرض، وحيوان، ونبات له هدف واحد وهو «الربح».

إلاَّ أنَّه ربح الإنسان.

ففي الحديث القدسي: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لعبادي: لم أخلقكم لأربح عليكم ولكن لتربحوا عليَّ».

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص١٩٩.

ففي هذا الحديث القدسي يقول لنا الله تعالى بأنَّه لم يخلق الناس ليربح عليهم، فهو غني عن العالمين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم، لأنَّه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه»[١].

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي! إنِّي لم أخلق الخلق لأستكثر بهم من قلَّةٍ، ولا لآنس بهم من وحشةٍ، ولا لأستعين بهم على شيءٍ عجزت عنه، ولا لجرِّ منفعةٍ، ولا لدفع مضرةٍ، ولو أنَّ جميع خلقي من أهل السماوات والأرض، اجتمعوا على طاعتي وعبادتي، لا يفترون عن ذلك ليلاً ونهاراً، ما زاد في ملكي شيءٌ سبحاني وتعاليت عن ذلك»[٢].

وإنَّما خلقهم ليربحوا عليه... وهذا الربح هو الوصول إلى الكمال البشري اللائق، والتخلق بأخلاق الله تعالى كالعلم والقدرة، والدخول إلى جنَّة الخلد في يوم القيامة.

شرح حديث الكنز الخفي:

إنَّ قوله تعالى: «**كنت**» مجرَّدة من الزمان والمكان، كما ورد: «كان الله ولم يكن معه شيء»[٣].

وقوله: «**كنزاً**» أي الكثير المجموع الذي يُتنافس فيه، وكل قِينة يتَّخذها الإنسان لعاقبته حسب التوسُّع في معناها[٤]. وواضح أنَّه يشمل

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩١.

(٢) كلمة الله: ص١٦٥.

(٣) أصول الكافي: ج١، ص٨٨، باب الكون والمكان.

(٤) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٢، «كنز».

المادّيات والمعنويّات كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] قال: «ذلك الكنز لوح من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلاّ الله، محمَّد رسول الله، عجبت لمن يعلم أنَّ الموت حقّ كيف يفرح! عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! عجبت لمن يذكر النار كيف يضحك؟! عجبت لمن يرى الدُّنيا وتصرُّفها أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها»[1].

وفي الحديث أيضاً: «انتظار الصلاة بعد الصلاة كنز من كنوز الجنَّة»[2] وكذلك: «أوصاني أن أكثر من قول لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله فإنَّها كنز من كنوز الجنَّة»[3] لما فيهما من ادّخار للإنسان في عاقبته من الأجر والفضل والجزاء الجميل.

ولعلَّ ما ورد في الحديث القدسي من التعبير عنه سبحانه بـ«الكنز» بلحاظ أنَّه سبحانه مصدر جميع الخيرات والبركات الماديَّة والمعنويَّة، وأنَّ رحمته وفضلهالمدخّر للعباد في الآخرة، وكلَّما عرفه الإنسان ازداد معرفة به، وكلَّما ازداد معرفة به ازداد بركة وخيراً وصعوداً إلى المقامات الكماليَّة العالية، وبهذا يتماشى الإنسان مع موازين الفضائل والكمالات، فتحسن دُنياه كما تحسن عاقبته.

كما لعلَّ قوله سبحانه: «**أحببت**» كناية عن الإرادة، وربَّما ورد التعبير في أحاديث أخرى بالإرادة بدل الحبّ.

وكيف كان، فإطلاق الحبّ على الإرادة شائع عند العرف إمَّا بنحو التوسعة أو بلحاظ أنَّ الحبّ يتضمَّن الميل نحو المحبوب، وهو

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠.

(٢) وسائل الشيعة: ج٤، ص١١٧، ح٤٦٦٧، باب ٢من أبواب المواقيت.

(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٤٢، ح١٢٤٤٥، باب ٣٢ من أبواب الصدقة.

معنى الإرادة على قول، أو بلحاظ أنَّ الحبّ سبب الإرادة؛ إذ لولا المحبَّة لما أراد.

كما أنَّ قوله سبحانه: «**لكي**» واضح في الغاية، كما أنَّ تعبيره عن الكنز بالخفاء ربَّما للإشارة إلى الجهة المعنويَّة وأنَّه لا يصل إليه كلّ أحد ما لم يبلغ درجات عالية من المعنويَّة والمعرفة، فهو خفيّ عن الحسّ، قريب من القلب والعقل والفطرة، وأنت خبير بأنَّ هذا لا يتمّ على كماله وتمامه إلاَّ لأولياء الله سبحانه وأنبيائه الذين طهَّرهم واصطفاهم وجعلهم حججاً وشهداء على خلقه».

فتحصّل من مجموع هذه المفردات التطابق بين المعنيين العرفي والفلسفي من أنَّ المعرفة سبب الخلق وغايته، والحبّ متفرّع عليها؛ إذ لولا المعرفة لما كان الحبّ[1].

استنتاج:

من هذا الحديث الشريف يُستنتج ما يلي:

١ ـ إنَّ علَّة الخلق هي المعرفة، وهو ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فعن الإمام الحسين عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما خلق العباد إلاَّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[2].

وهذه المعرفة هي «معرفة الله تعالى» وهي الأساس لتحقيق

---

(١) المظاهر الإلهية: ج١، ص٣٥٣.

(٢) الأمثل: ج٧، ص١٣٤.

العبودية ثم الوصول إلى مراتب الكمال، فمن عرف الله تعالى بصفاته وأسمائه وحقَّق ذلك في نفسه وصل إلى الهدف من وجوده وهو الكمال.

وهذه المعرفة لا تتم إلا من خلال المعلِّم والمرشد، وهو ما تجسّد بالنبي وآله عليهم السلام، ولذا صحّ أن يُقال: إنَّهم علَّة الخلق فلولاهم ما عُبد الله تعالى.

٢ ـ إنَّ المحبَّة هي الأساس في خلق الكون، وهي ليست لرفع حاجة عند الله تعالى فإنَّه الغني الكامل، وإنَّما المحبَّة لأجل تحقيق صفة من صفاته وهي العطاء والإعطاء وقد تجسَّدت المحبَّة الإلهيَّة بأكمل مصاديقها في النبي وآله عليهم السلام ولذا جاء في حديث الكساء أنَّه تعالى ما خلق الخلق إلا في محبتهم كما سيأتي.

والمحبَّة هي فرع المعرفة، فعن الإمام الحسين عليه السلام: «من عرف الله أحبه»[١].

لولاك لما خلقت الأفلاك:

في الحديث القدسي: «يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»[٢].

بدأ الحديث الشريف بالخطاب باسم «أحمد» لا «محمد» لأنَّه صلى الله عليه وآله معروف في السماء بـ«أحمد» وفي الأرض بـ«محمد» أو لأنَّ الحديث عن خلق الأفلاك وهو يتناسب مع اختيار اسم أحمد.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٢.
(٢) الأسرار الفاطمية: ص٢٣١.

ثم قال: «**لولاك لما خلقت الأفلاك**» أي لولا «وجودك» لما خلقت الأفلاك، كما يصح أن يُقال: لولا «معرفتك» ولولا «محبتك» وذلك لأنَّ المعرفة فرع الوجود، والمحبَّة فرع المعرفة.

والأفلاك هي كل الموجودات في الكون، وقد أعدَّ الله تعالى هذه الأفلاك للنبي ﷺ وآله عليهم السلام وهي مرتبطة بهم، فلولاهم لم توجد، ولم تتحرك، وإذا ماتوا بأجمعهم أي بعد وفاة الإمام الثاني عشر عليه السلام لم يعد للأفلاك فائدة، فعندها تموت الكواكب وتتناثر النُّجوم ويقع الفناء وتسيخ الأرض بأهلها.

ثم قال: «**ولولا علي لما خلقتك ولولا فاطمة...**».

قد يُقال: إنَّ الحديث ربط بين قضايا ثلاث مترتّبة على بعضها البعض، هي لولا الرسول ﷺ لما خلق الله الأفلاك، ولولا عليّ لما خلق الرسول ﷺ، ولولا فاطمة عليها السلام لما خلق الرسول وعلياً عليهما السلام.

ولا تنافي بين هذه القضايا؛ وذلك لأنَّ الغرض التامّ إذا كان لا يتحقَّق إلاَّ بمتمّمات يصبح المتمّم له دخل في وجوده بنحو الداعي أو الجزء أو الشرط أو غير ذلك.

وقد تقدَّم سابقاً أنَّ الله سبحانه الذي أحبّ أن يُعرف جعل أدلاَّء ووسائط على معرفته؛ لعجز البشر العاديِّين عن الوصول إلى معرفته بالشكل الأتمّ والأكمل، وعليه خلق الرسول ﷺ كدليل عليه.

وحيث إنَّ الرسول ﷺ يحمل رسالة لإرشاد البشر إلى المعرفة والإيمان، ورسالته لا تكتمل إذا لم يكن له خليفة ووصيّ يواصل مهمته، وفي هذه الحالة سيكون الغرض من البعثة ناقصاً منقوضاً، وإذا نقض الغرض من البعثة يصبح الغرض من وجوده أيضاً ناقصاً أو منقوضاً أيضاً، ونقض الغرض أو تركه ناقصاً من الحكيم القادر قبيح.

وعليه فإنَّ نصب الإمامة واجب عقلاً؛ لأنَّه لولاها لانتقض الغرض من البعثة، ومن هنا فإنَّه لولا إمامة عليّ عليه السلام المتفرِّعة على وجوده عليه السلام لما خلق الله سبحانه محمَّداً صلى الله عليه وآله؛ لأنَّه بدونه يترتَّب عليه نقض الغرض أو نقصانه؛ لذا ورد الحديث: «لولا عليّ لما خلقتك».

والقضيَّة نفسها أيضاً تجري في الإمامة؛ وذلك لأنَّ مهمَّة الإمامة والغرض منها إذا توقَّف على المكمّل والمتمّم للدور كان من الواجب عقلاً أن يخلق الله سبحانه المتمّم، وإلاَّ للزم منه المحذوران السابقان.

وحيث إنَّ فاطمة عليها السلام هي المصدر والمنبع الذي أنجب إلى العالم الأئمَّة عليهم السلام، فهي الأُمّ، ولولاها لما ولد الأئمَّة عليهم السلام، إذاً أصبح وجودها غايةً لوجود النبيّ والإمام عليهما السلام، فقال سبحانه: «ولولا فاطمة لما خلقتكما» لأنَّه بدونها عليها السلام يصبح وجودهما عليهما السلام ناقصاً أو عبثاً.

ومن هنا قد تصبح السلسلة الطوليَّة للغايات هكذا: الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله غاية لخلق الكون، وعليّ عليه السلام غاية مكمّلة لبعثة الرسول صلى الله عليه وآله بما أنَّه مكمّل، وفاطمة عليها السلام غاية لهما معاً بما أنَّها مجمع النبوَّة والإمامة.

ولعلَّنا نضرب لذلك مثلاً للتقريب: الطبيب إذا أراد صنع دواء لمعالجة المرض فالغاية هنا المعالجة، والدواء معجون مركَّب من عدَّة عناصر، فحتَّى يظهر أثر الدواء ويحقِّق غايته في معالجة المرض لا بدَّ من توفّر جميع العناصر، فإذا كان أحد العناصر مفقوداً فإنَّ غايته لا تحقّق؛ لذا يُقال: لولا الشيء الفلاني لم يتحقَّق غرضه، ويصبح وجوده الفاقد لهذا العنصر الواحد بلا فائدة من جهة معالجة هذا المرض الخاصّ. وكذا الأمر في البناء، فإنَّ البيت حتَّى يتحقَّق لا بدَّ

من الطابوق والإسمنت والحديد، وفقدان واحد منهما لا يحقّق الغرض من البناء كما لا يخفى، وهكذا[١].

وهنا توجيه آخر عن بعض أساتذتنا الكرام وهو: «إنَّ هدف الخلق هو الرحمة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُود: ١١٩] أي خلقهم للرحمة، وتتحقَّق هذه الرحمة بإيجاد مصداق كامل وهو النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعنه ﷺ: «إنَّما أنا رحمة مهداة»[٢] ولما كانت حياته ﷺ محدودة فلا بدَّ من وجود مكمل لدور الرحمة فكان الإمام عليّ عليه السلام، ولما كانت حياته محدودة أيضاً كان من الضروري أن يوجد من يكمل دوره فكانت الزَّهراء عليها السلام وعاءً للأئمَّة عليهم السلام، فلولاها لما استمرت الرحمة».

حديث الكساء:

وهو الحديث المعروف عن جابر عن السيِّدة فاطمة عليها السلام وفي آخره يقول الله تعالى: «يا ملائكتي، ويا سكَّان سماواتي، إنِّي ما خلقت سماءً مبنيَّة، ولا أرضاً مدحيَّة، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلكاً يدور، ولا بحراً يجري، ولا فُلكاً تسري، إلاَّ في محبَّة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء»[٣].

يُستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١ ـ إنَّ العلَّة في خلق الكون هي المحبَّة، ومعنى حبّه تعالى هو إظهار الحبّ وليس الانفعال النفسي فتعالى عن ذلك.

---

(١) المظاهر الإلهية: ج١، ص٣٣٤.
(٢) مدينة البلاغة: ج٢، ص٤٥٧.
(٣) عوالم العلوم «سيِّدة النساء»: ج١١/٢، ص٩٣٣.

٢ ـ إنَّ العلة في خلق الكون هي محبَّة النبي وآله ﷺ وهي تتضمَّن أمرين:

أ ـ إنَّ الله تعالى خلق الخلق لحبّه لهم ﷺ، وقد قلنا إنَّ حبّ الله تعالى هو إظهار أثره، وقد ظهر أثره في أنَّه تعالى جعلهم مظهر كماله وصفاته، وقد تقدَّم أنَّ الله تعالى أحبّ أن يُعرف فخلق الخلق.

ب ـ إنَّه تعالى خلق الخلق ليحبونهم.

استنتاجات:

أولاً: إنَّ الغاية من وجود الإنسان هي «الكمال» وهذا الكمال لا يحصل إلاَّ بالمعرفة والمحبَّة، وهو ما يقتضي وجود التشريعات السماوية التي تكفل العبودية.

يقول العارف بالله السيِّد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: «التشريع هو الأصل في بناء التكوين إذ لولا التشريع لم يكن للتكوين أثر لا في الدُّنيا ولا في العقبى، ومنه يظهر الوجه في خطاب الله تعالى مع حبيبه محمَّد ﷺ: «لولاك لما خلقت الأفلاك» فالعلَّة الغائية لأصل التكوين وبنائه مطلقاً هي التشريع، وقد أثبتت الفلاسفة أنَّ العلَّة الغائية إنَّما هي علَّة فاعلية الفاعل، فهي وإن كانت موجزة وجوداً لكنَّها مقدمة علماً، فلا بدَّ وأن يكون نظام التشريع في جميع جهاته أرفع وأجلّ من نظام التكوين، فلا سبيل للوصول إليه إلاَّ بواسطة الرسول...»[1].

---

(١) مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٧٠.

ثانياً: إنَّ الإنسان هو محور الوجود، وهو موجود ينبغي أن يحقّق الغاية من وجوده، وهي وصوله إلى كماله، وبما أنَّ الإنسان لا يمكن له أن يدرك الكمال بشخصه؛ لأنَّ الكمال ليس من الحقائق المحسوسة كالملموسة أو المشمومة أو المرئيَّة وغيرها التي تُحسُّ بالحواسّ إدراكاً حسيّاً، وإنَّما هو من الحقائق المعنويَّة الغائية عن الحسّ أو البعيدة عنه؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدرك الكمال بمعزل عن الكمّلين.

ومن هنا نعرف أنَّه لا بدَّ من وجود موجّه للإنسان يوجّهه إلى الطرق الموصلة للكمال، وهذا الموجّه هم محمَّد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وهذه الطرق هي الشرائع والأديان، وأكملها شريعة الإسلام الخاتم لجميع الشرائع والأديان السماويَّة.

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام: أنَّه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟ قال:

إنَّا لمَّا أثبتنا أنَّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنَّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أنَّ له سفراء في خلقه يعبِّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبِّرون عنه جلَّ وعزَّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه حكماء مؤدّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثمَّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان ممَّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا

تخلو أرض الله من حجَّة يكون معه علم يدلُّ على صدق مقالته وجواز عدالته[١].

ثالثاً: كونهم مظاهر الكامل، وهو ما ربَّما يُقال من أنَّ الكامل يقتضي أن يظهر أثر كماله، وإلاَّ لم يكن كاملاً ولو في عالم الإثبات، حيث إنَّ الكمال بحاجة إلى مصداق يجسِّده ويظهره بشكله الأتمّ ويحتجّ به على الخلق، فخلق الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام على اختلاف مراتبهم ليجسِّدوا ذلك الكمال بما لا نقص ولا خلل فيه؛ إتماماً للحجَّة، وتحقيقاً للغرض، فهم غاية الخلق بما هم مصداق كماله وأثره سبحانه، ولولاهم لما ظهر كماله ولا تجسَّد للخلق وفق الحكمة، فمثلاً: المهندس الذي يبني داراً فإنَّ الرائي لها يتوصَّل من وجودها إلى وجود المهندس الباني لها، كما أنَّ من كمالها ودقَّة هندستها ونظامها يعرف كمال مهندسها، ولو لم يبن الدار بهذا المستوى من الكمال والعظمة ـ ولو الكمال والعظمة المتصوّرة أو المفروضة ـ لدلَّ ذلك على نقصان المهندس وعدم بلوغه إلى الكمال الأتمّ؛ إذ مع إمكان وجود الأكمل فإنَّ وجود الكامل نقص بالقياس إليه[٢]. إذاً خلق الكامل من جميع الجهات حسب الاستعداد غاية لخلق، وإلاَّ لدلَّ عدم خلقه على عدم كمال الخالق أو نقصانه.

ولعلَّ الحديث القدسي القائل: «لولاك لما خلقتك الأفلاك»[٣] يشير إلى هذه الجهة؛ لأنَّه لولا الكامل الدالّ على كمال الخالق من جميع الجهات لما خلق الله سبحانه الأفلاك؛ لأنَّ ما سوى

---

(١) مرآة العقول: ج٢، ص٢٥٧ ـ ٢٦٢.

(٢) أي نقص كمال.

(٣) بحار الأنوار: ج١٥، ص٢٨، ح٤٨.

رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من الخلق فهو ناقص بالقياس إليهم عليهم السلام، وواضح أنَّ خلق الناقص مع عدم خلق الكامل يدلُّ على عدم كمال الخالق أو نقصانه، والله سبحانه منزَّه عن ذلك.

إذاً رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هم الغاية لخلق الكون بجميع ما فيه من مخلوقات بما أنَّهم كمّلون وفي غاية المال؛ إذ لولاهم عليهم السلام لكان خلق العالم مناقضاً للغرض، وللزم الخلف أيضاً.

رابعاً: هدفيَّة المعرفة، إنَّ الله سبحانه خلق الخلق لكي يُعرف كما ورد في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف»[١].

ومن الواضح أنَّ المعرفة درجات، وأعلى درجات المعرفة ما كانت عند أكمل خلقه سبحانه، وليس من المعقول أنَّ الله سبحانه أحبّ المعرفة الناقصة دون الكاملة؛ لأنَّه يلزم منه خروجه عن الواجبيَّة، فإنَّه مع إمكان المعرفة التامَّة لماذا يريد الناقصة؟ هل لجهله بها جهلاً بسيطاً أو مركَّباً، أم لعبثه، أم لتقديم المفضول على الفاضل؟ وكلّها محالة تعالى الله سبحانه عنها علوّاً كبيراً[٢]، إذاً لا يبقى إلاَّ المعرفة الكاملة.

ومن الواضح أنَّه لا يعرفه سبحانه حقّ معرفته إلاَّ رسوله الكريم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، كما قال ﷺ لعليّ عليه السلام: «وما عرف الله إلاَّ أنا وأنت»[٣] وواضح أنَّ ما ثبت لهما عليهما السلام يثبت لسائر

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص١٩٩، بيان.

(٢) وأيّ محتمل آخر نفرضه فإنَّه يستلزم نسبة النقص إلى الخالق تبارك وتعالى، وبالتالي فهو محال.

(٣) مشارق أنوار اليقين: ص١١٢.

المعصومين عليهم السلام؛ لأنَّهم نور واحد، وبهذا يظهر أنَّ الله سبحانه خلق الكون للمعرفة، والمعرفة الكاملة بالله سبحانه لا تتمّ إلاَّ به صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ لذلك أصبحوا غاية للخلق؛ لأنَّهم المحقّق الوحيد للغاية الإلٰهيَّة الأتمّ كما لا يخفى(١).

روايات في خلقهم عليهم السلام:

في الحديث الشريف: إنَّ محمَّداً وعليّاً عليهما السلام كانا نوراً بين يدي الله جلَّ جلاله قبل خلق الخلق بألفي عام، وأنَّ الملائكة لمَّا رأت ذلك النُّور رأت له أصلاً انشعب فيه شعاع لامع فقالت: إلهنا وسيِّدنا، ما هذا النُّور؟ فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليهم: «هذا نور من نوري أصله نبوَّة، وفرعه إمامة، أمَّا النبوَّة فلمحمَّد عبدي ورسولي، وأمَّا الإمام فلعليّ حجَّتي وليِّي، ولولاهما ما خلقت خلقي»(٢).

عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «لما خلق الله تعالى آدم أبو البشر ونفخ فيه من روحه التفت آدم يمنة العرش فإذا في النُّور خمسة أشباح سجّداً وركّعاً. قال آدم: يا ربّ، هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم. قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك، لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنَّة ولا النار ولا العرش ولا الكرسي ولا السماء ولا الأرض ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجنّ... يا آدم، هؤلاء صفوتي من خلقي بهم أُنجيهم، وبهم أُهلكهم»(٣).

---

(١) راجع المظاهر الإلهية: ج١، من ص١١ ـ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) معاني الأخبار: ص٣٥١، ح١. علل الشرائع: ج١، ص٢٠٧، ح١.

(٣) عوالم العلوم «سيِّدة النساء»: ج١١/١، ص٢٢ ـ ٢٣. فرائد السمطين: ج١، ص٣٦.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه عطس آدم وقال: الحمد لله، فأوحى الله تعالى إليه: حمدني عبدي، وعزَّتي وجلالي، لولا عبدان أُريد أن أخلقهما في دار الدُّنيا ما خلقتك. قال: إلهي، فيكونان منِّي؟ قال: نعم يا آدم، ارفع رأسك وانظر، فرفع رأسه فإذا مكتوب على العرش: لا إله إلاَّ الله، محمَّد نبيّ الرحمة، وعليّ مقيم الحجَّة، من عرف حقّ عليّ زكا وطاب»[١].

قال العلاَّمة المجلسي رحمه الله: «ثبت بالأخبار المستفيضة أنَّهم العلل الغائيَّة لإيجاد الخلق، فلولاهم لم يصل نور الوجود إلى غيرهم، وببركتهم والاستشفاع بهم والتوسُّل إليهم يظهر العلوم والمعارف على الخلق، ويكشف البلايا عنهم، فلولاهم لاستحقَّ الخلق بقبائح أعمالهم أنواع العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ولقد جرَّبنا مراراً لا نحصيها أنَّ عند انغلاق الأمور وإعضال المسائل، والبعد عن جناب الحقّ تعالى، وانسداد أبواب الفيض، لمَّا استشفنا بهم وتوسَّلنا بأنوارهم، فبقدر ما يحصل الارتباط المعنويّ بهم في ذلك الوقت تنكشف تلك الأمور الصعبة، وهذا معاين لمن أكحل الله عين قلبه بنور الإيمان»[٢].

❁ ❁

---

(١) نهج الحقّ وكشف الصدق، ص٢٣٢. ينابيع المودَّة: ج١، ص١١.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٢، ص٩٣، ح٨. وراجع عين الحياة: ج١، ص٢٢٠.

التحصين بالتوحيد

قال الله عزَّ وجلَّ:

«إنِّي أنا الله لا إله إلاَّ أنا، فمن أقرَّ بالتَّوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»[١].

❋ ❋ ❋

إطلالة على الحديث:

يعتبر هذا الحديث القدسي من أعظم الأحاديث وأعلاها وأكثرها تأثيراً في حياة الإنسان، فهو يبين أنَّ الخلاص الوحيد والنجاة والأمن لا يكون إلا بالتوحيد.

وأهميته من حيث السند والمعنى، فأما معناه فهو أساس الدِّين والإيمان، وأما سنده فهو المعروف بـ«السلسلة الذهبية». وهي:

عن علي بن موسى بن جعفر، عن أبيه علي بن محمَّد التقي، عن محمَّد بن علي التقي، عن علي بن موسى الرضا، عن موسى بن جعفر الكاظم، عن جعفر بن محمَّد الصادق، عن محمَّد بن علي الباقر، عن

---

(١) كلمة الله: ص٣٢.

علي بن الحسين السجَّاد، عن الحسين بن علي، عن أمير المؤمنين، عن محمَّد بن عبد الله، عن جبرائيل، قال الله...».

ونظراً لعظمته فقد كان بعض العلماء يتلونه بسنده على المريض طلباً للشفاء.

قال السيد نعمة الله الجزائري: «هذا السند ورد في الرواية أنَّه ما قُرأ على مريض إلا شفي وعلى مصروع إلاَّ أفاق، وقد جُرِّب مراراً، وإن كُتب وشُرب في ماء شفي من الألم».

قال صاحب كتاب الجواهر المرجع الشيخ محمد حسن النجفي: «كثيراً ما أكتبه في كأس وأمحوه بماء وأضع عليه شيئاً من تربة الحسين عليه السلام فأرى تأثيره سريعاً، والحمد لله».

معنى الحديث:

إنَّ من شهد بالتوحيد فقد دخل في الحصن الإلهي، وبدخوله يتحصن من العذاب في نار جهنم، فإنَّ الله تعالى حرَّم النار على الموحِّدين.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى حرَّم أجساد الموحدين على النار»[1].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: التفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه فقال: «اتخذوا جنات، فقالوا: يا رسول الله من عدو قد أضلنا؟ فقال: لا ولكن من النار، فقالوا ما الجُنّة؟ فقال: قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٤.
(٢) الآداب والسُّنن: ص١٢٢.

كما أنَّ من نتائج التحصين:

١ ـ **الحصانة من الشيطان الرجيم،** فإنَّه لا سلطان له على المخلصين من الموحدين.

فعن الإمام علي عليه السلام: «الصلاة حصن من سطوات الشيطان»[(١)].

وعن النبي يحيى عليه السلام أنَّه قال: «وأمركم ـ الله ـ أن تذكروا الله، فإنَّ مثل ذكره كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى»[(٢)].

٢ ـ **الحصانة من الأخطار والأهوال.**

قال أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام: «يا مفضل احترز من الناس كلهم بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: ١] وبـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] اقرأها عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ومن فوقك ومن تحتك، فإذا دخلت على سلطان جائر فاقرأها حين تنظر إليه ثلاث مرَّات واعقد بيدك اليسرى ثم لا تفارقها حتى تخرج من عنده»[(٣)].

وفي الخبر أنَّ النبي نوح عليه السلام لما شعر بالخطر بعد الطوفان أوحى الله تعالى إليه أن يقول: «لا إله إلا الله» ألف مرة فقالها فنجاه الله تعالى[(٤)].

---

(١) غرر الحكم.
(٢) شرح رسالة الحقوق: ج١، ص٢٨.
(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٦٢٢.
(٤) قصص الأنبياء: ص١٠٨.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنَّه قال: «وإنَّ نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة أوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: يا نوح، إن خفت الغرق فهللني ألفاً، ثم سلني النجاة أنجك من الغرق ومن آمن معك، قال: فلما استوى نوح عليه السلام ومن معه في السفينة ورفع القلس[١]، عصفت الريح عليهم، فلم يأمن نوح الغرق، فأعجلته الريح، فلم يدرك أن يهلل ألف مرة، فقال بالسريانية: (هلوليا ألفاً ألفاً يا ماريا اتقن). قال: فاستوى من الغرق، قال: فنقش في خاتمه: لا إله إلا الله ألف مرة، يا رب أصلحني»[٢].

هذا التحصين التام إذا كان الذي يقول كلمة التوحيد مخلصاً، وإلا كانت حصانة له في الدُّنيا فقط.

عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إنَّ كلمة لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان وهي كلمة من قالها أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذباً حصَّنت ماله ودمه ولقي الله غداً فحاسبه»[٣].

شروط التحصين:

إنَّ لقبول التوحيد وصيرورة العبد مؤهلاً للدخول في حصن الله تعالى شروط أبرزها:

١ ـ ولاية آل محمَّد عليهم السلام، وإلى ذلك يشير الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن محمد بن علي، عن علي بن الحسين، عن الحسين بن علي، عن

---

(١) حبل من حبال السفينة.

(٢) الأمالي: ص٥٤٢.

(٣) الجامع الكبير للسيوطي.

علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم، قال الله عزَّ وجلَّ: «ولاية علي بن أبي طالب حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي».

إنَّ التحصين من النار لا يتحقق إلا بالتوحيد والولاية، فمن أعلن التوحيد ولم تتحقق فيه الولاية لآل محمَّد عليهم السلام - وهي الإعلان عن محبتهم وطاعتهم والبراءة من عدوهم - فإنَّ الله تعالى لا يحصنه من النار ولا يدخله الجنة.

عن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم جالساً وعنده نفر من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: من قال: «لا إله إلا الله» دخل الجنة، فقال رجلان من أصحابه: فنحن نقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّما تُقبل شهادة أن لا إله إلا الله من هذا ومن شيعته الذين أخذ ربنا ميثاقهم، فقال الرجلان: فنحن نقول لا إله إلا الله فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على رأس علي عليه السلام ثم قال: علامة ذلك أن لا تحلا عقده ولا تجلسا مجلسه ولا تكذبا حديثه»[١].

عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبان إذا قدمت الكوفة فارو هذا الحديث: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وُجبت له الجنة، قال: قلت له: إنَّه يأتيني من كل صنف من الأصناف أفأروي لهم هذا الحديث؟

قال: نعم يا أبان إنَّه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين فتُسلب لا إله إلا الله منهم إلا من كان على هذا الأمر»[٢].

---

(١) الذكر الخفي: ص٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٥٩.

٢ ـ عدم القيام بعمل يخرق التحصين، فإنَّ لبعض الأعمال والأقوال تأثير سلبي في هدم الحصانة الإلهية، وأبرزها «المعاصي» ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عمَّا حرم الله»[١].

عن رسول الله ﷺ: «من قال: «سبحان الله» غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: «لا إله إلا الله» غرس الله بها شجرة في الجنة، ومن قال: «الله أكبر» غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجل: إنَّ شجرنا في الجنة لكثير، فقال ﷺ: نعم، ولكن إيَّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»[٢].

❁ ❁

(١) ثواب الأعمال وعقابها: ص١٧.
(٢) ثواب الأعمال وعقابها: ص١٧.

لقاء الله تعالى

قال الله عزَّ وجلَّ:

«إذا أحبَّ العبدُ لقائي أحببتُ لقاءَه»[١].

❋ ❋ ❋

السفر إلى الله تعالى:

الإنسان مخلوق من روح الله تعالى، وقد هبط إلى عالم الدُّنيا ليُختبر فيها بالعبادة، ومن ثم يعود إلى الله تعالى، وهذا معنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦].

فهو في عالم الدُّنيا يشبه السفر، إلا أنَّه ليس سفر من مكان إلى مكان، بل من عالم إلى عالم، ومن مرتبة إلى مرتبة، ونهايته وغايته هي لقاء الله تعالى، وإلى ذلك يشير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النَّجم: ٤٢].

---

(١) كلمة الله: ص٦٤.

معنى اللقاء:

اللقاء في اللغة هو وصول أحد الطرفين إلى الآخر، وهو يصدق على التقاء الأجسام المادية كلقاء الرجل بالرجل، كما يصدق على غير الأمور المادية كلقاء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] مع أنَّ اليوم ليس بجسم مادي.

ومن هنا يصدق اللقاء على الله تعالى، فيصح أن يُقال: ملاقاة الله تعالى، مع الاعتقاد بأنَّه ليس لقاءً مادياً، فتعالى الله عن ذلك، وإنَّما معناه «وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه وبين ربه»[١].

ويُعبّر عن اللقاء في النصوص الشريفة بـ«رؤية الله تعالى» وهي الرؤية القلبية لا البصرية كما ذكرنا في كتاب «في رحاب الله» فراجع.

قال العارف الشيخ جواد ملكي التبريزي رحمه الله: «إنَّ معنى اللقاء مع الله تعالى الجليل ممكن، فإنَّ روح اللقاء يتحقق فيه حقيقة أيضاً ولكن بنحو يناسب حال المُلاقي والملاقى وهو عبارة عن نفس المعنى الذي عُبّر عنه في الأدعية والأخبار بتعبيرات مختلفة كلفظ الوصول والزيارات، والنظر إلى وجهه، والتجلي، ورؤية القلب، وتعلق الرُّوح، كما عُبّر عن ضدِّه بالفراق، والبعد، والحرمان.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال في تفسير (قد قامت الصلاة): «أي حان وقت الزيارة».

وقد ورد في الأدعية مراراً: «ولا تحرمني النظر إلى وجهك»[٢].

---

(١) الميزان: ج١٦، ص١٠٢.

(٢) إقبال الأعمال: ص١٠٤.

وجاء في كلامه عليه السلام أنّه قال: «ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان».

وفي المناجاة الشعبانية: «وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً»[(١)].

وفيها: «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرك إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النُّور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك»[(٢)].

ويقول في دعاء كميل عليه الرحمة: «فهبني يا إلهي وسيِّدي ومولاي وربِّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك»[(٣)].

متى يحصل اللقاء؟

إنَّ لقاء الله تعالى مُتاح لجميع الخلائق في كل الأوقات، فمن خلال التأمُّل في السَّموات والأرض يستطيع العبد أن يلاقي ربّه كما قال السيِّد موسى الصدر: «اللقاءات الكونية طريق إلى لقاء الإنسان مع ربّه، هذا اللقاء الأخير هو الذي يكمل كينونة الإنسان ويزيده تفاعلاً مع اللقاءات الأخرى».

كما يستطيع العبد أن يقف للصلاة والدُّعاء فيحدث له اللقاء، كما كان يفعل الأولياء عليهم السلام، فموسى عليه السلام ترك قومه للمناجاة على الجبل ليلاقي ربّه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٣-٨٤] والنبي محمَّد صلى الله عليه وآله

(١) بحار الأنوار: ٩٤/٩٩، ح١٣.
(٢) بحار الأنوار: ٩٤/٩٩، ح١٣.
(٣) مصباح التهجد: ص٧٧٨.

والأئمَّة عليهم السلام كان يقفون للصلاة بخشوع وخضوع لعلمهم أنَّهم في لقاء الله تعالى كما هو معروف عنهم.

وفي الخبر: إنَّ الله أوحى إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل: «إن أحببت أن تلقاني غداً في حظيرة القدس فكن في الدُّنيا وحيداً غريباً مهموماً محزوناً مستوحشاً من الناس، بمنزلة الطير الوحدانيّ الذي يطير في أرض القفار ويأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من ماء العيون، فإذا كان اللَّيل آوى إلى وكره وحده ولم يأوِ مع الطيور، استأنس بربِّه واستوحش من الطيور»[1].

إنَّ هذا اللقاء في عالم الدُّنيا مخصوص ببعض الأشخاص، وأما أكثر الناس فلا تحصل لهم هذه الحالة، بل إنَّ بعضهم يكذِّب بلقاء الله تعالى.

وأما في عالم الآخرة فسيكون اللقاء الشامل لكل الخلائق، بدءاً من عالم الموت إلى دخول الجنة أو النار.

اللقاء عند الموت:

إنَّ الإنسان في عالم الدُّنيا محجوب عن ربّه، وعند الموت ينكشف الحجاب ويحصل «اللقاء الأول» فإن كان مؤمناً اشتاق للموت والرحيل إلى ربّه ولقائه، لما يتجلَّى له من صفاته تعالى كالحب والمغفرة والرحمة والكرامة، وإن كان كافراً كره لقاء ربّه لما يتجلَّى له من صفاته تعالى كالغضب والعذاب.

فعن أبي ذر أنَّه سُئل عن كيفية القدوم على الله تعالى فقال: «أما

---

(١) كلمة الله: ص٢٣٦.

المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يُردُّ على مولاه»[١].

قد يُقال: إنَّ المؤمن يكره الموت، فهل هذا كره للقاء الله تعالى؟

الجواب: من الطبيعي أن يخاف الإنسان من الموت لما فيه من أهوال، ولكنَّه إذا عاين ما أعدَّ الله تعالى له فإنَّ خوفه يزول فلا يكره الموت بل يحبّه ويعشقه.

من هنا ورد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قالوا: يا رسول الله! كلّنا نكره الموت! قال: ليس ذلك كراهيَّة الموت، ولكنَّ المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيءٌ أحبّ إليه من أن يكون قد لقي الله فأحبّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه، وإنَّ الفاجر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشّر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه»[٢].

عن أحدهم: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلتُ له: «أصلحك الله من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه؟» قال: نعم.

فقلت: فوالله إنَّا لنكره الموت! فقال: ليس ذلك حيث تذهب، إنَّما ذلك عند المعاينة إذا رأى ما يحبّ، فليس شيء أحبّ إليه من أن يتقدَّم، والله يحبّ لقاءه وهو يحبّ لقاء الله حينئذٍ، وإذا رأى ما يكره فليس شيءٌ أبغض إليه من لقاء الله والله عزَّ وجلَّ يبغض لقاءه»[٣].

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٣٢٨.

(٢) ميزان الحكمة: «مادة «اللقاء».

(٣) المصدر نفسه.

وفي الحديث القدسي إنَّ الله تعالى قال لرسوله الأعظم ﷺ عن حال عباده الراضين: «ولأجعلن ملك هذا العبد فوق ملك الملوك حتى يتضعضع له كل ملك ويهابه كل سلطان جائر، وجبار عنيد، ويتمسح له كل سبع ضارٍ، ولأشوقنَّ إليه الجنَّة وما فيها، ولأستغرقن عقله بمعرفتي، ولأقومن له مقام عقله، ولأهوننَّ عليه الموت وسكراته، ومراراته، وفزعه حتى يُساق إلى الجنَّة سوقاً.

وإذا نزل به ملك الموت يقول له: مرحباً، وطوبى لك، طوبى لك، طوبى لك، إنَّ الله تعالى إليك لمشتاق. اعلم يا ولي الله إنَّ الأبواب التي كان يصعد منها عملك تبكي عليك، وإنَّ محرابك ومصلاك يبكيان عليك.

فيقول: أنا راضٍ برضوان الله، وكرامته.

ويخرج روحه عن جسده كما تخرج الشعرة من العجين، وإنَّ الملائكة يقومون عند رأسه بيدي كل ملك كأس من ماء الكوثر، وكأس من الخمر يسقون روحه حتى تذهب سكرته ومراراته، ويبشِّرونه بالبشارة العظمى، ويقولون له: طبت، وطاب مثواك، إنَّك تقدم على العزيز الكريم الحبيب القريب، فتطير الرُّوح من أيدي الملائكة فتصعد إلى الله تعالى في أسرع من طرفة عين، ولا يبقى حجاب، ولا ستر بينهما وبين الله تعالى، والله عزَّ وجلَّ إليها لمشتاقاً، عن يمين العرش ثم يُقال لها: أيتها الرُّوح كيف تركتِ الدُّنيا؟

فتقول: إلٰهي وسيِّدي وعزتك وجلالك لا علم لي بالدُّنيا، أنا منذ خلقتني إلى هذه الغاية خائف منك.

فيقول الله: صدقت، كنت بجسدك في الدُّنيا، وبروحك معي،

فأنت بعيني، أعلم سرّك وعلانيتك، سل أعطك وتمنّ عليَّ فأكرمك، هذه جنَّتي فتبجح فيها، وهذا جواري فأسكنه.

فتقول الرُّوح: إلهي عرفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك، وعزتك وجلالك لو كان رضاك في أن أُقطَّع إرباً إرباً، أو أُقتل سبعين قتلة بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضاك أحبّ إليَّ».

إلى أن قال: «... فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي، لا أحجب بيني وبينك في وقت من الأوقات حتى تدخل عليَّ أيّ وقت شئت، وكذلك أفعل بأحبائي...»[1].

ويقول: «ولا يلي قبض روحه غيري... فأقول له عند قبض روحه: مرحباً وأهلاً بقدومك عليَّ»[2].

فعند المعاينة تتم الدعوة من الله تعالى للقاء عبده فيفرح العبد بهذه الدعوة ويحب اللقاء.

عن الإمام علي عليه السلام: «لما أراد الله قبضَ روح إبراهيم عليه السلام، بعث إليه ملك الموت، فسلَّم، فردَّ عليه السلام، ثم قال له: أزائر أنت، أم داعٍ؟

فقال: بل داعٍ، فأجب.

فقال: هل رأيت خليلاً يُميتُ خليلاً؟

فرجع حتى وقف بين يدي الله، فقال: إلهي سمعت ما قال خليلك إبراهيم عليه السلام، فقال الله عزَّ وجلَّ: يا ملك الموت! إذهب إليه

---

(١) لقاء الله: ص٦١.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٤.

وقل له: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ إنَّ الحبيب يحبُّ لقاء حبيبه»[١].

روي أنَّ ملك الموت مضى فلقي عبداً مؤمناً فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، فقال: لي إليك حاجة أذكرها في أذنك.

فقال: هات، فقال: أنا ملك الموت.

فقال: أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته، فوالله ما كان في الأرض غائب أحبّ إليَّ من أن ألقاه منك.

فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت من أجلها.

فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحبّ من لقاء الله تعالى.

قال: فاختر على أيِّ حال شئت أن أقبض روحك.

قال: تقدر على ذلك؟

قال: نعم إنِّي أُمرت بذلك.

قال: فدعني أتوضأ وأُصلِّي ثم اقبض روحي وأنا ساجد - فقبض روحه وهو ساجد -.

اللقاء يوم القيامة:

إنَّ يوم القيامة يُسمَّى بـ«يوم التلاق» كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] وذلك لأنَّ العبد يلاقي ربّه، ويلاقي ثواب عمله، ففي ذلك اليوم يتم «اللقاء الثاني» وهو لقاء كل الخلائق بالله تعالى، فعن الإمام

---

(١) كلمة الله: ص٦٩.

علي عليه السلام أنَّه قال: «جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنَّه يعني بذلك البعث»[(١)].

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الرُّوم: ١١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السَّجدَة: ١١].

ففي ذلك اليوم يرى الذين كانوا يكذبون بالله تعالى واليوم الآخر آيات الله تعالى تتجلَّى فيعلمون أنَّه الحق، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٣١].

قال السيِّد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: «والوقوف على ربِّهم بمعنى معاينة آثار قهره وحكومته وسلطته وقيادته، وهذا الوقوف حاصل لأولياء الله تعالى في تمام حالاتهم في الدُّنيا والآخرة... نعم سيحصل من ذلك لهم الوقوف مع الرَّبّ الذي يختلف عن الوقوف على الرَّبّ»[(٢)].

وأما أهل الإيمان فيفرحون بلقاء الله تعالى، فقد كانوا يلاقونه في الدُّنيا من خلال مشاهدة القلوب لآياته، وأما في الآخرة فيتم التجلِّي

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «اللقاء».

(٢) مواهب الرحمن: ج١٣، ص١٩٠.

بشكل آخر بعد كشف الحقائق، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

الإيمان باللقاء:

إنَّ الإيمان باللقاء يدعوا الإنسان إلى الاهتمام به، فمن كان يعلم أنَّه سيلتقي بحبيبه في الوقت الكذائي، فإنَّه يستعد، ويهيىء نفسه لذلك اللقاء.

وأما من آمن بلقاء الله تعالى فلا بدَّ له من:

١ ـ **تشويق النفس إلى اللقاء**، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه كتب إلى أهل مصر: «وإنِّي إلى لقاء الله لمشتاق وحسن ثوابه لمنتظر راج»[(١)].

وسُئل عليه السلام: بماذا أحببت لقاءه؟ فقال: «لما رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه علمت أنَّ الذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببت لقاءه»[(٢)].

وفي التوراة: «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً»[(٣)].

٢ ـ **العمل الصالح**، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

٣ ـ **الدعاء بحصول اللقاء**، ففي دعاء الإمام ليلة الهرير:

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «اللقاء».

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

«وارزقني شوقاً إلى لقائك، ونصراً في نصرك حتى أجد حلاوة ذلك في قلبي».

التكذيب باللقاء:

إنَّ التكذيب بلقاء الله تعالى هو كفر - والعياذ بالله - ومصير الكافر هو كره الله تعالى للقائه، ثم إدخاله في عذاب النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧-٨].

فالمكذبون هم غافلون، يائسون، خاسرون، وفي العذاب مُحضرون.

❋ ❋



كذبني وشتمني ابن آدم

في الحديث القدسي:

«يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله: إنَّ لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله ليس يعيدني كما بدأني»[١].

❁ ❁ ❁

إطلالة على الحديث:

إنَّ هذا الحديث القدسي يبيّن حال العبد في علاقته بربّه، حيث يكفر بالله تعالى من خلال الشرك وعدم الإيمان باليوم الآخر.

التكذيب بالتوحيد:

جاء في حديث قدسي: «شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمه إيَّاي قوله: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البَقَرَة: ١١٦] وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أُولد ولم يكن لي كفواً أحد»[٢].

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري والنسائي.

وهذا الموضوع من أهم المواضيع العقائدية وهو الأساس في حياة الإنسان حيث يتعلق بالتوحيد، ولذا كثرت الآيات القرآنية التي تتحدث عنه، وفيها يبيّن الله تعالى أقوال الكافرين ويردّ عليها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

فقد عبَّر الله تعالى عن أقوالهم بأنَّها ﴿إِفْكٌ﴾ أي كذب و﴿إِدًّا﴾ أي عجباً وفظيعاً و«خرق» أي اختلاق الكذب، وعبَّر في الحديث القدسي بأنَّها «شتم».

وقد ردَّ الله تعالى عليهم بأنَّه تعالى لم يكن له ولد، فقد تعالى عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

وذلك لأنَّه الغني الذي لا يحتاج إلى أحد كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

بل هو الله الأحد الصمد كما قال في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤].

التكذيب باليوم الآخر:

جاء في الحديث القدسي: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وتكذيبه إيَّاي قوله: «لن يعيدني كما بدأني» وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»(١).

إنَّ هذا التكذيب باليوم الآخر موجود في كل عصر، ففي عصرنا الحاضر نسمع البعض يقول: «من مات وعاد وأخبر عن الآخرة» وفي العصر السابق كانوا يقولون: إنَّ آباءنا لم يعودوا بعد الموت فكيف نؤمن بالمعاد؟ قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

وقد ردَّ الله تعالى عليهم بأنَّ الذي أوجد الخلق من العدم يستطيع أن يعيدهم بعد موتهم، بل هو أهون عليه، لأنَّ الإعادة جمع وترتيب المواد المتحللة في الأرض، وهي أهون من الإيجاد من عدم كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤].

أي إنَّ الله تعالى يعلم ما تحلَّل منهم ونقص وصار في أتراب وكله محفوظ لديه، وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قصة ميلاد السيِّد المسيح عندما استغربت مريم عليها السلام من ولادته بلا أب فقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] وعندما نستعرض الآيات القرآنية نجد هذا المعنى في عدة آيات منها: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

---

(١) البخاري.

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٤٨-٥٤].

وقد بيَّن الله تعالى لهم كيفية الإعادة وضرب فيها الأمثال والقصص كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

توقير الله تعالى:

من هنا نطل على مسألة مهمة وهي «توقير الله» أي تعظيمه واحترامه وعدم تكذيبه وشتمه في أي شيء كما قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نُوح: ١٣] والمعنى: ما لكم أيُّها الناس لا تعرفون عظمة الله تعالى فتوقروه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

وفي الواقع فهذه من المسائل التي يكثر الوقوع فيها في كل زمان، حيث قد نرى البعض يستخفّ بالأوامر الإلهية، والشعائر الدينية، والمقدّسات الإسلامية.

وهذا الأمر لا يصدر إلاَّ من الشقي الجاهل بالله تعالى كما في دعاء كميل: «وتجرأت بجهلي».

ومن رسالة الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر: «لا يجترىء على الله إلاَّ جاهل شقي».

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لذلك فمنهم من قال: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفُرقان: ٦٠].

ومنهم من خاصم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

ومنهم من يسبّ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

عن الإمام علي عليه السلام: «لا تجعل ذرب لسانك على من أنطقك»[١] والذرب هو الفحش والبذاء في الكلام.

جاء في موعظة للإمام المهدي عليه السلام: «لا لجلال الله تعظّمون، ولا لشأن الله تكبِّرون، ولا من عظمة الله تسجدون، ولا لحقوق الله توفون، ولا من صولة الله تحذرون، وما الله بغافل عمَّا يعملون».

ومن مظاهر عدم توقير الله تعالى:

١ ـ أن يُقدّم غيره عليه، فمثلاً: جاء في استطلاع للرأي على طلبة إحدى الجامعات عن المثل الأعلى فوجدوا أنَّ الترتيب هو كالتالي:

١ ـ الفنانين.

٢ ـ لاعبي الكرة.

٣ ـ المشاهير من الإعلاميين.

٤ ـ الله ورسوله.

فإذا كان الله تعالى هو الأخير فأين التوقير؟ وهو تعالى القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

---

(١) غرر الحكم: ص٤٧.

[الحُجرَات: ١] فلا يجوز أن يُقدّم عليه غيره في التفضيل أو الخوف أو الحياء. . .

٢ ـ أن يختار الإنسان شيئاً بعيداً عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبَة: ٦٣] ومعنى: ﴿يُحَادِدِ﴾ أي يكون الله ورسوله في حدّ والمخلوق في حدّ آخر وقيل: ﴿يُحَادِدِ﴾ مأخوذ من المحادة وأصلها حد ومعناها نهاية الشيء وطرفه لما كان الأعداء في الطرف الآخر المقابل، ووردت بمعنى العداوة»[1].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١١٥].

---

(١) الأمثل: ج٦، ص١٠٠.



الإسلام

قال الله تعالى:

«وعزَّتي وجلالي إنِّي لأستحيي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام، أن أُعذِّبهما»[١].



الدِّين العالمي:

يعتبر الإسلام هوالدِّين الجامع لكل البشر منذ آدم عليه السلام وإلى يوم القيامة، فما من نبي إلاَّ وقد دعا قومه إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٣].

وممَّن أسَّس معالم الإسلام واشتهر به هو سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فقد كان أول المسلمين، وهو الذي أطلق اسم المسلمين كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحَج: ٧٨].

---

(١) كلمة الله: ص١٢٩.

وتبعه على ذلك بقية الأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام ومن تبعهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقد غلب اسم الإسلام على رسالة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله حتى صار علماً على دينه، وسيكون الدِّين الإسلامي في آخر الزمان هو الدِّين العام لكل البشر وذلك عندما يظهر الإمام المهدي عليه السلام.

صبغة الله تعالى:

فالإسلام هو الدِّين الذي اصطفاه الله تعالى للناس كما عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه»[١].

وهو الصبغة الإلهية كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

ولأنَّه الدِّين الذي ارتضاه تعالى واصطبغه في الكون والحياة نجد أنَّ كل شيء منقاد لله تعالى ومسلّم له من الذرة إلى المجرَّة، وهذا ما يُسمَّى بـ«**الإسلام التكويني**» وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٣] فما من شيء في الكون إلا وهو مسيَّر لله تعالى بلا تمرّد ولا عصيان.

جزاء المسلمين:

فمن اتبع الدِّين الإسلامي فهو من الفائزين في الدُّنيا والآخرة كما

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٢].

ومن هنا ورد الحديث القدسي الذي ذكرناه أول الموضوع ومعناه إنَّ الله تعالى يقسم بعزته وجلاله أنَّه يستحي أن يعذب الرجال والنساء الذين يشيبون في الإسلام.

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله ينظر في وجه الشيخ صباحاً ومساءً فيقول: عبدي كبر سنك، ودقَّ عظمك، ورقَّ جلدك، وقرب أجلك، وحان قدومك عليَّ، فاستحي منِّي فأنا أستحيي من شيبتك أن أعذّبك في النَّار، ثمَّ بكى النبي ﷺ، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: أبكي ممَّن يستحيي الله منه وهو لا يستحيي من الله»[1].

ما هو الإسلام؟

عندما نراجع معنى الإسلام في اللغة نجد أنَّه الانقياد والطاعة، ويقابله التمرُّد والعصيان، وبالتدبُّر في حقيقة الإسلام نجد أنَّه الانقياد التام في القلب واللِّسان والجوارح، فلا يكفي الانتماء للإسلام في الهوية والمجتمع، فالإسلام الحقيقي والعملي هو:

١ ـ **الاستسلام القلبي** بلا شك ولا اعتراض ولا تمرّد كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩]، ويقرب البعض هذا الاستسلام بأنَّه كالمصارعة بين رجلين، فكما أنَّ أحدهما يستسلم للآخر بعد المصارعة، فإنَّ العقل والهوى، يتصارعان في الإنسان ولا بدَّ من غلبه العقل واستسلام الهوى فإذا أسلم الهوى، وخضعت النفس بلا تمرّد فهذا هو الإسلام، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ج٢، ص٤٤٥.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه تلا هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥] فقال: لو أنَّ قوماً عبدوا الله ووحَّدوه ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله: لو صنع كذا وكذا، أو وجدوا ذلك في أنفسهم ما كانوا بذلك مسلمين ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥] قال: هو التسليم في الأمور»[1].

٢ ـ **الاستسلام القولي** وهو الإقرار بالتسليم لله تعالى، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «وأما معنى الإسلام فهو الإقرار بجميع الطاعة»[2].

وهذا الإقرار هو إعلان عن الانتماء الحقيقي للإسلام، ولازمه القبول بكل ما جاء به الإسلام.

٣ ـ **الاستسلام العملي**، وهو الاتباع المطلق للإسلام في كل الأمور الخاصة والعامة كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وهذا المعنى ينطبق على كل جوارح الإنسان، فللعين إسلام وإسلامها عدم النظر إلى الحرام، وللسمع إسلام وإسلامه عدم الاستماع إلى الغيبة، وهكذا.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص١٩٩.
(٢) ميزان الحكمة.

ومن هنا جاء في وصف المسلمين.

«من سلم المسلمون من يده ولسانه».

«المسلمون كالرجال الواحد إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له سائر جسده».

إبراهيم عليه السلام مثال التسليم لله تعالى:

بلغ إبراهيم عليه السلام ذروة التسليم لأوامر الله تعالى كما في الحديث القدسي: «إنَّ الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: إنَّك لمَّا سلَّمت مالك للضِّيفان، وولدك للقربان، ونفسك للنِّيران، وقلبك للرَّحمان، اتخذناك خليلاً»[1].

وفي آية مباركة يصف القرآن منتهى التسليم عند إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل، حيث يذكرنا بأبعاد هذه الصفة الإيمانية عندهما حيث نجد أن إبراهيم الشيخ الذي انتظر طويلاً حتى رُزق ولداً، حتى إذا كبر هذا الولد ـ أي إسماعيل ـ وأصبح شاباً يملأ قلبه فرحاً وسكينة، يستعد لذبح هذا الفتى المؤمن بيده، كما نرى هذا الشاب الذي يستقبل الحياة بكل أمل، يتقبل الأمر الإلهي بكل ترحاب! إنَّه تجلٍّ عظيم لروح التسليم لله، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصَّافات: ١٠٣].

التسليم لله تعالى:

إنَّ الإسلام لله تعالى يقتضي الاستسلام له في كل شيء، كاستسلام العبد أمام سيِّده.

---

(١) كلمة الله: ص١٣٦.

فمن عرف الله تعالى وصفاته وحكمته أيقن أنَّ الله تعالى لا يريد به إلاَّ خيراً فاستسلم له، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «أحق من خلق الله بالتسليم لما قضى الله من عرف الله»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عباد الله أنتم كالمرضى وربّ العالمين كالطبيب، فعلاج المرضى فيما يعلمه الطبيب وتدبيره به لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلِّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»[٢].

بل إنَّ أولياء الله تعالى لا يزدادون في أمورهم مهما صعبت إلا تسليماً كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فالمسلم هو من يسلّم بوعد الله تعالى، وهو من يرضى بالقضاء والقدر عند نزول البلاء.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «العبد بين ثلاث: بين بلاء، وقضاء، ونعمة، فعليه للبلاء من الله الصبر فريضة، وعليه للقضاء من الله التسليم فريضة، وعليه للنعمة من الله الشكر فريضة»[٣].

والمسلم من يسلّم بقضاء الله تعالى وقدره في الموت، ففي الخبر أنَّ الإمام الصادق عليه السلام أمر ولده الكاظم عليه السلام أن يعزِّي المفضّل بن عمرو عندما مات ولده ويقول له: «أُصبنا بإسماعيل فصبرنا، فاصبر كما صبرنا، إذا أردنا أمراً وأراد الله أمراً سلَّمنا لأمر الله»[٤].

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «التسليم».
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

الإيمان

يقول الله تعالى:

«المعروف هديَّةٌ منِّي إلى عبدي المؤمن فإن قبلها فبرحمتي ومنِّي، وإن ردّها فبذنبه حرمها ومنه لا منِّي، وأيُّما عبدٍ خلقته ثمَّ هديته إلى الإيمان وحسّنت خلقه ولم أبتله بالبخل فإنِّي أُريد به خيراً»[١].

❋ ❋ ❋

الإيمان محور الحياة:

ما من دين من الأديان إلا ويدعو اتباعه إلى الإيمان به، إذ إنَّ محور العقيدة هي الإيمان، فاليهودي يؤمن بالدِّين اليهودي، والمسيحي يؤمن بالدِّين المسيحي، وهكذا نجد الأمر في الدِّين الإسلامي، فهو يدعوا اتباعه الإيمان، ـ باعتبار أنَّ الإيمان بعد الإسلام ـ واتباعه يعلمون إيمانهم به، وهو ما يُسمَّى بالإيمان الانتسابي.

وهنا نتساءل: هل يكفي الإيمان الانتسابي؟ وما هي حقيقة

(١) كلمة الله: ص١٢٩.

الإيمان؟ هل وصلنا إلى مرتبة الإيمان؟ كيف نعرف أنَّنا من أهل الإيمان؟

الإيمان حالة فطرية:

ما من شيء يتعرض له الإنسان إلا ويقف إزائه بين الإيمان أو عدمه، فمثلاً: عندما يمرض يذهب للطبيب الفلاني لإيمانه بقدراته وخبرته، وعندما يصعد في الطائرة يكون قد آمن مسبقاً بسلامة الطائرة وخبرة القائد، وهكذا نجد هذا الأمر في كل مجالات الحياة فيُقال: هل تؤمن بأنَّ فلان قائد صالح؟ هل تؤمن بالعالم الفلاني؟ هل عندك إيمان بقدرات فلان؟ أو بمقدرتك على العمل الكذائي؟

ويتجلَّى هذا الأمر بالإيمان بالدِّين، والله تعالى، واليوم الآخر، فيُقال: فلان آمن بالله تعالى.

ويقابل هذا الإيمان بكل مصاديقه «الشك» و«الكفر» فيُقال: أشك في قدرات فلان أو لا أؤمن بعلمه.

مقومات الإيمان:

إنَّ الإيمان بأي شيء يمرُّ بعده مراحل:

أولاً: تلقِّي المعلومة دون اتخاذ موقف الرفض أو القبول.

ثانياً: إدخال المعلومة إلى طاولة التشريح للتحقيق فيها، فإن كانت معلومة فكرية فإنَّه يحلِّلها ويناقشها ويتدبَّر فيها حتى يصل إلى الإيمان فيها أو رفضها، وإن كانت معلومة تتعلق بالأمور المادية أدخلها إلى المختبر العلمي المادي ليصل إلى النتيجة.

ثالثاً: الحكم على المعلومة وهو ما يُسمَّى بالإيمان بها أو رفضها كلياً.

ولتقريب المعنى نأتي بالمثال التالي: لو أخبرك إنسان عن وجود علاج فعَّال لآلام الظهر، فإنَّك قد ترفض ذلك مباشرة وهذا خطأ، وقد تؤمن بذلك إلا أنَّ الإيمان يبقى ناقصاً لأنَّه لم يدخل في التجربة، فإذا جربت ذلك ونجح الدواء تحوَّل الإيمان النظري إلى إيمان عملي تصديقي.

بعد هذه المقدِّمة نقول: إنَّ ما نحتاجه في الأمور الدينية هو الإيمان القائم على الوعي والتصديق لا مجرد الإيمان النظري، فإنَّ الإيمان السطحي والأعمى قد يزول بأدنى تشكيك أو تعرّض للضغوط أو الإغراء.

من هنا جاء تعريف الإيمان بأنَّه «التصديق أو الاعتقاد الجازم بأمرٍ ما».

ومن الطبيعي أنَّ الإيمان بهذا المعنى لا يكون إيماناً حقيقياً إذا كان مجرد إيمان نظري.

ولكن للأسف فإنَّ الإيمان السائد هو هذا، والدليل على ذلك إنَّنا لو سألنا أحد المؤمنين عن الله تعالى ووجوده وصفاته فإنَّه يرفض الخوض في ذلك خوفاً أن يطعن في إيمانه أو أن يكفر فيقول: «لا أُريد أن أفكّر، فهذه أمور تؤدِّي إلى الكفر» ولكن هل هذا إيمان حقيقي؟

الإيمان بالشهادة والغيب:

إنَّ الإيمان بالأمور المادية من المسائل السهلة حيث إنَّها تخضع للحواس الجسدية والمختبرات المادية، وأما الإيمان بالأمور الغيبية

فهو ما يحتاج إلى برهان عقلي وقلبي وذلك لأنَّه لا يخضع للتجارب والمختبرات المادية وإنَّما للاختبارات الرُّوحيَّة، كالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ولذا كان الإمام علي عليه السلام يقول: «كيف أعبد ربّه لم أره» وعندما يُسأل عن ذلك يقول:

«لم تره العيون وإنَّما رأته القلوب»،

ولذلك ذكر القرآن الكريم هذه المسألة بشكل تفصيلي وجعل من أهم أسس الإيمان هي «الإيمان بالغيب».

فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البَقَرَة: ١-٤].

وقد ذكرت الروايات الشريفة معانيَ عدَّة تنطبق على مفهوم الغيب منها: ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله - في حديث يذكر فيه الأئمَّة الاثني عشر عليهم السلام وفيهم الإمام المهديّ عليه السلام الغائب - أنَّه قال: «طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محبّتهم أولئك من وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: ٣]»[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: ٣] قال عليه السلام: «يصدِّقون بالبعث والنشور والوعد والوعيد» وفي رواية «من أقرَّ بقيام القائم أنَّه حقّ»[٢].

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنَّه قال في الآية: «يعني ما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث

---

(١) مواهب الرحمن: ج١، ص٥٤.
(٢) عوالم الغيب والشهادة: ص٢٨.

والحساب والجنَّة والنار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرفون بالمشاهدة وإنَّما يُعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى دلائل عليها كآدم وحوَّاء وإدريس ونوح وإبراهيم والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون»(١).

وهذا الإيمان هو أعظم الإيمان، ذلك لأنَّه من دون رؤية بصرية ولذا كان رسول الله ﷺ يقول: «ليس إيمان من رآني بعجب ولكن العجب كل العجب لقوم رأوا أوراقاً فيها سواد فآمنوا به أوله وآخره»(٢).

وفيما يلي نتحدَّث عن أهم المسائل الإيمانية.

أولاً: الإيمان العقائدي:

أ ـ الإيمان بالله تعالى:

كلمة الإيمان في اللغة مشتقة من أمن، أي وثق بالشيء وصدَّق به وركن إليه، ولعلَّ هذا الأمن والاطمئنان هو ما يشعر به الإنسان عندما يعتقد بالله تعالى، وذلك لأنَّ الإنسان يشعر بداخله أنَّه تائه لا يعرف بدايته ولا نهايته، ويجهل الموت وما بعده، فيحتاج إلى ما يطمئنه، وهنا يأتي دور الإيمان الذي يبدّد المخاوف والقلق، ويوجد الأمن والسكينة، ولهذا نجد الإيمان عبر التاريخ وفي كل الشعوب حتى قال أحد علماء الآثار: «قد نجد في الحفريات مدن بلا مدارس ولا مستشفيات ولكنَّا لانجد مدناً بلا معبد».

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الإيمان».

ويذهب البعض إلى أنَّ الإيمان لم يكن موجوداً لدى الخليقة الأولى لأنَّه لم يكن محتاجاً إليه، فقد كان يدرك وجود الله تعالى بداهة حيث كان كياناً روحياً ـ وقد يكون ذلك في عالم الذر ـ فلما ابتعد عن العالم الرُّوحي وهبط إلى العالم المادي وانغمس في المادة فقد الاتصال بربّه وبات غريباً عن نفسه وعن ربّه حتى انتهى به المطاف إلى الشك بوجود الله تعالى، ومنذ ذلك الوقت بدأ عصر النبوَّة، فبعث الله تعالى الأنبياء وأنزل الكتب ليعيدوا الإنسان إلى فطرته الأولى[١].

وإلى هذا المعنى يشير حديث الإمام علي عليه السلام: «... فبعث فيهم رسله وواتر أنبياءه ليثيروا لهم دفائن العقول».

والإيمان بالله تعالى يستدعي الإيمان بالقرآن الكريم والأنبياء والأولياء عليهم السلام قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

ب ـ الإيمان باليوم الآخر:

إنَّ الإيمان باليوم الآخر من ضروريات الدِّين الإسلامي، وما نحتاجه هو أن يكون هذا الإيمان على مستوى عالٍ من التصديق، فما من إنسان إلا ويحتاج إلى تقوية الإيمان باليوم الآخر حتى إنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام طلب من ربّه أن يريه كيفية ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

---

(١) محاضرات في الايزوتيريك: ج١، ص١١٠.

كما فعل ذلك نبي الله «عُزير»، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

إنَّ الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان على درجة عالية من التقوى والورع، حيث يمتنع عن الحرام خوفاً من العقاب والعذاب، ولذا نجد أنَّ أكثر الأمور التي تعصم الإنسان عن الحرام هو هكذا إيمان، والشواهد على ذلك كثيرة.

عن النبي ﷺ أنّه استقبل حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له: «كيف أنت يا حارثة بن مالك؟».

فقال: يا رسول الله مؤمن حقاً.

فقال له رسول الله ﷺ: «لكلّ شيء حقيقة فما حقيقة قولك» فقال: يا رسول الله أعزفت نفسي عن الدُّنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري، وكأنِّي أنظر إلى عرش ربِّي وقد وُضع للحساب، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنَّة يتزاورون في الجنَّة، وكأنِّي أسمع عواء أهل النار في النار.

فقال رسول الله ﷺ: «عبد نور الله قلبه، أبصرت فأثبت»[١].

ثانياً: الإيمان العملي:

إنَّ الإيمان النظري بحاجة إلى تطبيق عملي ـ كما ذكرنا ـ ومن

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

هنا نجد النصوص الكثيرة التي تربط الإيمان بالعمل الصالح، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

وعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الإيمان والعمل أخوان شريكان في قرن، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه»(١).

وهذا ما يقودنا إلى «الإيمان الجوارحي» الذي يصدق على جوارح الإنسان كافة، وفي النصوص أنَّ الإيمان مبثوث على الجوارح كلها، فهناك إيمان للعين، وإيمان لليد، وإيمان للقلب...

صفات أهل الإيمان:

١ ـ **زيادة الإيمان في القلوب**، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

٢ ـ **الثبات على الإيمان**.

٣ ـ **في قلوبهم حلاوة الإيمان**، عن رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»(٢).

٤ ـ **لديهم حقائق**، ففي الرواية أنَّ النبي ﷺ لقي في بعض أسفاره ركباً فقال لهم: ما أنتم؟ قالوا: نحن مؤمنون، فقال ﷺ: فما

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الإيمان».

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الإيمان».

حقيقة إيمانكم؟ فقالوا: الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله تعالى، فقال ﷺ: علماء حكماء كادوا من الحكمة أن يكونوا أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه تُرجعون»[١].

٥ ـ كمال الإيمان، عن الإمام علي عليه السلام: «أكملكم إيماناً أحسنكم خلقاً»[٢].

صفات عامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١].

طاقة الإيمان:

إنَّ للإيمان طاقة خلاَّقة في الإنسان، بينما الشك والتردُّد هدم

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

وتقوقع وفشل، فكل اختراع أو اكتشاف مردَّه إلى الإيمان، فلولا إيمان المخترع بعمله وقدراته وأهدافه لما ظهر اختراع على وجه الأرض.

وهكذا الحال على الصعيد الديني، فالإيمان بالله تعالى وصفاته يمنح الإنسان قوَّة على خلق الكرامات والمعجزات، فكم من حالات مرضية مستعصية لم يعالجها إلا الإيمان، حتى ورد: «من أمن بحجر كفاه».

وجاء في الإنجيل: «أتت امرأة مريضة إلى السيِّد المسيح عليه السلام فقالت في نفسها يكفي أن ألبس ثوبه لأشفى، فالتفت إلها السيِّد المسيح عليه السلام وقال: إيمانك شفاك».

ولذلك كلَّما قوي إيمان الإنسان ظهرت قواه الرُّوحيَّة فصار يتصرف بالجمادات والحيوانات والناس، وهو ما كان يظهر على يدي النبي محمَّد وآله عليهم السلام من معجزات وكرامات، والشواهد كثيرة.

❁ ❁

التقوى

عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «قال الله تعالى:

«أنا أهل أن أتقى ولا يشرك بي عبدي شيئاً، وأنا أهل إن لم يشرك بي شيئاً أن أدخله الجنة»[1].



درجة التقوى:

تعتبر التقوى من المراتب العالية والمنازل الرفيعة، فهي فوق الإيمان بدرجة كما عن الإمام الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة»[2].

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وجاء في بعض الآيات الأمر بالتقوى بعد الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨] وهي أساس وقوام الحياة

---

(١) الأمثل: ج١٩، ص١٧٥.

(٢) مواهب الرحمن: ج١، ص٦٤.

الإنسانية بكل أشكالها، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

معنى التقوى:

التقوى مأخوذة من مادة «وقى» وهي الحاجز، فيُقال في اللغة: اتقيت الرمح بالترس.

والإنسان المتقي هو الذي يحجز نفسه عن الوقوع في الخطأ، فيتقي الكذب والسرقة والكبر والظلم.

وهو الذي يتقي دخول النار، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣١] وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

وهذه المعاني كلها تعود إلى شيء داخلي هو أنَّ الإنسان يخاف من الشيء فيتقيه، كمن يخاف من ظالم فيتقي شره، وكمن يخاف من عدوى المريض فيتّقي القرب منه.

الله تعالى أهل التقوى:

إذا كان الإنسان يتقي النار ويتقي العار بين الناس، فلا يسرق خوفاً من الفضيحة أو العذاب، فمن الأولى له أن يتّقي ربّه الذي خلقه ورزقه، فلا يكفر به ولا يعصيه.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدَّثر: ٥٦] وعن الإمام

الصادق عليه السلام أنَّه قال في الآية: «قال الله تعالى: «أنا أهل أن أُتّقي ولا يشرك بي عبدي»[١].

ومن هنا جاءت النصوص التي تذكر «تقوى الله تعالى» فيقول تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢] ففي هذه الآية يستنكر الله تعالى على الذين يتقون الناس فيخافون منهم فلا يخالفون أوامرهم، كيف أنَّهم لا يتقون الله تعالى، وهو أحق وأولى.

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١] أي أنَّ وصية الله تعالى لكلّ العالمين هي «التقوى».

تقوى الله تعالى حق تقاته:

إنَّ تقوى الله تعالى على درجات، فمن الناس من يتقيه مائة بالمئة وهذا هو حق التقوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال في معناها: «يُطاع فلا يُعصى ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر ولا يُكفر»[٢].

وهذا الأمر خاص بالكاملين من الأولياء، فعن الإمام علي عليه السلام

---

(١) البرهان: ج٤، ص٤٠٥ وقيل في معنى الحديث: «إنَّ الله تعالى فاعل وهو أهل للتقوى من كل أنواع الظلم والقبح، وإن كان التعبير يأتي قليلاً في إتيان التقوى اسم فاعل والذي يقصد به الله تعالى».

(٢) البرهان.

أنَّه قال في الآية: «والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله، نحن ذكرنا الله فلا ننساه ونحن شكرناه فلن نكفره، ونحن أطعناه فلم نعصه»[١].

ولأنَّ هذا الأمر صعب فقد نزل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] فيكون حق التقوى هي المرحلة العليا وهي للخواص، والتقوى قدر الاستطاعة مرتبة الدُّنيا وهي للعوام.

كيف نتقي الله؟

إنَّ تقوى الله تعالى هي «أن نجعل حاجزاً بيننا وبين غضبه، فلا نعصيه ولا نخالفه في شيء من أوامره».

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «التقوى اجتناب» وعنه عليه السلام: «التقوى أن يتقي المرء كلّما يؤثمه» وعنه عليه السلام: «المتقي من اتقى الذُّنوب».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك»[٢].

وهذه التقوى تجري في كل مناحي الحياة، فهي في العبادات والمعاملات، والحياة العامة، ومن ذلك:

١ ـ **التقوى الاجتماعية**: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ

---

(١) البرهان.

(٢) ميزان الحكمة.

أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٢ ـ **التقوى العبادية**: والواقع فإنَّ الهدف من العبادات هو تقوى الله تعالى كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

٣ ـ **التقوى السلوكية**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٤ ـ **التقوى الاقتصادية**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قصة جامعة:

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «بينا ثلاثة نفر فيمن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطرٌ، فآووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء والله ما ينجيكم إلاَّ الصدق، فليدع كلّ رجلٍ منكم بما يعلم الله عزَّ وجلَّ أنَّه قد صدق فيه.

فقال أحدهم: اللَّهمَّ إن كنت تعلم أنَّه كان لي أجير عمل لي عملاً على فرق من أرزّ، فذهب وتركه، فزرعته فصار من أمره أنِّي

اشتريت من ذلك الفرق بقراً، ثم أتاني فطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال إنَّما لي عندك فرق من أرز، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها فساقها، فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنَّا، فانساحت الصخرة عنهم.

وقال الآخر: اللَّهمَّ إن كنت تعلم أنَّه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كلّ ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ذات ليلة فأتيتهما وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضارعون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما من رقدتهما وكرهت أن أرجع فيستيقظا لشربهما، فلم أزل أنتظرهما حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنِّي قد فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السَّماء.

وقال الآخر: اللَّهمَّ إن كنت تعلم أنَّه كانت لي ابنة عمّ أحبّ الناس إليَّ، وأنِّي راودتها عن نفسها، فأبت عليَّ إلاَّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت عليها، فجئت بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها، فلمَّا قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلاَّ بحقِّه.

فقمت عنها وتركت لها المائة، فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، ففرَّج الله عزَّ وجلَّ عنهم، فخرجوا»[1].

العاقبة للمتقين:

إنَّ المتقين هم الذين يفوزون في الدُّنيا والآخرة، فلهم العاقبة

---

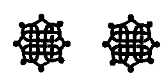
(١) عين الحياة: ج١، ص٤٣١.

الحسنة، فلهم وراثة الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولهم الرزق قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وأما في الآخرة فلهم الفوز العظيم قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].



الورع

قال الله تعالى:

«ابن آدم! اجتنب ما حرَّمتُ عليك، تكن من أورع الناس»[١].



مقام الورع:

يعتبر الورع من منازل السائرين إلى الله تعالى، فهو أعلى درجة من الإيمان والتقوى، ولذلك كثرت النصوص التي تدعوا إليه حتى ورد في الحديث القدسي: «يا أحمد! عليك بالورع، فإنَّ الورع رأس الدِّين ووسط الدِّين وآخر الدِّين إنَّ الورع يقرِّب العبد إلى الله تعالى.

يا أحمد! إنَّ الورع كالشُّنوف[٢] بين الحليِّ، والخبز بين الطعام، إنَّ الورع رأس الإيمان وعماد الدِّين، إنَّ الورع مثله كمثل السفينة، فكما لا ينجو في البحر إلا من كان فيها، كذلك لا ينجو الزَّاهدون إلاَّ بالورع.

يا أحمد! ما عرفني عبدٌ وخشع لي إلاَّ وخشعت له.

---

(١) كلمة الله: ص١٤٢.

(٢) الشنوف: جمع الشنف وهو ما علق في الأذن فما فوقها من الحلي.

يا أحمد! الورع يفتح على العبد أبواب العبادة، فيكرَّم به عند الخلق ويصل به إلى الله عزَّ وجلَّ»[١].

ومن هنا ورد أنَّ الورع من صفات أهل الإيمان، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّا لا نعدّ الرجل مؤمناً حتى يكون بجميع أمرنا متبعاً مريداً، ألا وإنَّ من اتباع أمرنا وإرادته الورع، فتزينوا به يرحمكم الله»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «أعينونا بالورع»[٣].

وهو إشارة إلى أنَّ الأئمَّة عليهم السلام متكفلون بنجاة شيعتهم من النار، فكلَّما كان ورعهم أكثر كانت الشفاعة لديهم أسهل، فالورع إعانة لهم على ذلك[٤].

معنى الورع:

الورع هو الكف عن الشيء، كقول العرب: تورّع فلان عن كذا، أي كفّ عنه وتركه، ومعناه في المصطلح هو «الكف عن المحرمات والمكروهات والشُّبهات».

أقسام الورع:

أولاً: الكف عن المحرمات، فعن الإمام علي عليه السلام: «أصل الورع تجنب الآثام، والتنزّه عن الحرام»[٥]. وهو أول درجات الورع،

---

(١) كلمة الله: ص٣٥٢.
(٢) مرآة العقول: ج٨، ص٤٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ميزان الحكمة: مادة «الورع».

وهو والتقوى بمعنى واحد، مع فرق أنَّ التقوى هي ترك المحرمات وفعل الواجبات، أما الورع فهو الترك، وفي الواقع فإنَّ هذه المرتبة من أهم المراتب، ذلك لأنَّ الإنسان قد يفعل الواجبات ثم يقوم بفعل المحرمات أو قد يفعل المستحبات ثم يفعل المحرمات، وفي ذلك إحباط للعمل، كمن يبني داراً ثم يهدمها، فالأولى أن يترك المحرمات ثم يفعل الواجبات.

ولتقريب المعنى نأتي بالمثال التالي: لو أنَّ مريضاً ذهب للطبيب فينهاه الطبيب عن بعض الأمور كالتدخين وبعض المأكولات، ويأمره بتناول الدواء، ومن البديهي أنَّ تناول الدواء لا ينفع مع عدم الابتعاد عمَّا نهاه عنه، ولذا قيل: «الحمية رأس الدواء».

إنَّ هذا الأمر بعينه يجري في أمور الدِّين، ففيه الحلال والحرام، والواجب والمستحب، والالتزام بالدِّين يقتضي ترك الحرام للوصول إلى الكمال، ومن ثم جاء في الحديث القدسي: «ابن آدم اجتنب ما حرمت عليك تكن من أورع الناس».

ولما سئل الإمام علي عليه السلام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال في شهر رمضان قال له: «الورع عن محارم الله» ولم يقل العمل الكذائي المستحب...

ومن هنا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا خير في نسك لا ورع فيه»[1].

ثانياً: الورع عن الشُّبهات، فالمؤمن هو من يبتعد عن الأمور المشتبه بها لئلا يقع في الحرام، فمثلاً: لو شك في طعام أنَّه حرام أو

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الورع».

حلال فيتورع عنه خوفاً أن يكون حراماً، ولو شكّ في مال أنَّه حلال أم حرام فيتورع عنه، وهكذا.

فعن رسول الله ﷺ: «الورع الوقوف عند الشُّبهة»[١].

وعنه ﷺ: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشُّبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»[٢].

وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الأولى لما فيها من تشديد على النفس.

قال العلامة المازندراني رحمه الله: للورع خمسة أقسام:

الأول: ورع العادلين، وهو ترك الفسوق.

الثاني: ورع الصالحين، وهو ترك ما يحتمل التحريم، ولكن رخص في تناوله بناءً على الظاهر كطعام الملوك وعمالهم وعطاياهم.

الثالث: ورع المتقين، وهو ترك ما ليس في حليته شبهة، خوفاً من أن يؤدِّي إلى المحرم أو الشُّبهة.

الرابع: ورع الصدِّيقين، وهو ترك ما ليس في حلّيته شبهة، ولا يخاف من أن يؤدِّي إلى حرام أو شبهة لعدم تعلقه بالدِّين كالمباحات أو لاتصاله بمن يكره اتصاله به، كما نُقل أنَّ ذا النون المصري لحقه

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

جوع وهو مسجون فأرسلت إليه امرأة صالحة بطعام على يدي السجان فأبى أن يأكله لأنَّه وصل إليه بيدي ظالم.

الخامس: ورع المقربين، وهو صرف القلب عن الاشتغال بما سواه تعالى»[١].

وقال رحمه الله: «قال بعض أهل المعرفة: رأيت في المنام كأنَّ القيامة قد قامت، والخلق كلهم في الموقف، فرأيت طيراً أبيض يأخذ واحداً واحداً من الموقف ويدخله الجنة، فقلت: ما هذا الطير الذي منَّ الله على عباده؟ فنادى منادٍ: إنَّ هذا الطير شيء يُقال له: الورع»[٢].

كمال الورع:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «... يا عيسى بن عبد الله ليس منَّا ولا كرامة من كان في مصرٍ فيها مائة ألفٍ أو يزيدون وكان في ذلك المصر أحدٌ أورع منه»[٣].

قال السيِّد الخميني: «ولا بدَّ من معرفة أنَّ المقياس في كمال الورع على ضوء الروايات الشريفة، هو الاجتناب عن محرمات الله، وأنَّ كل من يبتعد عن المحرمات الإلهيَّة أكثر، يُعدّ من أورع الناس طراً. فينبغي أن لا يستغل الشيطان هذا الموضوع ـ ليس منَّا وفي مصر مائة ألف يوجد أحدٌ أورع منه ـ ويعظّمه، ويلقي اليأس في القلب، لأنَّ من طبيعة هذا الملعون دفع الإنسان إلى الشقاء الأبدي من خلال

---

(١) شرح الكافي: ج٨، ص٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الأربعون حديثاً: ص٤٢٧.

اليأس، بأن يقول له في المقام مثلاً: كيف يمكن أن يكون أورع إنسان في بلد يحتضن مائة ألف أو يزيدون من الناس؟ فإنَّ هذا من أساليب كيد هذا اللعين، ووساوس النفس الأمارة.

وجوابه هو أنَّ من ابتعد عن المحرمات الإلهيَّة يندرج في هذه الروايات، حسب ما يُستفاد من الأحاديث المباركة، ويُعتبر من أورع الناس»[١].

❋ ❋

(١) المصدر نفسه.

اليقين

في توراة موسى عليه السلام:

«عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ولمن أيقن بالحساب كيف يذنب؟ ولمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟ ولمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ ولمن رأى تقلُّب الدُّنيا بأهلها كيف يطمئنُّ إليها؟ ولمن أيقن بالجزاء كيف لا يعمل»[١].

❋ ❋ ❋

درجة اليقين:

يعتبر اليقين من المراتب العالية، فهو فوق الإسلام والإيمان كما ورد في الحديث الشريف: «إنَّ الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسّم في الناس شيء أقلّ من اليقين»[٢].

ونظراً لدرجة اليقين فقد كان الأولياء عليهم السلام يدعون ربّهم أن يرزقهم إيَّاه، فقد رُوي أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان يطيل الجلوس

(١) كلمة الله: ص٣٨٦.
(٢) الكافي: ج٢، ص٥١.

بعد صلاة العشاء سائلاً الله تعالى اليقين، وورد في الدُّعاء: «اللهم ارزقني اليقين وحسن الظن بك».

وعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «ألا إنَّ الناس لم يؤتوا في الدُّنيا شيئاً خيراً من اليقين والعافية فأسألوهما الله»(١).

فمن وصل إلى درجة اليقين فإنَّ أعماله العبادية تزداد نورانية، حتى ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «نوم على يقين خير من صلاة على شك»(٢).

كما أنَّه يصل إلى المقامات العالية فيصدر منه الكرامات، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «اليقين يوصل العبد إلى كلِّ حال سني ومقام عجيب»(٣).

وفي الخبر: إنَّ جماعة طلبوا السيِّد المسيح عليه السلام فوجدوه يمشي على الماء فقال بعضهم: أنمشي إليك؟ قال عليه السلام: نعم، فوضع رجله ثم ذهب يضع الأخرى فانغمس في الماء، فقال عليه السلام: هات يدك يا قصير الإيمان، لو أنَّ لابن آدم مثقال حبَّة أو ذرَّة من اليقين إذن لمشى على الماء»(٤).

ما هو اليقين؟

جاء في لغة العرب «يقن الماء في الحوض» أي استقر وسكن و«فلان ذو يقين» أي له عقيدة مستقرة، فهو ذو إدراك لا يقبل الزوال والوهن، ولإيضاح المعنى نأتي بالمثل التالي:

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

(٢) أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام: ص٥٨.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

(٤) المصدر نفسه.

لو أنَّ رجلاً تثق به أخبرك أنَّه يوجد في المكان الفلاني حريق فعندها يحصل لديك نوع من اليقين الذهني بحصول الحريق، فإذا جاء عشرة أشخاص وأخبروك عن وقوع الحريق فإنَّ هذا اليقين يزداد أكثر إلا أنَّه يبقى في الذهن، فإذا جاء رجل وقال لك: لا يوجد حريق فقد يتزعزع يقينك. . .

لكنَّك إذا ذهبت إلى المكان ورأيت النار فإنَّ اليقين سيترسخ في العقل والنفس بحيث لا يتزعزع مهما شكك الناس.

هذا المعنى يجري في الأمور العقائدية، فقد يعتقد الإنسان بأمور الإسلام من خلال ما قاله والداه أو الناس فيكون اليقين ذهنياً ـ قد يتعرض للتشكيك ـ ولكنَّه إذا وصل إلى درجة عالية من خلال التفكُّر والمعرفة والمطالعة فإنَّه يرسخ في القلب ولا يتزعزع، فيكون يقيناً ذهنياً وقلبياً.

وفي الخبر: سأل الإمام علي عليه السلام ولديه الحسن والحسين عليهما السلام: ما بين الإيمان واليقين، فسكتا، فقال للإمام الحسن عليه السلام: أجب يا أبا محمد، فقال عليه السلام: بينهما شبر، فقال عليه السلام: كيف؟ فقال: لأنَّ الإيمان ما سمعناه بأذاننا وصدقناه بقلوبنا، واليقين ما أبصرناه بأعيننا واستدللنا به على ما غاب عنَّا»[١].

اليقين الصادق والكاذب:

جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك إيماناً تباشر به قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنَّه لن يصيبني إلا ما كتبت لي» وقوله عليه السلام: «يقيناً صادقاً» يشير إلى أنَّ اليقين على نحوين:

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

١ ـ **اليقين الصادق**: وهو اليقين الذي تظهر آثاره لشدة قوته فمثلاً: الشخص الذي يوقن بأنَّ الكهرباء تصعق لا يضع يده عليها مهما تعرض للضغوط أو الإغراء فهذا يقين يترك أثراً واضحاً، فمن أيقن أنَّ الله تعالى مطلّع عليه لا يعصيه، ولذا كان الإمام علي عليه السلام يقول: «والله لو أعطيت الأقاليم السبع على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت».

٢ ـ **اليقين الكاذب**: وهو اليقين الذي يفقد القدرة على التأثير لضعفه كمن هو على يقين بأنَّ الميت لا يؤذي أحداً إلا أنَّه مع ذلك يخاف من الاقتراب إليه، وكمن هو على يقين بأنَّه يموت ومع ذلك تراه لاهياً، وإليها لإشارة بقول الإمام علي عليه السلام: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من الموت».

فالمطلوب هو وجود اليقين الصادق في نفس الإنسان، وهذا اليقين بحاجة إلى تصحيح العقائد والأفكار لئلا يضعف ويتحول إلى يقين كاذب.

وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام: «اللهم صحّح بما عندك يقيني» ومعناه: أنَّ الإنسان قد يظن أنَّه على يقين في شيء، فربّ شخص تثق به ثم يتبين أنَّه ليس أهلاً للثقة فيتبدل اليقين، ولذا فالمطلوب الدعاء لتصحيح اليقين، فإنَّه لا يثبته ولا يصحّحه إلا ربّ العالمين.

معاني اليقين:

لليقين عدة معاني، فهو علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، ولتقريب المعنى نأتي بالمثال التالي: لو أنَّ رجلاً رأى دخاناً من بعيد فسيوقن بوجود النار، إذ لا دخان من دون نار، وهذا هو «علم

اليقين»، فإذا رأى النار بعينيه فهذا هو «حق اليقين»، فإذا وضع يده على النار فهو «عين اليقين»، وإلى هذه الدرجات يشير قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦-٧] فإنَّ بعض الناس قد يشكك في الجحيم حتى إذا دخلها وذاق عذابها صارت عين اليقين، ولو أنَّه كان لديه علم اليقين لنجى من الدخول فيها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٢].

درجات اليقين:

بناءً على ما ذكرنا من معاني اليقين نستنتج أنَّ الناس مختلفون في درجات اليقين، وهذا الاختلاف يؤدِّي إلى اختلاف درجاتهم ومقاماتهم عند الله تعالى.

فعن صفوان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] أكان في قلبه شك؟ قال عليه السلام: لا، كان على يقين ولكنَّه أراد من الله الزيادة في يقينه»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أنَّ أخي عيسى كان أحسن يقيناً ممَّا كان لمشى في الهواء وصلَّى على الماء»[٢].

وممَّن حاز على أعلى درجات «اليقين» هو أمير المؤمنين عليه السلام فهو القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[٣].

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مصابيح الأنوار: ج١، ص٣٠.

والمعنى: أنَّه عليه السلام قد بلغ الغاية في اليقين بحيث لو كُشف له الغطاء بعد الموت لما ازداد يقيناً في الجنة والنار، فقد كان يراهما في الدُّنيا، ولو كُشف له الغطاء عنهما وهي حي في الدُّنيا لما ازداد يقينه.

اليقين المطلوب:

إنَّ اليقين مطلوب في كل شيء، فالموقن هو إنسان ثابت القدم، راسخ العقيدة، ناجح في كل أموره، بينما الذي يتردد ويشكك هو فاشل وضعيف، فعن الإمام علي عليه السلام: «باليقين تدرك الغاية القصوى» وعنه عليه السلام: «من أيقن أفلح»[1].

إلا أنَّ ما نريد التركيز عليه في هذا الموضوع هو اليقين في الأمور العقائدية وأهمها:

اليقين بالله تعالى:

إنَّ اليقين في الله تعالى ليس في مسألة وجوده وتوحيده فحسب بل لا بدَّ من اليقين في صفاته وأفعاله، كاليقين بأنَّه تعالى قادر على كشف الضراء، واليقين بأنَّه رازق العباد، واليقين بأنَّه شافي المرضى... إنَّ هذا اليقين يجعل علاقة العبد بربّه علاقة مميزة، فمن أيقن أنَّ الله تعالى يكشف الضرّ فإنَّه لا يُصاب باليأس والإحباط، ومن أيقن أنَّ الله تعالى يراه لا يعصيه ولا يخالفه. ومن أيقن أنَّ الله تعالى معه فإنَّه لا يضعف ولا يتزلزل، فهذا الإمام علي عليه السلام كان على يقين من دينه وتقواه وعلمه ومواقفه، وهو القائل: «إنِّي على يقين من ربِّي وغير شبهة من ديني»[2].

---

(١) أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام: ص٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٠.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه جلس إلى حائط مائل يقضي بين النَّاس، فقال بعضهم: لا تقعد تحت هذا الحائط، فإنَّ مُعور فقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: حرس امرءاً أجله، فلمَّا قام سقط الحائط: قال: وكان أمير المؤمنين عليه السلام ممَّا يفعل هذا وأشباهه، وهذا اليقين»[1].

اليقين بالآخرة:

إنَّ اليقين بالآخرة يجعل في الإنسان رادعاً من الوقوع في المعصية، كما يجعل منه راغباً في الطاعة للوصول إلى الجنَّة، ولذا نجد القرآن الكريم يذكر أحوال أهل التكاثر ويقول لهم: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦-٧].

ويقول تعالى عن أحوال الأزواج الثلاثة في الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

إنَّ اليقين بالآخرة يؤدِّي بالإنسان لأن يجعل الآخرة نصب عينيه، فـ«هم والجنة كمن قد رآها فهم فيها مُنعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها مُعذَّبون».

عن إسحاق بن عمَّار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلَّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٨.

فعجب رسول الله ﷺ من قوله وقال له: إنَّ لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنَّ يقيني يا رسول الله هو الَّذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها، حتى كأنِّي أنظر إلى عرش ربِّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنَّة يتنعَّمون في الجنَّة ويتعارفون على الأرائك متكئون، وكأنِّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذَّبون مصطرخون، وكأنِّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله ﷺ: هذا عبد نوَّر الله قلبه بالإيمان ثمَّ قال له: الزم ما أنت عليه.

فقال الشابّ: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك.

فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ ﷺ، فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[١].

كيف يزداد اليقين؟

لا بدَّ لكلّ إنسان أن يعمل على ترسيخ اليقين في نفسه ثم يعمل على ازدياده، ويتم ذلك بأمور:

أولاً: التفكُّر في خلق الله تعالى، كالتفكُّر في السموات والأرض والأنفس، ففي ذلك آيات بينات كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠] وهذا التفكُّر هو الذي يُري الإنسان الحقائق فيكون

---

(١) دراسات في الأخلاق: ص٢٤٥.

من الموقنين كما حصل مع سيِّدنا إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ثانياً: التدبُّر في قصص الأولياء عليهم السلام الذين أيقنوا بالله تعالى وصفاته، كيقين إبراهيم عليه السلام في نجاته من النار، ويقين موسى عليه السلام من الهرب من فرعون، ويقين النبي محمَّد صلى الله عليه وآله بالنصر والفتح، والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية.

ثالثاً: الدُّعاء والتوجه إلى الله تعالى للحصول على اليقين وازدياده، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاث تناسخها الأنبياء من آدم حتى وصلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: كان إذا أصبح يقول اللَّهمَّ إنِّي أسألك إيماناً تباشر به قلبي، ويقيناً حتى أعلم أنَّه لن يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضِّني بما قسمت لي»(١).

علامات الموقنين:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... وأما علامة الموقن فستة: أيقن بالله حقاً فآمن به، وأيقن بأنَّ الموت حقّ فحذره، وأيقن بأنَّ البعث حقّ فخاف الفضيحة، وأيقن بأنَّ الجنَّة حقّ فاشتاق لها، وأيقن بأنَّ النار حقّ فظهر سعيه للنجاة منها، وأيقن بأنَّ الحساب حقّ فحاسب نفسه»(٢).

عن صفوان الجمَّال، عن جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] فقال: ما كان ذهباً ولا فضة، ولكن كان أربع

---

(١) القلب السليم: ج١، ص٢٧٨.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

كلمات: «لا إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنّه، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخشَ إلاَّ الله»[١].

في توراة موسى عليه السلام: «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ولمن أيقن بالحساب كيف يذنب؟ ولمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟ ولمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ ولمن رأى تقلُّب الدُّنيا بأهلها كيف يطمئنُّ إليها؟ ولمن أيقن بالجزاء كيف لا يعمل؟»[٢].

❋ ❋

(١) كلمة الله: ص٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه.

الإخلاص سرّ الله تعالى

في الحديث القدسي:

«الإخلاص سرّ من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي»[(١)].

❋ ❋ ❋

أسرار الله تعالى:

خلق الله تعالى الموجودات، وجعل منها عوالم غيبية لا يطّلع عليها إلا الخواص من أهل الإيمان، كما جعل في تلك العوالم الغيبية أسراراً استأثر بها لنفسه، فلا يعلمها إلا هو، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

السرّ بين العبد والرَّبّ:

إنَّ السرّ الذي عند الله تعالى لا يُعطى إلا لمن له أهلية لذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٤٩.

وممَّن أعطى تلك الأسرار هم «النبي وآله ﷺ» كما نقرأ في الزيارة الجامعة «وحفظة سر الله... واختاركم لسرّه...».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ عندنا والله سرّاً من سرّالله وعلماً من علما لله، والله لا يحتمله ملك مُقرَّب ولا نبي مُرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[1].

فهم عليهم السلام الأوعية القابلة لاستيعاب الأسرار الملكوتية...

وفي كل واحد منهم أسرار مستودعة لا يعلمها إلا هم أو من يختارونه من أصحابهم...

فاطمة السرّ المستودع:

جاء في الدُّعاء: «اللّهم إنِّي أسألك بحقِّ فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسرّ المستودع فيها».

وهذا السرّ خاص بالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وقد أُودع فيها بعد أن امتحنها الله تعالى قبل خلقها، وقيل في معناه:

أ ـ إنَّه سرّ الإمامة، حيث جُعلت الزَّهراء عليها السلام وعاءً لهم عليهم السلام.

ب ـ إنَّه الأسرار الإلهية والعلوم الربانية، وهو المستفاد من خلال ما رُوي أنَّ الملائكة كانت تحدِّثها ثم يُكتب ذلك في كتاب سُمّي فيما بعد بـ«مصحف فاطمة».

ج ـ إنَّه الاسم الأعظم.

---

(١) الأسرار الفاطمية: ص٥٢.

د ـ إنَّه أمور الإمامة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ أمرنا سرّ مستتر»[١].

هـ ـ إنَّه الإمام المهدي عليه السلام[٢].

الإخلاص سرّ الله تعالى:

كما أنَّ الله تعالى استودع أسراراً في قلوب المعصومين عليهم السلام فإنَّه تعالى قد استودع سرّ «الإخلاص» في قلب العبد المؤمن الذي صار محبوباً له تعالى.

ففي الحديث عن أحد المعصومين عليهم السلام: «وجدت ابن آدم بين الشيطان، فإن أحبّه الله تقدَّست أسمائه خلّصه واستخلصه، وإلاَّ خلَّى بينه وبين عدوّه»[٣].

والإخلاص هو عمل من الأعمال القلبية التي بين العبد وربّه، ولهذا لا يطّلع عليها إلا هو تعالى، ومن ثمَّ كان هذا السرّ.

ففي الخبر أنَّه سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإخلاص، فقال: حتى أسأل جبرئيل، فلما سأله قال: اسأل ربّ العزة، فلما سأله قال تعالى: «هو سرّ من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي، لا يطلّع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده»[٤].

وإذا أُودع الإخلاص في قلب العبد الذي يحبّه الله تعالى، فإنَّه ينال صفة «المخلِصين» ثم صفة «المُخلَصين».

---

(١) الأسرار الفاطمية.

(٢) راجع الأسرار الفاطمية: ص٣٩.

(٣) الأخلاق في القرآن: ج١، ص٢٣٤.

(٤) مواهب الرحمن: ج٩، ص٣٠٧.

والفرق بينهما أنَّ المخلِصين هم الذين أخلصوا أفعالهم من كل غاية سوى الله تعالى، أما المُخلَصين فهم الذين استخلصهم الله من بين العباد وأخلصهم من كل نجاسة ورجاسة.

وممَّن نال هذه الصفة «الأنبياء والأولياء» عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [صَ: ٤٦].

ومنهم يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤].

ومنهم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مَريَم: ٥١].

ومنهم الرسول الأعظم ﷺ ففي الحديث: «فعند ذلك استخلص الله عزَّ وجلَّ لنبوته ورسالته من الشجرة المشرَّفة الطيِّبة... محمَّد، اختصه للنبوة واصطفاه بالرسالة»[1].

صفات المخلصين:

إذا صار العبد من المخلصين فإنَّه يحقّق في ذاته الأمور التالية:

١ ـ **الحصانة من الشيطان**، كما نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صَ: ٨٢-٨٣].

٢ ـ **الدخول إلى الجنَّة بغير حساب**، ومن دون أن يقفوا مواقف القيامة، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الصَّافات: ١٢٧-١٢٨].

٣ ـ **الجزاء بلا حساب**، فالناس تُجزى بحسب ما عملت، أما

---

(١) الأخلاق في القرآن: ج١، ص٢٣٤.

هم فيجازون بمنّ الله وكرمه عليهم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصّافات: ٣٩-٤٠].

قال العلامة السيِّد كاظم الحائري: «إنَّ النعم المادية والمزيّنة بنعم معنويةٍ قابلةٍ للتصوُّر ولو مختصراً لعامة الناس إنَّما تعتبر جزاءً للأعمال الحسنة أو تجسّماً لها، وكذلك العذاب يعتبر جزاءً للأعمال السيِّئة أو تجسّماً لها (على المسلكين المعروفين من مسلك تجسّم الأعمال أو عدمه). وأمَّا المخلَصون فلا يكفي بشأنهم جزاء أعمالهم، وليسوا هم من الذين عملوا للجزاء، بل عملوا لذات الله سبحانه وتعالى، فهم يُعامَلون معاملة تختلف عن معاملة الأجير، فجزاؤهم خارج عن حيطة أعمالهم، وهو فضل خاصٌ من الله لهم، وكأنَّما يعاملهم الله ابتداءً لذواتهم الذائبة في الله لا لأعمالهم، فجزاؤهم الأوفى يكون جزاءً معنوياً محضاً: من لقاء الله والالتذاذ بجمال الله بالمعنى الممكن، وغير ذلك ممَّا لا يمكن لعامة الناس تصوّره»(١).

ومن هنا ندرك عظمة جزاء الإمام علي عليه السلام يوم ضرب عمرو بن ود العامري فقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود العامري يوم الخندق أفضل من أعمال أُمَّتي إلى يوم القيامة»(٢).

٤ ـ **يمتلك مرتبة عظيمة** بحيث يمكنه الثناء على الله تعالى كما هو حقه كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصّافات: ١٥٩-١٦٠].

---

(١) تزكية النفس: ص٣٩١.

(٢) تزكية النفس: ص٣٩٩.

٥ ـ **ينال الحكمة**، فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «ما أخلص عبد لله عزَّ وجلَّ أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[(١)].

٦ ـ **يصير محلاً للتوجيه الإلهي**، ففي الحديث القدسي: «لا اطلّع على قلب عبد فأعلم منه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي، وابتغاء مرضاتي إلا توليّت تقويمه وسياسته»[(٢)].

ما هو الإخلاص؟

لتوضيح الإخلاص نأتي بالآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النّحل: ٦٦].

فالآية تبيّن أنَّ في الأنعام عبرة عجيبة وهي خروج اللبن ـ أي الحليب ـ من منطقتين هما الدم والفرث، وهذا اللبن صافي وخالص من كل شوب، فلا يشوبه شيء من الدم ولا الفرث، ولذلك فإنَّه يصلح للشرب.

وأعمال العباد ينبغي أن تكون كذلك، أي خالصة من كل شوب فكما أنَّ الله تعالى يسقينا ما هو خالص، كذلك ينبغي أن نصِعد إليه ما هو خالص.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ لكل حق حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يُحمد على شيء من عمل لله»[(٣)].

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الإخلاص».
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ميزان الحكمة: مادة «الإخلاص».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزّ وجلّ»(١).

فالإخلاص هو «العمل الذي صفى من كل شائبة»، ومنه الذهب الخالص، أي غير المشوب بغيره من المعادن، ومنه القمح الخالص، كما قال السيِّد المسيح عليه السلام: «نقّوا القمح وطيّبوه وأدقّوا طحنه تجدوا طعمه ويهنئكم أكله، كذلك فاخلصوا الإيمان وأكملوه تجدوا حلاوته وينفعكم غبّه»(٢).

والشوائب التي تفسد العمل على نوعين:

منها: ما يكون واضحاً والإنسان منه على بصيرة.

ومنها: خفي لا يشعر به الإنسان.

وأما الأعمال التي تشوب الإخلاص فهي:

١ ـ **الرياء**: روي أنَّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله إنَّا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا. قال: يا رسول الله! إنَّا نعطي التماس الأجر والذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله تعالى لا يقبل إلاَّ من أخلص له، ثُمَّ تلا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣]»(٣).

٢ ـ **العُجب**.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الإخلاص».

(٣) تفسير الأمثل ٣٦٥/١٩.

بماذا يكون الإخلاص؟

الإخلاص يشمل كل الأعمال والأقوال والنوايا، سواء كانت من العبادات أو المعاملات حتى المباحات كالأكل والشرب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وعن النبي ﷺ أنَّه قال لأبي ذر: «إن استطعت أن لا تأكل ولاتشرب إلا لله فافعل».

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبّه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وفعله وقوله»[١].

استنتاج:

فالمستفاد من الحديث القدسي ما يلي:

١ ـ إنَّ الإخلاص سر إلهي.

٢ ـ هو من الأعمال القلبية.

٣ ـ إنَّ الإخلاص يستودع في بعض القلوب التي أحبّها الله تعالى.

٤ ـ إنَّ الحب الإلهي هو سبب لحصول العبد على السرّ.

٥ ـ إذا كان الإخلاص من الأسرار التي بين العبد والرَّبّ فلا بدَّ للعبد أن يكون كتوماً على أسراره، فلا يطلع الناس على أعماله لئلا يدخله الرياء والعجب.

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الإخلاص».

٦ ـ ينبغي على المؤمن أن يعمل ليكون بينه وبين ربّه أعمالاً لا يعرفها أحد، وبهذه الأعمال ينال التوفيق الإلهي في حياته، وبها يُقدم على ربّه يوم القيامة، ويقدمها بين يدي حوائجه كما في قصة الثلاثة الذين حُبسوا في الغار لما مطرت السماء، حيث صار كل واحد منهم يذكر عملاً خالصاً ففرّج عنهم.

ومما يُحكى أنَّ القاضي «عياض» كان قاطعَ طريق، فخرج ذات مرَّة ليقطع الطريق على الناس فسمعهم يقولون: ابتعدوا عن هذا المكان، لأنَّ فيه «عياض»، وعياض لا ينجو منه أحد.

فلما سمع خوف الناس ورعبهم منه، راجع نفسه وحاسبها، وقال: يا رب، تُبْ عليَّ حتى يهدأ هؤلاء، فاستجاب الله دعوته وتاب عليه.

فلمَّا تاب الله عليه وأصبح من الأتقياء، سأله مَنْ كانوا يعرفون فظاعته وقسوة قلبه عن هذا التحوُّل في حياته، وما سببُ هدايته؟

فقال: والله إنِّي لأعرف سببها، لقد مررتُ في سوق البطيخ في بغداد، فوجدتُ ورقةً من المصحف في الطريق يدوسها الناس، فانحنيتُ عليها وأخذتُها، فوجدتها مُتسِخة، فمسحتُها وذهبتُ إلى بائع الروائح، وكان معي درهم واحد، فاشتريت به عِطْراً، وعطَّرْتُ الورقة، ووضعتُها في شِقٍّ مرتفع في جدار، والذي نفسي بيده، لقد سمعت منادياً ينادي: «يا عياض.. لأُطيبنَّ اسمك كما طيَّبْتَ اسمي».

❁ ❁

طاعة الله تعالى

ورد في الحديث القُدسي:

«عبدي! أطعني أجعلك مثلي، أنا حيٌّ لا أموت أجعلك حياً لا تموت، أنا غنيٌّ لا أفتقر أجعلك غنياً لا تفتقر، أنا مهما أشاء يكون، أجعلك تشاء يكون»[١].

❋ ❋ ❋

أهمية الطاعة:

أثبت علم النفس والاجتماع أنَّ الطاعة من الأمور التي فُطر عليها الإنسان، والتي تلازمه من الولادة حتى الممات، وأنَّها قديمة قِدم الإنسان، ولا تختص بجيل ولا بأُمَّة، وإنَّما هي شاملة لكل المجتمعات البشرية، ولسائر الحقب التاريخية، فلا يمكن أن يوجد تجمّع صغيراً كان أو كبيراً، إلا إذا كانت الطاعة سائدة فيه.

والطاعة قيمة أخلاقية تشمل جميع العلاقات الإنسانية، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم عسكرية أم غير ذلك، بل إنَّها تتدخل في الإنسان نفسه، فهو إمَّا أن يطيع شهواته وغرائزه، وإمَّا

---

(١) كلمة الله: ص١٣٨.

أن يطيع عقله، وهكذا حتى نصل إلى شمول الطاعة لله تعالى، ودينه، وأوليائه، ولذلك ورد في القرآن الكريم، أنَّ الطاعة هي هدف الخليقة وبعثة الأنبياء عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وجاء في وصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «يا هشام نُصب الخلق لطاعة الله ولا نجاة إلا بالطاعة»[1].

وعندما نرجع إلى النصوص الدينية نجد أنَّ الطاعة من أول وأبرز صفات الذين آمنوا بالله تعالى قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

كما أنَّها أبرز صفات الشيعة فقد روي عن جابر عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال: «يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أُمناء عشائرهم في الأشياء».

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٣٨.

قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة، فقال عليه السلام: «يا جابر لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعالاً؟ فلو قال: إنّي أحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله صلى الله عليه وآله خير من علي عليه السلام ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إيَّاه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ (وأكرمهم عليه) أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر: فوالله ما يتقرَّب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجَّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ولا تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»[1].

ونظراً لأهمية الطاعة وما لها من دور على الصعيد الفردي والاجتماعي فقد حاول الغربيون النيل منها كقيمة أخلاقية، فدعوا إلى التمرد والعصيان، مستهدفين بذلك النيل من القيم الإسلامية.

لذلك كلّه كان من الطبيعيِّ أن يتدخَّلَ الدِّينُ الإسلامي ليبين قيمة الطاعة، ومن يطاع؟ وما هي حدود الطاعة؟ وهو ما سنحاول الإجابة عنه في هذا البحث.

الطاعة وأقسامها:

هي الانقيادُ والاتباع، ويقابلها المعصية، وهي خاصة لله تعالى، فهو وحده تعالى الذي يجب أن يُطاع، وذلك أنَّ الطاعة من فروع

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧/ ص٩٧ الرواية ٤.

المُلكية والربوبية، فالمالك للوجود بأسره وربّ الكون هو الذي يُطاع دون سواه.

وبتعبير آخر: إنَّنا عندما نعتقد بأنَّه ليس لهذا الكون إلا خالق واحد وأنَّ وجود العالم مستمد من ذلك الخالق، ففي هذه الصورة يتعين بالضرورة أن نعترف بأنَّه ليس هناك إلا مُطاع واحد، ويُعبّر عن هذه الطاعة «بالتوحيد في الطاعة» وإلى ذلك تشير الآيات الكثيرة الآمرة بطاعة الله، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. وأما طاعة غيره تعالى فإنَّما تكون عن أمره، ومن ذلك أمره بطاعة رسوله.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومنه طاعة «أولي الأمر» وهم آل محمَّد عليهم السلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النّساء: ٥٩].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال في الآية: «إيانا عنى خاصة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا»[١].

منابع الطاعة:

إنَّ الاستسلام والطاعة لله تعالى منبعها «الحب الإلهي»، فكلما شعر الإنسان بحبه لله تعالى ولأوليائه عليهم السلام فإنَّه يعمل على طاعتهم وولايتهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

---

(١) بحوث في الإمامة والولاية: ص٣٩٩.

وحين يعمر القلب بحب الله، فإنَّ معيار الإنسان يتبدل كلياً، حيث يصبح أحب شيء عنده هو ما فيه طاعة ربه، وقد جاء في حديث مأثور عن شعيب العقرقوفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيء يروى عن أبي ذر رحمه الله أنَّه كان يقول: ثلاثة يبغضها الناس وأنا أحبها، أحب الموت، وأحب الفقر، وأحب البلاء، فقال: «إنَّ هذا ليس على ما ترون، إنَّما عنى: الموت في طاعة الله أحب إليَّ من الحياة في معصية الله، والفقر في طاعة الله أحب إليَّ من الغنى في معصية الله، والبلاء في طاعة الله أحب إليَّ من الصحة في معصية الله»[١].

وإذا ضعف الحب في القلب تجرأ العبد على المعصية، كما ينسب إلى الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال:

أتعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحب لمن يحب مطيع

وكما أنَّ الطاعة تنبع من الحب، فإنَّها تتجذر في النفس وتقوى من خلال ما يملك الإنسان من «صبر وإرادة»، فمن قلَّ صبره كثرت معصيته.

فقد جاء في وصية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام: «يا هشام اصبر على طاعة الله، واصبر عن معاصي الله، فإنَّما الدُّنيا ساعة، فما مضى منها فليس تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت منها فليس تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها، فكأنَّك قد اغتبطت»[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج٦/ ص١٢٩ رواية ١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١٥٢.

والمثل البارز للطاعة الخالصة التي تحدى صاحبها إغراء الملك والقوة، نراه في قصة وائل بن حجر حيث استجاب لدعوة الرسول ﷺ وجاء في حديث مأثور عنه قوله: جاءنا ظهور النبي ﷺ وأنا في ملك عظيم وطاعة من قومي، فرفضت ذلك وآثرت الله ورسوله وقدمت على رسول الله ﷺ فأخبرني أصحابه أنَّه بشرهم قبل قدومي بثلاث، فقال: هذا وائل بن حجر قد أتاكم من أرض بعيدة، من حضرموت، راغباً في الإسلام طائعاً بقية أبناء الملوك، فقلت: يا رسول الله أتانا ظهورك وأنا في ملك، فمنَّ الله عليَّ أن رفضت ذلك وآثرت الله ورسوله ودينه راغباً فيه، فقال ﷺ: صدقت، اللَّهمَّ بارك في وائل وفي ولده وولد ولده[1].

فبعض الناس يُظهر الطاعة بلسانه، ولكنَّه إذا تعرض للضغوط أو الإغراءات فإنَّه سرعان ما يعصي ـ والشواهد على ذلك كثيرة كما سنذكر ـ ولذلك لا بدَّ من توطيد النفس على الطاعة المطلقة في كل شيء، وفي كلِّ الأحوال.

شمولية الطاعة:

إنَّ طاعة الله تعالى لا تقتصر على أمر معين، بل هي شاملة لكل أفعال العباد وأقوالهم وأفكارهم، وذلك لأنَّها فرع العبودية، ومن الطبيعي أنَّ العبودية تعني الطاعة المطلقة في كل شيء.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض النماذج التي تبين الطاعة لما فيها من اختبار للعباد، ومن ذلك:

١ ـ **الطاعة السياسية**، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨/ ص١٠٨ الرواية ٧.

وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ومنه طاعة ولي الأمر الفقيه العادل.

٢ ـ **الطاعة الاقتصادية**، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٣ ـ **الطاعة في القضاء**، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

٤ ـ **الطاعة العسكري**، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النور: ٥٢-٥٣].

٥ ـ **الطاعة الاجتماعية**، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومنه طاعة الولد لوالديه وطاعة الزوجة لزوجها.

جزاء الطاعة:

إنَّ القرآن الكريم يذكر إنَّ للمطيعين الجزاء الكبير في الجنَّة،

فيقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النّساء: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

كما أنَّ لهم نعمة مرافقة الأولياء عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: ٦٩].

وهذا الجزاء هو في الآخرة، وأما في الدُّنيا فبالطاعة يصل العبد إلى مقام تنزل عليه الرحمات الإلهية، وتفيض عليه الأنوار القدسية، وتتجسَّد فيه الصفات الربوبية، ولهذا جاء في الحديث القدسي: «عبدي أطعني تكن مثلي...» أي إنَّ العبد إذا أطاع الله تعالى فإنَّه يصل إلى درجة أن يكون مثل الله تعالى، ومن البديهي أنَّ المثلية ليست في كل شيء، إذ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] وإنَّما هي مثلية في الصفات والأفعال.

شرح الحديث:

قال العلامة الشيخ فاضل الصفَّار: «إنَّ قوله: «مِثْلي» إمَّا للمشابهة في الذات أو الصفات أو الأفعال، وحيث إنَّه يستحيل وجود المشابهة في الذات بين الخالق تعالى والمخلوق؛ إذ ليس له سبحانه ندّ ولا ضدّ ولا شبه، فتبقى جهة المثليَّة إمَّا بالصفات أو بالأفعال، فإنَّ ظاهر الأدلَّة لا يمنع من أن يشترك الخالق والمخلوق في الصفات والأفعال من حيث أصل المشابهة، وإن كان الفارق بينهما في الكيفيَّات والحدود كبيراً جدّاً.

فإنَّ صفاته سبحانه الذاتية عين ذاته كالعلم والقدرة والحياة، بينما

صفات المخلوق مكتسبة منه، ولولاه سبحانه لما كان علم ولا عالم، ولا قدرة ولا قادر؛ إذ لا حول ولا قوَّة إلاَّ به تبارك وتعالى، ومع ذلك يُقال له سبحانه: عالم، كما يُقال للإنسان: عالم، كما أنَّه قادر والإنسان قادر، ولكن شتَّان بين العلمين والقدرتين.

كما أنَّ أفعاله سبحانه نابعة من ذاته وقدرته وإرادته، وأفعال الإنسان تصدر من إقدار الله له، ومع ذلك قد يشتركان في صفات الفعل، فيُقال لله سبحانه: إنَّه صانع وللإنسان أيضاً صانع، كما أنَّه سبحانه خالق وللإنسان خالق أيضاً ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عِمرَان: ٤٩] ونحو ذلك، إلاَّ أنَّ صنعه تبارك وتعالى وخلقه ذاتي استقلالي بينما صنع الإنسان وخلقه عرضي تبعي، كما أكَّد ذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فإنَّ أفعل التفضيل يقتضي المشابهة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢] و: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤] وغيرها من الآيات الدالَّة على المشابهة في الجملة، إلاَّ أنَّ صفات الله سبحانه ذاتية استقلاليَّة، بينما غيرها عرضيَّة اكتسابيَّة، وبهذا يظهر أنَّ قوله سبحانه: «تكن مِثْلي» ليس من حيث الذات، بل من حيث الصفات والأفعال في الجملة.

ومعلوم أنَّ من صفاته سبحانه عموم القدرة على التصرُّف في شؤون التكوين، كما أنَّ من صفاته الولاية ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [الشورىٰ: ٩] فكذلك العبد المطيع لله سبحانه حقّ الطاعة يصل إلى رتبة الولاية، وله القدرة على التصرُّف في شؤون الكون بما أنَّه «مِثْل» له سبحانه، ولكنَّ الفرق أنَّ قدرته وتصرُّفه عزَّ وجلَّ ذاتي، بينما تصرُّف العبد اكتسابي منه سبحانه.

إنَّ قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ: ١١] لا يتنافى مع هذا الحديث؛ لأنَّ الآية في مقام نفي المِثْل الذاتي أو الصفي، بل والفعلي الذاتي؛ فإنَّه بلا شكّ ليس كمثله سبحانه شيء، والحديث في مقام إثبات المثليَّة الصفتيَّة والفعليَّة العرضيَّة الناشئة من الطاعة والعبوديَّة.

وجمع الكاف مع المِثْل في قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ مع أنَّ كليهما للتشبيه، إمَّا لتأكيد النفي تنبيهاً على أنَّه ليس له سبحانه شبيه في الذات والصفات والأفعال، وإمَّا أُريد من المِثْل هنا بمعنى الصفة، ومعناه: ليس كصفته صفة تنبيهاً على أنَّه وإن وصف بكثير ممَّا يوصف به البشر، فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر[1].

وورد استعمال المِثل في الصفة كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[محمَّد: ١٥] أي صفتها، ولا تنافي بين المعنيين وما نحن فيه، فإنَّ ممَّا لا شبهة فيه أنَّ معرفة كنهه سبحانه ذاتاً من المحالات؛ لأنَّ المعرفة بحقيقة الشيء تستلزم الإحاطة به، والكائن المحدود يستحيل أن يحيط باللامحدود.

وكذا الكلام في معرفة كنه صفاته سبحانه، فإنَّها عين ذاته، وحيث إنَّ الإحاطة بالذات مستحيل فالإحاطة بصفاتها العينيَّة أيضاً محالة، ولذا فإنَّ أكثر علومنا به سبحانه تدور في دائرة الأفعال والآثار، ومن أفعاله وآثاره نتعرَّف على أُصول الصفات، ومنها نتعرَّف على الذات بنحو كلِّي لا أكثر، ولكنَّ هذا لا يمنع أن يعطي الله سبحانه القدرة على الفعل والتأثير إلى بعض عباده ليكون مثله في الفعل والتأثير بإذنه وإرادته، فتأمَّل.

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن: ص٤٧٨، «مثل».

وهناك معنى ثالث محتمل أيضاً، وهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي ليس شِبْه مِثْله شيء، وحيث إنَّه سبحانه جعل أولياءه وعباده من الأنبياء والأئمة عليهم السلام مِثْله في الصفات والأفعال وإن كانت صفاتهم وأفعالهم اكتسابيَّة، فالآية تنفي أن يكون له مِثْل أوليائه شيء، فضلاً عن وجود المِثْل له سبحانه وتعالى، وعلى هذا يصبح المعنى ليس شيء مِثْل مِثْلِهِ، فتأمَّل»[1].

هذا المعنى بناءً على أنَّ لفظ المثْل ـ بالسكون ـ وإمَّا بناءً على لفظه بالفتح أي «مثَلي»، فيكون المراد أنَّ العبد إذا أطاع ربه فإنَّه يكون مثلاً يُقتدى به.

قال الشيخ الصفَّار: وأمَّا قوله: «أو مثَلي» فالمَثَل: هو النظير الذي يُحتذى به، وإضافة المَثَل إلى «ياء المتكلّم» هنا تدلُّ على أنَّه سبحانه يجعل عبده المطيع مثله ليُحتذى به، ولا مجال إلاَّ لحمله على كونه مَثَلاً محسوساً يدلُّ على قدرة الله سبحانه وتصرُّفه في شؤون الكون أمام الناس، ولولاه لم يعرف البشر كيفيَّة قدرته وخلقه وإيجاده سبحانه؛ لذلك يجعل سبحانه أولياءه مَثَلاً لذلك، أي إنَّ الإمام يجسِّد نموذج الخلق الإلهي باعتبار أنَّ الناس لا يدركون كيف أنَّ الله سبحانه يقول للشيء كن فيكون، فجعل الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام نماذج لهذه القدرة والإرادة بين الناس يخلقون الأشياء بإذنه سبحانه، فيدرك الناس كيفيَّة خلق الله وإيجاده ولو في الجملة.

ولا ينافي هذا قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] بل هي مؤكّدة لما

---

(١) المظاهرة الإهلية: ج٢ ص١٣٩ ـ ١٤٢.

سبق؛ لأنَّ الآية الشريفة تثبت أنَّ كلّ وصف كمالي يمكن أن يتّصف به مخلوق من علم وقدرة وملك وعظمة وجود، فإنَّ مصداقه الأتمّ والأكمل - إن صحَّ التعبير - هو سبحانه؛ لأنَّه ما يملكه المخلوقون من صفات الجمال والكمال مهما بلغت فهي تبقى محدودة وفي إطار الممكن القاصر ذاتاً عن اللامحدود، إلاَّ هو سبحانه فإنَّه الكامل المطلق الذي يتّصف بصفات الجمال والجلال بنحو لا محدود.

فهو تبارك وتعالى مصدر الكمالات ومنبع الفيوضات، وأوصافه عين ذاته لا تنقص ولا تزول، بخلاف غيره فإنَّ أوصافه عارضة قابلة للزوال والنقصان، إلاَّ من أعطاه الله سبحانه الكمال، وأراد له أن يكون مثله التامّ وحجَّته البالغة كمحمَّد وآل محمَّد عليهم السلام، فأعطاهم من المواهب العظيمة والقدرات الجسيمة حتَّى يكونوا أدلاَّء عليه، وأبواباً إلى رضوانه، والمثل الذي يحتذى كما ورد في بعض الأخبار.

وقد نقل الفيض الكاشاني قدِّس سرُّه عن العيون عن الإمام الرضا عليه السلام: «أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: وأنت المَثَل الأعلى».

وفي رواية أنَّه قال في آخر خطبته: «نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمَثَل الأعلى».

وفي الزيارة الجامعة الجواديَّة: «السلام على أئمَّة الهدى - إلى قوله - وورثة الأنبياء والمَثَل الأعلى في السماوات والأرض»(١).

وحيث إنَّ «المِثْل» قد يكون دانياً وقد يكون عالياً، والعالي قد يكون ما هو أعلى منه، فيظهر منه أنَّهم عليهم السلام المَثَل الأعلى الذي فوق العالي، وهو يشير إلى عموم مثليّتهم عليهم السلام له في الصفات والأفعال بما

---

(١) تفسير الصافي: ج٤، ص١٣٠، ذيل الآية ٢٧ من سورة الروم.

هم أوعية مشيئته سبحانه ومظهر قدرته وإرادته، سوى أنَّ قدرته تبارك وتعالى ذاتيَّة استقلاليَّة وقدرتهم عَلَيْهِ السَّلَامُ عرضيَّة مكتسبة من قدرته وإذنه عزَّ وجلَّ»[١].

كن فيكون:

فإذا صار العبد مطيعاً لله تعالى وتحقَّقت فيه المثلية فإنَّه يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فمن أفعال الله تعالى أنَّه كما قال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البَقَرَة: ١١٧].

فإنَّه تعالى إذا قضى ـ أي حكم بحكم فإنَّه يكون ـ بأمر فإنَّه يكون بلا تهيئة مقدمات ولا أسباب ولا صوت يقرع ولا نداء يسمع، فإرادته هي فعله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته للفعل إحداثه لا غير، ذلك لأنَّه لا يُروّى ولا يهتم ولا يتفكَّر، وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان، ولا همهمة ولا تفكّر ولا كيفٌ لذلك، كما أنَّه لا كيف له»[٢].

وهذا الأمر الذي يتحقَّق هو أمر «تكويني» كما قال تعالى عن قصة

---

(١) المصدر السابق: ص١٤٠.
(٢) مواهب الرحمن: ج١، ص٤٠٩.

إيجاد عيسى عليه السلام بلا أسباب طبيعية ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٤٧].

وفي الخبر: لما صعد موسى إلى الطور فناجى ربّهُ، قال: يا ربّ أرني خزائنك، قال: «يا موسى إنَّما خزائني إذا أردتُ شيئاً أن أقول له: كن، فيكون»[١].

وهذا الأمر التكويني الذي بيد الله تعالى ذاتاً يعطيه لبعض خلقه فتكون له الولاية التكوينية.

استنتاج:

يُستفاد من الحديث القدسي ما يلي:

أولاً: إنَّ العبودية بداية الوصول إلى مرحلة المثلية، وبها يصل العبد إلى درجة القرب والولاية.

قال العلامة الصفَّار: «إيجاد التلازم بين العبوديَّة والولاية حيث يقول: «عبدي أطعني تكن مثلي» يكشف عن سرّ من أسرارها، فإنَّ العبد إذا محض الطاعة والإخلاص ينال درجة القرب، وهو ممَّا يجعل العبد مستحقّاً لنزول العنايات الإلهيَّة والفيوضات الربَّانيَّة، فتظهر على يديه من الغرائب والقدرات ما لا يظهر على يد غيره على اختلاف المراتب والدرجات كما لا يخفى، وهو قد يشير إلى أنَّ مقام الولاية الذي يصل إليه الأنبياء والأولياء عليهم السلام بالاصطفاء والاجتباء حدوثاً ممَّا يحتاج إلى العبادات والطاعات الكثيرة والإخلاص الشديد بقاءً كما يحتاج إلى المزيد منهما شكراً.

---

(١) كلمة الله: ص٤٤.

ولعلَّ ممَّا يؤيّد هذا ما ورد عنهم عليهم السلام: «الربوبيَّة جوهرة كنهها العبوديَّة».

فإنَّ من معانيها أنَّ الربوبيَّة على الأشياء إيجاداً وإعداماً وتربية وتعليماً وتهذيباً ممَّا يتوقَّف على مزيد من العبوديَّة والتفاني والإخلاص للربّ الأعلى والإله الخالق المتعالي تبارك وتعالى حتَّى يكتسب العبد من صفات المعبود وآثاره ـ كما يراه البعض ـ»[١].

ثانياً: إنَّ من أطاع الله تعالى فيما أراد، أطاعه الله تعالى كذلك.

ففي الخبر: «إنَّ الله أوحى إلى داود عليه السلام ـ في شأن قومه: «بلِّغ قومك: أنَّه ليس من عبدٍ منهم أمره بطاعتي فيُطيعني، إلاَّ كان حقّاً عليَّ أن أُطيعه وأُعينه على طاعتي، وإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن اعتصم بي عصمته، وإن استكفاني كفيته، وإن توكَّل عليَّ حفظته من وراء عورته، وإن كاده جميع خلقي كنت دونه»[٢].

وورد: «أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود! إنَّه ليس عبدٌ من عبادي يُطيعني إلاَّ أعطيته قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني»[٣].

ورد في الحديث القدسيِّ: «إنَّ لله عباداً أطاعوه فيما أراد، فأطاعهم فيما أرادوا، يقولون للشيء: كن فيكون»[٤].

ثالثاً: إنَّ العبد ينال بطاعته لله تعالى الولاية التكوينية في الآخرة

---

(١) المظاهر الإلهية: ج٢، ص١٤٤.

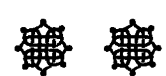
(٢) كلمة الله: ص١٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

كما ورد: «إنَّ العبد إذا دخل الجنَّة تأتيه رسالة من الله تعالى: من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت: أما بعد أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون».

كما ينال هذه الدرجة في الدُّنيا، فيتصرف في الكون والإنسان بإرادة من الله تعالى، وهو ما تجسّد في النبي وآله عليهم السلام بشكل بارز من خلال المعجزات والكرامات، والشواهد على ذلك كثيرة في حياة المعصومين عليهم السلام.



اسألوا الله تعالى

قال الله تعالى:

«يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلاَّ من هديت فسلُوني الهدى أهدكم، وكلُّكم فقيرٌ إلاَّ من أغنيت فسلُوني الرِّزق أرزقكم، وكلُّكم مذنبٌ إلاَّ من عافيتُ فسلُوني المغفرة أغفر لكم، ومن علم أنِّي ذو قدرةٍ على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولا أُبالي»[١].



إطلالة على الحديث:

يعتبر هذا الحديث الشريف من الأحاديث العظيمة التي تترك في نفس القارىء أثراً روحياً، حيث يستشعر الإنسان أنَّ الله تعالى يخاطبه من عليائه، حتى إنَّ أحد العلماء كان إذا روى الحديث جثا على ركبتيه مستشعراً الهيبة والجلال.

(١) كلمة الله: ص٤٢.

شرح الحديث:

وفي هذا الحديث يدعوا الله تعالى عباده بأن يسألوه ويطلبوا ما عنده فإنَّهم فقراء في كل شيء.

ففي البداية يقول تعالى: «**يا عبادي**».

وهذا النداء فخر وشرف للإنسان، فهو يرفض العبودية لأي مخلوق كان ويراه ذلاً ومهانة، إلا أنَّه يفتخر بأنَّه عبدٌ لله تعالى وكما قال الشاعر:

وممَّا زادني شرفاً وفخراً وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبيا

وقال آخر:

لا تدعني إلا بيا عبدي فإنَّها أشرف أسمائي

وفي هذا النداء يدعو الله تعالى عباده ليسألوه الهداية والإطعام وما يحتاجون إليه، وذلك لأنَّهم فقراء في كل شيء ويحتاجون إلى مدد إلهي في كل شيء، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النّسَاء: ٣٢].

وفي الخبر: «إنَّ الله تعالى ينادي كلّ ليلة، من أوَّل الليل إلى آخره: «ألا عبدٌ مؤمنٌ يدعوني لدينه ودُنياه قبل طلوع الفجر فأُجيبه، ألا عبدٌ مؤمنٌ يتوبُ إليَّ قبل طلوع الفجر فأتوب عليه، ألا عبدٌ مؤمنٌ قد قتَّرتُ عليه رزقه فيسألني الزِّيادة في رزقه قبل طلوع الفجر فأزيده وأُوسِّع عليه، ألا عبدَّ مؤمنٌ سقيمٌ يسألني أن أشفيه قبل طلوع الفجر فأُعافيه، ألا عبدٌ مؤمنٌ محبوسٌ مغمومٌ يسألني أن أُطلقه من سجنه

وأُخلِّي سربهُ، ألا عبدٌ مؤمنٌ مظلومٌ يسألني أن آخذ له بظُلامته قبل طلوع الفجر فأنتصر له بظُلامته»(١).

الهداية الإلهية:

ثم يقول الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته**» أي إنَّ كل إنسان بذاته ضال، فهو لولا الهداية الإلهية ما كان ليهتدي إلى شيء، فالمولود لا يستطيع أن يتناول حليب الأُمّ لولا إنَّ الله تعالى هداه إلى ذلك، والرجل لا يستطيع أن يتصرف بحكمة في أعماله لولا أنَّ الله تعالى هداه إلى ذلك، وكل إنسان ضال في نفسه لولا أنَّ الله تعالى هداه إلى ذلك من خلال ما أعطاه من عقل، وما بعث إليه من رسل، وإلى ذلك تشير الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ولذلك ينبغي لكل إنسان أن يطلب الهداية من الله تعالى، كما نقرأ في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦].

وفي الدُّعاء: «اللَّهم اهدني من عندك وافض عليَّ من فضلك».

كما ينبغي للإنسان أن يعلم أنَّه لولا الهداية الإلهية لكان من الكافرين الضالين، فليشكر الله تعالى على هذه النعمة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من أصبح ولا يذكر أربعة أشياء أخاف عليه زوال النعمة: أولها أن يقول: الحمد لله الذي عرَّفني نفسه ولم يتركني عميان القلب»(٢).

---

(١) كلمة الله: ص٢٨٨.

(٢) موسوعة العقائد: ج٣، ص٢٢.

ومن دعاء الإمام علي عليه السلام: «لكنَّك يا مولاي بدأتني أولاً بإحسانك فهديتني لدينك وعرَّفتني نفسك»[١].

وقفة حول آية سورة «الضحى»:

كما أنَّ الله تعالى منَّ على عباده بالهدى بعد الضلال، فقد منَّ بذلك أيضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

والمراد بهدايته صلى الله عليه وآله أنَّه: «ضال في نفسه مع قطع النظر عن الهداية الإلهية، فلا هدى له صلى الله عليه وآله ولا لأحد من الخلق إلاَّ بالله تعالى»[٢].

وقيل: «إنَّ الضلال هو نفي العلم بأسرار النبوَّة وبأحكام الإسلام وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]».

وقيل: «إنَّ الضلال ليس عن أصل الهدى فقد كان صلى الله عليه وآله مؤيداً منذ طفولته كما قال الإمام علي عليه السلام: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

وإنَّما معناه وجدك ضالاً عن وحي الإسلام فهداك إليه أي إلى القرآن فهو ليس ضلال عن كل هدى بل عن هذا الهدى الخاص»[٣].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) الميزان: ج٢٠، ص٣١٠.
(٣) الفرقان: ج٣٠، ص٣٤٥.

الفقر إلى الله تعالى:

«وكلكم فقير إلا من أغنيته فسلوني الرزق أرزقكم».

فكل إنسان فقير إلى الله تعالى في الطعام والشراب والنفْس والحياة، ولولا أنَّ الله تعالى يرزقه ذلك لما استطاع الحياة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

ولذلك ينبغي للعبد أن يطلب الرزق من الله تعالى، لا من غيره من المخلوقين، فإنَّهم فقراء كذلك، وكيف يطلب الفقير من فقير مثله؟.

ولذلك نجد أنَّ الله تعالى يطلب من عباده أن يسألوه، وهذا حال الكريم الجواد الذي لا يخاف الفقر، فيقول للناس: «ولو أنَّ أولكم وآخركم وحيّكم وميّتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى عبدٍ من عبادي لم يزيدوا في مُلكي جناح بعوضة، ولو أنَّ أوّلكم وآخركم وحيّكُم وميّتكُم ورطبكُم ويابسكُم اجتمعوا على أشقى قلب عبدٍ من عبادي لم ينقصوا من ملكي جناح بعوضة، ولو أنَّ أوّلكم وآخركم وحيّكُم وميّتكُم ورطبكُم ويابسكُم اجتمعوا فيتمنَّى كلُّ واحدٍ منكم ما بغلت أُمنيَّته فأعطيته لم يبن ذلك في مُلكي ولا كما لو أنَّ أحدكم مرَّ على شفة البحر فيغمسُ فيه إبرةً ثمَّ انتزعها، ذلك بأنِّي جوادٌ كريمٌ ماجدٌ واحدٌ، عطائي كلامٌ وعداتي كلام، فإذا أردت شيئاً فإنَّما أقول له كن فيكون»[١].

وفي ختام هذا الموضوع نستحضر دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام

---

(١) كلمة الله: ص٤٣.

وفيه: «سيِّدي أنا الصغير الذي ربَّيته، وأنا الجاهل الذي علَّمته، وأنا الضال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوَّيته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترته، والخاطىء الذي أقلته...»[١].

❁ ❁

(١) مفاتيح الجنان: ص٢٣٧.

مجالسة الله تعالى

في الحديث القدسي قال الله تعالى:

«أنا جليس من ذكرني»[١].



الحديث مع الله تعالى:

إنَّ الحديث مع ربّ العالمين نعمة لا يعادلها شيء على الإطلاق... فهذا نبي الله تعالى موسى عليه السلام يطيل الجواب عندما سأله ربّه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾[طه: ١٧] كي تطول اللحظات التي يتحدَّث فيها مع الله تعالى، مع أنَّه كان يستطيع أن يكتفي بجواب ﴿هِيَ عَصَايَ﴾[طه: ١٨].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنَّه فتح لهم باب الحديث معه في أي زمان أو مكان أو حال، ففي مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي غارت نجوم سمائك، ونامت عيون أنامك، وهدأت أصوات عبادك وأنعامك، وغلقَّت الملوك عليها أبوابها، وطاف عليها حرّاسها، واحتجبوا عمَّن يسألهم حاجة أو ينتجع منهم فائدة، وأنت إلهي حي

---

(١) الكافي: كتاب الدُّعاء.

قيُّوم... أبواب سمائك لمن دعاك مفتَّحات وخزائنك غير مغلَّقات وأبواب رحمتك غير محجوبات»[١].

قيل:

حسب نفسي عزّاً بأنّي عبدٌ يحتفي بي بلا مواعيد ربٌّ

هو في قدسه الأعزّ ولكن أنا ألقى متى وأين أحبّ

كيف نتحدَّث مع الله تعالى؟

والسؤال المطروح: كيف نتحدَّث مع الله تعالى؟... هل نناجيه؟ والمناجاة هي الخطاب والدُّعاء سرّاً... أم نناديه؟ بأن نصرخ بأعلى أصواتنا.

الجواب: إنَّ الله تعالى معنا، وقريب منَّا، ومحيط بنا، وهو سميع للدعاء كسمعه للمناجاة.

فقد جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦] أنَّ النبي ﷺ سمع المسلمين يدعون الله بصوتٍ رفيع في غزوة خيبر فقال لهم: «أيُّها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، إنَّكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»[٢].

شرح الحديث القدسي:

وفي الخبر أنَّ موسى عليه السلام سأل ربّه فقال: يا ربّ أقريب أنت منّي فأناجيك أم بعيد فأناديك؟

---

(١) مناجاة أهل البيت عليهم السلام: ص٢١٤.

(٢) مواهب الرحمن: ج٣، ص٦٢.

قيل في سبب سؤال موسى عليه السلام لربه هذا السؤال مع علمه بأنَّه تعالى أقرب إليه من حبل الوريد وجوه:

أولاً: إنَّ مقصوده عليه السلام أتحب أن أتحدث معك بالمناجاة أو المناداة.

ثانياً: إنَّه عليه السلام يقول: أتحب أن أناجيك كما يُناجي القريب أم أناديك كما يُنادي البعيد؟ وبعبارة أخرى: إذا نظرت إليك فأنت أقرب من كل قريب، وإذا نظرت إلى نفسي أجدني في غاية البُعد عنك، فلا أدري في دعائي لك أنظر إلى حالي أو إلى حالك؟

ثالثاً: إنَّ السؤال من باب تعليم الآخرين أو أنَّه مطلوب من قبلهم كسؤاله عن بعضهم طلب الرؤية[1].

رابعاً: من المحتمل أنَّ النبي موسى عليه السلام يعرض عجزه عن كيفية دعائه لله تعالى فيقول: إلهي أنت منزّه من الاتصاف بالقرب والبُعد حتى أدعوك دعاء من يكون دانياً أو قاصياً، فأنا متردد في أمري ولا أجد دعاءً يليق بعظمتك وجلالك، فأتى الجواب من مصدر الجلال والعزَّة: بأنَّني حاضر حضور القيُّومية في جميع النشآت[2].

أنا جليس من جالسني:

ومعناه أنِّي كالجليس في العلم بنجواهم فلا حاجة إلى رفع الصوت، فكما أنَّ الجليس يسمع مناجاة جليسه فإنَّ الله تعالى جليس لمن ذكره وهو يسمع نجواه.

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٢٢.

(٢) الأربعون حديثاً: للسيد الخميني، ص٢٧١.

قال العارف السيِّد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: «المراد من قوله: «أنا جليس من ذكرني» نهاية القرب إليه جلَّت عظمته والدنو المعنوي منه، كما يقرب إلينا جليسنا ويدنو منّا، لا أن يكون المراد منه القرب المكاني»(١).

الذكر الخفي:

ويُستفاد من هذا الجواب إنَّ الذكر الخفي هو من أشرف الأعمال وأفضلها كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وإنَّ الذِّكر هو سبب لمجالسة الله تعالى فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «الذِّكر مجالسة المحبوب»(٢).

إنَّ مجالسة الله تعالى تثمر الأنس واللذَّة والمشاهدة، إذ كيف تكون مجالسة من دون مشاهدة؟ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فإنَّه تعالى جليس من ذكره، والجليس مشهود الذاكر، ومتى لم يشاهد الذاكر الحق الذي هو جليسه فليس بذاكر»(٣).

ولذا فإنَّ أهل الذِّكر لا يسأمون من الذكر ولا يستثقلون، فكيف يستثقل العبد مجالسة المولى؟

في بعض الأحاديث القدسية: «أيُّما عبدٍ اطّلعتُ على قلبه، فوجدت الغالب عليه التمسُّك بذكري، تولَّيتُ سياسته، وكنتُ جليسه ومحادثهُ وأنيسهُ»(٤).

---

(١) مواهب الرحمن: ج٢، ص١٥٦.
(٢) غرر الحكم.
(٣) نور على نور: ص٦٩.

ومن المفيد أن يختار المؤمن مكاناً خاصاً للمجالسة وخصوصاً «المسجد»، فهو بيت الله تعالى، والداخل إليه ضيف الله تعالى، وهو تعالى يكرم ضيفه.

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنَّة، فإنَّ الجنَّة فيها رضى نفسي والجامع فيها رضى ربِّي»[٥].

في الخبر: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتحب أن أسكن معك بيتك؟ فخرَّ لله ساجداً ثم قال: فكيف يا رب تسكن معي في بيتي؟ فقال: يا موسى أما علمت أنِّي جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني»[٦].

❋ ❋

(٤) كلمة الله: ص١٤٩.
(٥) وسائل الشيعة: ج٥، ص١٩٩.
(٦) لقاء الإيمان: ج٣، ص١٢٣.

الدُّموع والخشوع

أوحى الله إلى النبي عيسى عليه السلام:

«يا عيسى! هب لي من عينيك الدُّموع، ومن قلبك الخشوع، وقم على قبور الأموات فنادهم بالصوت الرفيع، لعلَّك تأخذ موعظتك منهم، وقل: إنِّي لاحقٌ في اللاحقين»[١].

❋ ❋ ❋

تأثير الحديث:

يعتبر هذا الحديث القدسي من الأحاديث التي تترك أثراً في النفس حيث تخشع القلوب وتدمع العيون.

ولذلك ينبغي أن نسلِّط الضوء عليه علنا نأخذ العبرة والموعظة.

الدُّموع:

إنَّ الله تعالى يطلب من النبي عيسى عليه السلام أن يهبه الدُّموع من عينيه، وهي دموع لاتجري إلا إذا اكتوى القلب بنار الحب والعشق، والخوف والرجاء، فلكلٍّ حال من أحوال القلب بكاء، فهناك بكاء

---

(١) كلمة الله: ص٣٤٠.

الفاقدين، وبكاء المحبين، وبكاء التائبين، وأعظم تلك الحالات بكاء المحبين ونموذج ذلك هو «شعيب».

عن رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام من حبِّ الله عزَّ وجلَّ حتى عمي، فردَّ الله عزَّ وجلَّ عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فردَّ الله عليه بصره، ثمَّ بكى حتى عمي، فردَّ الله عليه بصره، فلمَّا كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب، إلى متى يكون هذا أبداً منك؟! إن يكن هذا خوفاً من النَّار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنَّة فقد أبحتك؟ قال: إلٰهي وسيِّدي أنت تعلم أنِّي ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنَّتك، ولكن عقد حبُّك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلَّ جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران»[1].

وقد جاء في وصف الأولياء عليهم السلام أنَّهم من البكائين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وهكذا كان حال النبي عيسى عليه السلام وهو ما انعكس على حياته من زهد، وعبودية، وبركة...

ففي الحديث القدسي أنَّه قال الله تعالى لعيسى: «ابك على

---

(١) المحبة: ص٢١١.

نفسك بكاء من قد ودَّع الأهل وقلى الدُّنيا، وتركها لأهلها، وصارت رغبته فيما عند إلهه»[١].

فخلاصة معنى الكلمة القدسية: «**يا عيسى هب لي**» أي لتكون الدُّموع خالصة لي ولا يكون لغيري فيها نصيب، فلا أقبل دموع المرائين والمعجبين. «**من عينيك الدموع**» فليكثر دمعك في أحوالك، فهبني دموع البكاء في جوف الليل، وهبني دموع الاشتياق حال الصلاة، وهبني دموع التأثر للمظلومين والأيتام والمساكين...

ثم إنَّ الدُّموع لا تخرج من العين إلا إذا خشع القلب، ومن ثم طلب الله تعالى من عيسى عليه السلام الدموع والخشوع.

الخشوع:

الخشوع هو الخضوع والتذلل والمسكنة[٢] وهو يطلق على جوارح الإنسان ومنها: قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣].

ولا يحصل خشوع الجوارح إلاَّ بعد خشوع القلب إذ «القلوب أئمَّة العقول، والعقول أئمَّة الأفكار، والأفكار أئمَّة الحواس،

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «البكاء».

(٢) بهذا المعنى فقد نُسب الخشوع إلى مخلوقات الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩] وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

والحواس أئمَّة الأعضاء» كما عن الإمام علي عليه السلام وعنه عليه السلام: «من خشع قلبه خشعت جوارحه»(١).

ولهذا لمَّا رأى النبي صلى الله عليه وآله رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة قال صلى الله عليه وآله: «إنَّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»(٢).

وجاء في أذكار الصلوات: «خشع لك سمعي، وبصري، وشعري، وبشري، ولحمي، ودمي، ومخي، وعصبي، وعظامي، وما أقلَّت قدماي غير مستنكف ولا مستكبر».

إنَّ الخشوع هو صفة الأولياء والقديسّين كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء: ١٠٩].

وفي الخبر: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «وإنَّما يتزيَّن لي أوليائي بالذلِّ والخشوع والخوف الَّذي يبيتُ في قلوبهم فيظهر على أجسادهم، فهو شعارهم ودثارهم الَّذي يستشعرون، ونجاتهم الَّتي بها يفوزون، ودرجاتهم الَّتي لها يأملون، ومجدهم الَّذي به يفخرون، وسيماهم الَّتي بها يعرفون»(٣).

وفي الحديث القدسي: «يابن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدُّموع، ثمَّ ادعني في ظلم الليل، فإنَّك تجدني قريباً مجيباً»(٤).

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الخشوع».
(٢) الصلاة: ص٨٤.
(٣) كلمة الله: ص١٥٢.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٦٣.

والخشوع مطلوب في كلِّ الحالات وخصوصاً في العبادات حيث يتصل العبد بالله تعالى، ومن أهم تلك الحالات:

١ ـ **حال الصلاة**، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١-٣].

٢ ـ **حال تلاوة القرآن الكريم أو الاستماع إليه**، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وإذا كانت الجبال تخشع عند نزول القرآن الكريم، فكيف بحال الإنسان؟ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ولتحصيل الخشوع أسباب عديدة.

منها: التوجه الذهني والقلبي إلى الله تعالى، والتفكُّر بأحوال الآخرة، ومن ذلك الحضور عند القبور، ولذا قال الله تعالى لعيسى عليه السلام: «وقم على القبور فنادهم بالصوت الرفيع...» فالوقوف على القبور والاتعاظ بأحوالهم، يوجب الخشوع والخضوع والبكاء.

قصة:

قيل: «إنَّ مجموعة من المبشرين وردوا مدينة أصفهان فقالوا لأهلها، ألا ترون أنَّ كنائسنا عامرة ولطيفة ومزوقة، ومساجدكم خاوية قديمة متهدمة فأسرع الناس إلى علمائهم وفضلائهم يلتمسون منهم الجواب على هذه الشُّبهة التي انقدحت في أذانهم.

فمنهم من سدّ بابه، ومنهم من قال: لا أعرف، وآخر يقول: ليس من اختصاصي، إلا واحد كان في بيته فسمع لغطاً بين الناس

فخرج إليهم وسألهم، فقيل له بالأمر، فقال: عندي الحل، وأمر بالاجتماع في مسجد المدينة، وإنَّه سيصلي بهم جماعة، وهناك يرون الجواب.

فاجتمع الناس وصعد بهم خطيباً، وقال للمسيحيين: إنَّ كنائسكم عامرة لأنَّها خالية من ذكر الله سبحانه ونحن نذكر الله سبحانه في مساجدنا كثيراً فتخشع وتتصدع من خشية الله تعالى فتكون بهذا الحال من الانهدام فلما صار وقت الآذان وقد اجتمع خلق كثير كلَّما قال المؤذن (الله أكبر) انفلق السقف وانفطر فطراً كبيراً فانهزم الناس لئلا يسقط عليهم، وما أمسى المساء إلا والمبشّرون خارج المدينة خائفون خائبون، ولما سُأل هذا الرجل، من أين علمت أنَّ السقف سيحصل به ما حصل عند ذكر الله سبحانه، قال: لأنَّني عرفت إنَّ هذا ممَّا يتوقف عليه أساس العقيدة الدينية، والله سبحانه يعزّ دينه وهو مطّلع على ذلك، فلا بد أن يرعانا بكراماته ومعجزاته»[1].

❁ ❁

(١) ذكر ذلك في أحد لقاءات آية الله العظمى السيِّد محمد الصدر رحمه الله مع مجموعة من طلبة العلوم الدينية.

يا خير ذاكر ومذكور

عن الإمام الصادق عليه السلام: قال الله تعالى:

«يا ابن آدم اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك»(١).



شتّان بين العبد والرّبّ:

عندما نقرأ في النصوص الدينية نجد أنَّ بعض الصفات تُطلق على الله تعالى وعلى الإنسان، كالحب، والذِّكر، والشكر، و...

وعند التأمُّل في المعنى نجد أنَّ هناك فرق بين المعاني التي تتجلَّى في الله تعالى، والمعاني التي تتحقق من الإنسان، فمحبة الله تعالى للعبد أكثر من محبة العبد للرب، كما يُستفاد ذلك من قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، حيث قدَّم حبّه تعالى على حبهم.

ومثله نصر الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: ٧].

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٢٧.

ومثله الوفاء بالعهد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: ٤٠].

ومثل تحية الله تعالى وسلامه على عباده، والقرب إليهم... ومن ذلك «الذكر».

الذاكر والمذكور:

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] ففي الآية المباركة يبيّن الله تعالى أنَّ العبد يذكره وأنَّه تعالى يجازيه بذكره، ولكن شتَّان بين ذكر العبد وذكر الرَّب، فإنَّ ذكر الله تعالى أكبر.

فالله تعالى يذكر عبده أولاً بمعنى أنَّه يمنح العبد التوفيق لذكره، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال في الذكر: «... ولكنَّه أول من المذكور وثان من الذاكر»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «اجعل ذكر الله من أجل ذكره لك، فإنَّه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجلّ وأشهى وأتمّ من ذكرك له وأسبق... فمن أراد أن يذكر الله تعالى فليعلم أنَّه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره لا يقدر العبد على ذكره»[٢].

ثم إنَّ ذكر العبد محدود ومنقطع، أمَّا ذكر الله تعالى لعبده فهو أكبر، فالله تعالى ذكر عبده بالوجود بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، ويذكره في حياته، وبعد مماته...

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الذكر».

(٢) المصدر نفسه.

كما أنَّ ذكر العبد نوع من السبب وجزاؤه أكبر، فمن ذكر الله تعالى في ملأ ـ أي جماعة من الناس ـ ذكره الله تعالى في ملأ من الملائكة في عالم الملكوت.

فعن رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد يلتمس مرضاة الله، فلا يزال كذلك فيقول الله: ياجبريل إنَّ عبدي فلاناً يلتمس أن يرضيني فرضائي عليه، فيقول جبريل عليه السلام: رحمة الله على فلان، وتقول حملة العرش، ويقول الذين يلونهم، حتى يقوله أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض.

فقال ﷺ: وهي الآية التي أنزل الله عليكم في كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]»[١].

من هنا ينبغي للعبد أن يذكر الله تعالى في كلِّ الحالات لينال الجزاء المناسب.

فمن يذكر الله تعالى بنعمه يذكره الله تعالى بالزيادة قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن يذكر الله تعالى بالصلوات المفروضة يذكره الله تعالى برحمته، ومن يذكر الله تعالى بالصدقات يذكره الله تعالى بزيادتها.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ في تفسير الآية: «اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي»[٢].

وعنه ﷺ: «أوحى الله إلى نبي من أنبيائه: ابن آدم اذكرني عند غضبك أذكرك عند غضبي، فلا أمحقك فيمن أمحق»[٣].

---

(١) المحبة: ص٦٠.

(٢) الفرقان: ج٢، ص٢١٩.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «الذكر».

وعن الإمام الباقر عليه السلام في التوراة: «يا موسى... اذكرني في خلواتك وعند سرور لذاتك أذكرك عند غفلاتك»[١].

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إيَّاه، ألا ترى أنَّه يقول: «اذكروني أذكركم»[٢].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله: من أعطي الذكر ذكره الله، لأنَّ الله يقول: اذكروني أذكركم. ومن أعطي السؤال أعطي الإجابة، لأنَّ الله يقول: أدعوني أستجب لكم، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة: لأنَّ الله يقول: لئن شكرتم لأزيدنكم، ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة، لأنَّ الله تعالى يقول: إستغفروا ربكم إنَّه كان غفاراً»[٣].

قيل: «﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتذلل ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتفضل.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالانكسار ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمبار.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ باللِّسان ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالجنان.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بقلوبكم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق مطلوبكم.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بتصفية السر ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتوفية البر.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] بالجهد والعناء ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالجود والعطاء.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالرهبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق الرغبة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالشوق والمحبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالوصل والقربة.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) نور الثقلين: ج١، ص١٤٠.

(٣) مواهب الرحمن.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالحمد والثناء ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمنن والعطاء.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتوبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بغُفران الحوْبة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالسؤال ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالنوال.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بلا غفلة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بلا مهلة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالندم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالكرم.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالمعذرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالإرادة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالإفادة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتنصُّل ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتفضُّل.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالإخلاص ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالخلاص.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالقلوب ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بكشف الكروب.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ باللِّسان ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالأمان.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالافتقار ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالاقتدار.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالاعتذار ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالرحمة والاغتفار.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالإسلام ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالإكرام.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ ذكراً فانياً ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ ذكراً باقياً.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتذلل ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بمحو الزلل.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالاعتراف ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بمحو الاقتراف.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بصفاء السر ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بخالص البر.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالصدق ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالرفق.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالصفو ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالعفو.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتعظيم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتكريم.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالتكثير ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالنجاة من السعير.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بترك الجفاء ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بحفظ الوفاء.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بترك الأخطاء ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بأنواع العطاء.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالجهر في الخدمة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بإتمام النعمة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ من حيث أنتم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ من حيث أنا.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالحب ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بنيل القرب.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالإجلال ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالإفضال.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالصبر عند البلاء ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بكشف البأساء.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالذل ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالعز.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بتغيير المنكر ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ يوم العرض الأكبر.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بطول السجود ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالعطاء والجود.

نسيان الله تعالى:

في مقابل الذكر «النسيان» فمن نسي الله تعالى فإنَّه ينساه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

❋ ❋

قضاء الحوائج بالذكر

عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال:

«إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى من سألني»(١).



الشغل المطلوب:

الإنسان بطبيعته لا يحب الفراغ، بل يطلب الشغل... وهذا الشغل قد يكون بأمور الدُّنيا، بأن يستغرق ذلك كل الوقت والعمر، وهذا هو حال أغلب الناس، ونتيجة هذا الشغل ضياع وحسرة في الآخرة.

وأما أهل الإيمان فيشتغلون بالأهم من ذلك، وهو بناء أنفسهم وإعمار الدار الآخرة.

فعن الإمام علي عليه السلام: «واشغلوا أنفسكم من أمر الآخرة بما لا بدَّ لكم منه»(٢).

---

(١) أصول الكافي: ج٢.

(٢) المحاضرات الأخلاقية: ص١١١.

وعن أبي ذر: «... يا مبتغى العلم لا يشغلك أهل ولا مال عن نفسك»[١].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أحوال الناس في شغلهم فقال: «القلب ثلاثة أنواع: قلب مشغول بالدُّنيا، وقلب مشغول بالعقبى، وقلب مشغول بالمولى، أمَّا القلب المشغول بالدُّنيا فله الشدة والبلاء، وأما القلب المشغول بالعقبى فله الدرجات العلى، وأما القلب المشغول بالمولى فله الدُّنيا والعُقبى والمولى»[٢].

فذكر رسول الله ﷺ إنَّ القلب المشغول بالمولى له الدُّنيا والآخرة... فله ما يريد من الله تعالى، سوءاً سأل ذلك أم لم يسأل، بل إنَّ اشتغاله بالله تعالى يمنع من سؤاله تعالى، كما كان أبي ذر، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «بكى أبو ذر من خشية الله حتى اشتكى بصره فقيل له: يا أبا ذر لو دعوت الله أن يشفي بصرك؟ فقال: إنِّي لمشغول وما هو أكبر همِّي، قالوا: وما يشغلك عنه؟ قال: العظيمتان بالجنة والنار»[٣].

ولأنَّ الله تعالى يرى عبده مشغولاً به فإنَّه يلبِّي حاجاته حتى وإن لم يذكرها، فمثلاً: رجل يرى عبده منهمكاً بتلبية حاجاته ليلاً ونهاراً فمن الطبيعي أن يعطيه ما يريد حتى ولو منعه حيائه من الطلب، فكيف بالله تعالى وهو يرى عبده قد شغل كل حياته من أجله؟ فإذا اشتغل العبد بذكر الله تعالى ولم يسأله حاجته فإنَّ الله تعالى يقضيها له.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد ليكون له الحاجة إلى الله عزَّ

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المحاضرات الأخلاقية: ص١١٠.
(٣) المصدر نفسه.

وجلَّ فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآل محمد حتى ينسى حاجته فيقضيها الله له من غير أن يسأله إيَّاها»[(١)].

وإلى هذا المعنى يشير الحديث القدسي: «من شغل بذكري...».

وهذا ما كان عليه الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ومنه ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه أنَّه قال: «مرضت مرضاً شديداً، فقال لي أبي عليه السلام: ما تشتهي؟ فقلت: أشتهي أن لا أكون ممَّن اقترح على الله ربِّي ما يدبّره لي، فقال لي: أحسنت ضاهيت إبراهيم الخليل حيث قال له جبرئيل: هل من حاجة؟ فقال: لا أقترح على ربِّي بل حسبي الله ونِعْم الوكيل»[(٢)].

الاشتغال بالذكر:

والسؤال المطروح: ما هو الذكر الذي يشتغل به العبد؟

الجواب: إنَّ الذِّكر ينطبق على عدة أمور منها:

١ ـ **القرآن الكريم**، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩]، فيكون المعنى من انشغل بتلاوة القرآن الكريم أعلاه الله تعالى ما يريد وإن لم يسأل بلسانه.

٢ ـ **الذِّكر اللفظي** كالتهليل والتسبيح.

٣ ـ **الصلاة** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) مرآة العقول: ج١٢، ص١٣٧.

(٢) منتهى الآمال: ج٢، ص١٧.

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

٤ ـ ذكر آل محمَّد عليهم السلام.

حديث نوراني:

في الحديث القدسي: «قال الله سبحانه: إذا علمت أنَّ الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي؛ فإذا كان عبدي كذلك، فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقّاً؛ أولئك الأبطال حقّاً؛ أولئك الَّذين إذا أردت أن أُهلك أهل الأرض عقوبةً، زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[1].

❋ ❋

(١) معرفة المعاد: ج٢، ص١٤٤.

الأمل واليأس

عن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام: «أنَّه قرأ في بعض الكتب: إنَّ الله تعالى يقول:

«وعزَّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي، لأقطعنَّ أمل كلِّ مؤمِّلٍ غيري باليأس، ولأكسونَّه ثوب المذلَّة بين الناس، ولأُنحينَّه من قربي، ولأُبعدنَّه من وصلي، أيؤمِّل غيري في الشدائد؟ والشدائد يدي، ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقةٌ وبابي مفتوحٌ لمن دعاني، فمن الَّذي أمَّلني لنوائبه فقطعته دونها؟ ومن ذا الَّذي رجاني لعظيمةٍ فقطعت رجاءه؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظةً فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي ممَّن لا يملُّ من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنَّه لا يملك كشفها أحدٌ غيري إلاَّ من بعد إذني؟ فما لي أراه لاهياً عنِّي؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثمَّ انتزعته منه فلم يسألني ردَّه وسأل غيري. أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثمَّ أُسأل فلا أُجيبُ سائلي؟ أبخيلٌ أنا فيبخِّلُني عبدي؟ أو ليس العفو والرَّحمة بيدي؟ أو لستُ أنا محلَّ الآمال فمن يقطعها

دوني؟ أفلا يخشى المؤمِّلون أن يؤمِّلوا غيري؟ فلو أنَّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمَّلوا جميعاً ثمَّ أعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم مثل ما أمَّل الجميع ما انتقص من ملكي ذرَّةٌ، وكيف ينقص ملكٌ أنا قيِّمه؟ فيا بؤسى للقانطين من رحمتي، ويا بؤسى لمن عصاني ولم يُراقبني»[١].

❁ ❁ ❁

الأمل:

فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان على الأمل في الحياة، فلولا الأمل لبطل العمل، وتعطَّلت الحياة، فلم يزرع زارع، ولم يعمل عامل، ولم يتزوج أحد، ولم ينجب أحد، فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الأمل رحمة لأُمَّتي، ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً»[٢].

وفي الحديث: «بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير الأرض قال عليه السلام: «اللهم انزع منه الأمل» فوضع الشيخ المسحاة واضطجع، فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام: «اللهم اردد إليه الأمل» فقام فجعل يعمل»[٣].

وبالأمل يسعى الإنسان نحو النجاح في الحياة، ونحو تغيير حياته

---

(١) كلمة الله: ص٨٥.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الأمل».

(٣) المصدر نفسه.

إلى الأفضل... وبالأمل يصلي طالباً رحمة الله تعالى، وبالأمل يتناول الدواء طلباً للشفاء،..

ولكن مع وجود الأمل، فقد يتعرض الإنسان للمحن العظيمة والبلايا الكبيرة، فقد يُصاب بداء يعجز الطب عن علاجه، وقد يُبتلى بديون كبيرة يعجز عن سدها، وقد يتعرض لأخطار تُسدّ فيها أبواب الأمل...

وعند ذلك فإنَّه أمام عدة خيارات:

الأول: أن يُصاب بالإحباط واليأس وهذا خطأ، لأنَّ اليأس لا يزيده إلا تعباً ورهقاً، وهذا اليأس قد يؤدِّي إلى اليأس من رحمة الله تعالى وسوء الظن والقنوط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الثاني: أن يلجأ لغير الله تعالى، وهو خطأ أيضاً، فإنَّ أي إنسان مهما علا شأنه ضعيف وفقير وليس بيده قضاء الحوائج، ففي دعاء الإمام السجَّاد عليه السلام: «ومن توجَّه بحاجته إلى أحد من خلقك أوجعله سبب نُجحها دونك فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الإحسان».

شرح الحديث:

وفي الحديث القدسي: «**وعزَّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعنَّ أمل كل مؤمِّل غيري باليأس**».

ففي هذه الفقرة يقسم الله تعالى بأنَّه سيعاقب من يجعل أمله في غيره بأن:

١ ـ يخيّب أمله وييأسه من حصول مأموله.

٢ ـ يبتليه بالذل بين الناس، حيث يضع أمله فيهم بلا نتيجة، كما عن الإمام علي عليه السلام: «من أمل إنساناً فقد هابه»[١].

٣ ـ يبعده عن قربه ورحمته وإمداده وإعانته وفضله.

ثم قال تعالى: **«أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي»** والمعنى أنَّ الله تعالى هو الذي أوجد الشدائد ليختبر العباد فيعودوا إليه، فمن الحري بهم أن يعودوا إليه لرفعها لا إلى غيره، فإنَّ بيده تعالى رفعها، وذكر اليد من باب المجاز أي أنَّ الشدائد تحت قدرته وبيده رفعها.

«ويقرع بالفكر باب غيري» وهو تشبيه الفكر باليد، والمقصود كيف يصرف العبد فكره عند الحاجة إلى غير الله تعالى، والحال إنَّ بيده تعالى فتح أبواب الفرج.

ولتقريب الفكرة نجد أنَّ الإنسان إذا وقع في بلاء المرض فإنَّ فكره يتوجه أولاً إلى الطبيب ولا يتوجه إلى ربه إلا إذا عجز الطب عن العلاج، والحال أنَّ المؤمن يؤمل ربّه أولاً ثم يطلب الواسطة في الشفاء، فيكون طلب الدواء بأمر من الله تعالى، فهو الأول والآخر في الأمل.

ثم قال تعالى: **«فمن الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها، ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجائه منِّي؟»**.

وهذا استفهام استنكاري، ومعناه متى خيّبت آمال عبادي الذين أملوني، وحاشا لله تعالى أن يفعل ذلك فقد وعد بإجابة الدُّعاء وهو أصدق القائلين، ولكن لا بدَّ من الالتفات إلى أنَّه ليس كل من ادّعى

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الأمل».

أنَّه وضع أمله بالله تعالى أنَّه صادق، فإذا كان صادقاً في أمله فإنَّ الله تعالى لا يخيّبه.

ثم قال تعالى: «**جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي**».

أي إنَّ آمال العباد محفوظة عند الله تعالى، وهذا الحفظ يستدعي ردها إليهم عند الطلب كأنَّه وديعة، وإن لم تحصل في الدُّنيا فإنَّه ادّخر لهم ما هو أعظم من ذلك وهو الثواب الجزيل في الآخرة، إلا أنَّهم لم يرضوا لهذا الحفظ فطلبوا من غيري.

ثم قال تعالى: «**وملأت سمواتي من لا يملُّ تسبيحي وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي**».

أي إنَّ الله تعالى ملأ السموات بالملائكة الذين لا يسأمون ولا يفترون عن تسبيحه، وأمرهم أن لا يغلقوا الأبواب في وجه الداعين، وكأنَّ للسموات أبواباً تُفتح عند الدُّعاء للإجابة، ومع ذلك فإنَّ بعض الناس لا يثقون بقوله تعالى، ويطرقون أبواب غيره.

ثم قال تعالى: «**ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي إنَّه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني**».

أي ألم يعلم أنَّ من نزلت به نائبة في اللَّيل والنهار أنَّه لا يكشفها إلا الله تعالى.

ثم قال تعالى: «**فما لي أراه لاهياً عنِّي**».

أي بعد كل الآيات والنصوص والشواهد والكلمات، فلماذا ما يزال العبد لاهياً عن ربّه متوجهاً إلى غيره.

«**أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني ردّه**

وسأل غيري أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلي».

أي إنَّ الله تعالى بفضله وجوده أعطى العبد قبل أن يسأله ثم انتزع ذلك منه ـ كالمرض بعد الصحة والفقر بعد الغنى ـ ومع ذلك لم يسأله الردّ إليه، فهو لم يسأل الله تعالى أولاً وآخراً بل توجه بالسؤال إلى غير الله تعالى وكأنَّ غير الله هو الذي يعطي.

فالمؤمن الواعي يسأل الله تعالى دون غيره، وذلك لأنَّه يدرك أنَّ الذي يعطي بلا سؤال سيجيب بعد السؤال كما هو معنى الفقرة الثانية.

ثم قال تعالى: «**أبخيل أنا فيبخّلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي؟ أوليس أنا محل الآمال؟ فمن قطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟**».

أي إنَّ الجود والكرم والرحمة ومحل الآمال بيد الله تعالى، فلماذا الرجوع إلى غيره.

«**فلو إنَّ أهل سماوات وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرَّة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه؟**».

أي إنَّ ملك الله تعالى لا متناهي فلا ينقص منه شيء، وهو تعالى قيّمه أي قائم بسياسة أموره.

«**فيا بؤساً للقانطين من رحمتي**» والبؤس هو الشدة والفقر والحزن أي إنَّ القانطين من رحمة الله تعالى والذين يأسوا من رحمة الله تعالى مصيرهم البؤس والشدة.

«**ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني**».

اللجوء إلى الله تعالى:

الثالث: أن يلجأ إلى الله تعالى، فهو أمل الأولين، وملاذ الخائفين، ومنجى الهالكين، وغياث المضطرين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

واللجوء إلى الله تعالى حالة فطرية في كل إنسان، فمهما كان العبد بعيداً عن ربّه إلا أنَّه في حالة الخوف والخطر الشديد لا يجد إلا الله تعالى مغيثاً ومعيناً، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ كل مترئس في هذه الدُّنيا ومتعظم فيها وإن عظم غناه وطغيانه وكثرت حوائج من دونه إليه فإنَّهم سيحتاجون حوائج لا يقدر عليها هذا المتعاظم، وكذلك هذا المتعاظم يحتاج حوائج لا يقدر عليها فينقطع إلى الله عند ضرورته وفاقته»[1].

وفي الدُّعاء: «يا مفزعي عند كربتي ويا غوثي عند شدتي، إليك فزعت وبك استغثت، وبك لذت، لا ألوذ بسواك ولا أطلب الفرج إلا منك».

قيل: إنَّ ملكاً تعرض لمرض عضال، وبعد أن راجع عدَّة أطبَّاء وصفوا له علاجاً غريباً، وهو أن يأكل قلب شاب صغير... فأمر الملك حاشيته بالبحث عن شاب وشراء قلبه، فوجدت الحاشية عائلة فقيرة تعيش في ذلك البلد فساوموها على شراء ولدها لذبحه وتقديم

---

(١) رياض السالكين: ج٣، ص١٣.

قلبه للملك، فقبلت العائلة هذا العرض مقابل مبلغ من المال، فلما أحضروا الشاب لذبحه، حوَّل وجهه نحو السَّماء وضحك، فتنبه الملك لتلك الحالة فسأله عن سبب ضحكه فأجاب الشاب:

إنِّي كنت أفكر في أنَّه إذا آذاني أحد أذهب إلى والدتي فتدافع عنِّي، وإذا لم تقدر أذهب إلى والدي، وإذا لم يتمكنا من الدفاع عنِّي كنت سأذهب إلى الملك للدفاع عنِّي، ولكنِّي أضحك اليوم على نفسي لأنِّي أجد والديَّ قد باعاني إلى الملك، ورضيا أن يُراق دمي بما نالاه من حطام الدُّنيا، والملك يريد ذبحي ليبرىء نفسه من علتها، إذن لم يبقَ لي هنالك ملجأ إلاَّ الله الَّذي لا ملجأ سواه وأنشد:

إلى اللَّه أشكو منك ما قد ينوبني   وأنت رجائي في الخطوب وموئلي

فرقَّ له قلب الملك واغرورقت عيناه بالدُّموع وقال: إنَّ الأولى بي أنَّ أهلك بعلَّتي على أن أريق دم مثل هذا الغلام البريء، وضمّه إليه وقبَّله بين عينيه ونفحه بهدية نفيسة وأطلق سراحه. فقيل إنَّه لم يمض أسبوع على ذلك الملك حتَّى منَّ الله عليه بالشفاء.

الأمل بالله تعالى:

عندما نقرأ معنى «الأمل» في اللغة نجد أنَّه «توقّع حدوث شيء حسن في المستقبل يُستبعد حصوله» وهذا ما يحدث عند الأمل بالله تعالى.

ولكن إيجاد حالة الأمل بالله تعالى بحاجة إلى توطيد الثقة به، واليقين بوعده، وحسن الظن به.

يُحكى أنَّ رجلاً أخذ للمشنقة، فقيل له: إنَّ لك حاجة مقضية قبل موتك فاطلب ما تريد، فقال: أُريد أن تنقلوني إلى المشنقة الثانية وكان بينهما مسافة، وبينما هم في الطَّريق وإذا بالخبر يأتي بأنَّ الحاكم

قد مات وأُلغي حكم الإعدام، فسُئل الرجل عن سبب طلبه فقال: لأنّي أعلم أنَّ لله تعالى في كلِّ لحظة ثلاثمائة وستين رحمة، فقلت في نفسي: لعلَّ رحمة من رحماته تشملني بين هذه المشنقة وتلك.

فالله تعالى هو أمل العصاة البعيدين عن الرحمة الإلٰهية، حيث فتح لهم باب التوبة والمغفرة والعفو...

وهو تعالى أمل المستضعفين والمقهورين، ولذا نجد الآيات الكثيرة تتحدَّث عن الوعد بالنصر، والغلبة، والبشارة.

كما نجد أنَّ رسول الله ﷺ كان يزرع الأمل في قلوب المسلمين في الوقت الذي كانوا فيه قلَّة، محاصرة، مستضعفة.

فالنبي ﷺ في غزوة الخندق.. والمسلمون محاصرون من قبل ١٠٠٠٠ مقاتل مشرك أتوا لقتاله، وخلال حفر الخندق والمسلمون تعبون خائفون محاصرون، تظهر صخرة صعبة، بمن يستنجدون؟ بالنبي ﷺ (وهو من أولي العزم).. فيأتي.. ويضرب الصخرة.. فتلمع شرارة فيقول: «الله أكبر.. فُتحت الروم!» (في عزّ الأزمة يبعث النبي الأمل)..

والصحابة ينظرون إلى بعضهم البعض: فتحت الروم؟!.. ونحن لا نستطيع قضاء حاجتنا من شدة الخوف؟! كيف ذلك؟..

ثم يضرب الصخرة مرة ثانية.. فتبرق شرارة فيقول: «الله أكبر.. فُتحت فارس!..» ثم يضرب الثالثة فتتكسَّر الصخرة...

وها هي الآيات القرآنية تتحدَّث عن أمل المستضعفين الذي سيخرج في آخر الزمان، وهو الإمام المهدي عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى

ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النّور: ٥٥].

وهو تعالى أمل لمن ضاقت أحوالهم، والتاريخ مليء بالشواهد منها:

عن كافور الخادم قال: كان في الموضع المجاور للإمام الصادق عليه السلام من أهل الصنائع صنوف من النَّاس، وكان الموضع كالقرية وأنَّ يونس النقَّاش كان يغشى سيِّدنا الإمام عليه السلام ويخدمه.

فجاءه يوماً يرعد فقال: يا سيِّدي أوصيك بأهلي خيراً، قال عليه السلام: وما الخبر؟ قال: عزمت على الرحيل قال عليه السلام: ولِمَ يا يونس؟ وهو عليه السلام متبسِّم قال: بعث إليَّ موسى بن بغا بفصّ ليس له قيمة، أقبلت أن أنقشه فكسرته باثنين، وموعده غداً، وهو موسى بن بغا إمَّا ألف سوط أو القتل، قال عليه السلام: امضِ إلى منزلك إلى غد فما يكون إلاَّ خيراً.

فلمَّا كان من الغد وافى بكرة يرعد فقال: قد جاء الرَّسول يلتمس الفصّ قال عليه السلام: امضِ إليه فما ترى إلاَّ خيراً قال: وما أقول له يا سيِّدي؟ فتبسَّم عليه السلام وقال: امضِ إليه واسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلاَّ خيراً.

قال: فمضى وعاد يضحك فقال: قال لي يا سيِّدي: الجواري اختصمن، فيمكنك أن تجعله فصّين، حتَّى نغنيك؟ فقال سيِّدنا الإمام عليه السلام: اللَّهمَّ لك الحمد إذ جعلتنا ممَّن يحمدك حقّاً فأيش[1]

---

(١) لغة عامية وكأنَّه مخفّف: «أي شيء».

قلت له؟ قال: قلت له: أمهلني حتَّى أتأمَّل أمره كيف أعمله؟ فقال: أصبت[١].

وممَّا يُنسب للإمام علي عليه السلام:

وكم للَّه من لطف خفي ... يدقّ خفاه عن فهم الذكي
وكم يُسرٍ أتى من بعد عُسرٍ ... وفرج كُربة القلب الشجي
وكم أمرٍ تُساء به صباحاً ... وتأتيك المسرَّة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحد الفرد العلي

قيل: إنَّ قراءة هذه الأبيات يؤثر في رفع حالات الضيق والعُسر[٢].

وهو تعالى أمل لطالبي الحاجات، فمثلاً إبراهيم عليه السلام يُرزق بولد من زوجة عجوز عيم... وزكريا يرزق بولد بعد أن بلغ الكبر عتياً.

وقد أعطانا النبي يعقوب عليه السلام درساً عظيماً في الأمل بالله تعالى حيث أنَّه ومع طول فراقه ليوسف عليه السلام إلاَّ أنَّه كان يأمل من الله أن يرجعه إليه، وقال لأولاده ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وممَّا يُنسب للإمام الصَّادق عليه السلام:

فلا تجزع وإن أُعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الدَّهر الطويل
فإنَّ العسر يتبعه يسار ... وقول اللَّه أصدق كل قيل
فلا تيأس فإنَّ اليأس كفر ... لعلَّ اللَّه يغني عن قليل
فلا تظنَّنْ بربِّكَ ظنَّ سوء ... فإنَّ اللَّه أوفى بالجميل

---

(١) كيف تواجه الابتلاء: ص٨٣.

(٢) المصدر نفسه.

فلو إنَّ العقول تسوق رزقاً   لكان المال عند ذوي العقول
توقع صنع ربِّك سوف يأتي   بما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس إذا ما ناب خطب   فكم في الغيب من عجب عجيب[1]

❁ ❁

---

(١) الذُّنوب الكبيرة: ج١، ص١٠٧.

الرضا

عن رسول الله ﷺ قال الله تعالى:

«أنا الله لا إله إلاَّ أنا، من لم يرض بقضائي، ولم يؤمن بقدري، فليلتمس إلهاً غيري»[١].

❁ ❁ ❁

أهمية استشعار الرضا عن الله تعالى:

تحدَّثنا في كتاب «في رحاب الله» عن كيفية تحصيل رضى الله تعالى والابتعاد عن غضبه، وفي هذا الكتاب نتحدَّث عن رضا العبد عن الله تعالى، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ [المجَادلة: ٢٢] أي كما أنَّ الله تعالى يرضى عن عباده، فإنَّ عباده يرضون عنه.

ولكن قبل الدخول في صلب الموضوع لا بدَّ من بيان حال العبد في هذا المعنى.

فعند التدبُّر في رضى العبد عن الله تعالى نجد عظيم فضل الله

---

(١) كلمة الله: ص٤٨.

تعالى على الإنسان حيث يجعله لائقاً لينال هذا المعنى، إذ ما شأن العبد وما رضاه في جنب مولاه؟ ومتى يحق للعبد أن يرضى عن سيِّده؟ ومن هو الإنسان حتى يقول: يا رب رضيت عنك؟ نعم، لولا إذن الله تعالى لنا بذلك لما جاز لنا التفوه بهذا الكلام.

وقد تكرَّر في الروايات الشريفة التعبير عن إظهار الرِّضا في عدَّة أحوال، فعن الإمام السجَّاد عليه السلام أنَّه كان يقول في سجوده: «إن كنتُ بئس العبد فأنت نِعْم الرَّب» وورد في الدُّعاء: «إلهي أنت نعم الرب... نِعْم المولى... نِعْم الخالق... نِعْم الرازق...».

بل ورد في النصوص الدينية أنَّ الله تعالى يتحبَّب إلى عبده حتى يرضى عنه، قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وفي أخبار موسى عليه السلام، أنَّهم قالوا: سل لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه (يرضىٰ به عنَّا) فأوحى الله تعالى إليه: «قل لهم: يرضون عنِّي، حتى أرضىٰ عنهم»[(١)].

وعن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «إذا صار أهل الجنَّة في الجنَّة، ودخل وليّ الله إلى جناته ومساكنه، واتّكىٰ كلُّ مؤمن على أريكته، حفَّته خدَّامه، وتهدَّلت عليه الأثمار، وتفجَّرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابيّ، ووضعت له النمارق، وأتته الخدَّام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك.

قال: ويخرج عليه الحور العين من الجنان، فيمكثون بذلك ما شاء الله، ثُمَّ إنَّ الجبَّار يشرف عليهم، فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكَّان جنَّتي في جواري ألا هل أُنبئكم بخير ممَّا أنتم فيه؟

---

(١) مسكن الفؤاد: ص٨٠.

فيقولون: ربّنا وأيّ شيء خير ممَّا نحن فيه: فيما اشتهت أنفسنا، ولذَّت أعيننا من النعم في جوارك الكريم؟! قال: فيعود عليهم القول فيقولون: ربّنا نعم، فإنَّنا بخير ممَّا نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالى: رضائي عنكم ومحبَّتي لكم خير وأعظم ممَّا أنتم فيه، قال: فيقولون: نعم يا ربّنا، رضاك عنَّا ومحبَّتك لنا خير وأطيب لأنفسنا. ثُمَّ قرأ علي بن الحسين عليه السلام هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢][١].

معنى الرِّضا:

الرضا هو «القبول بما أراده الله تعالى» وهو أعلى درجة من الصبر، لأنَّ الصبر قد يكون القبول بالأمر على مضض، أما الرضا فهو قبول بلا مضض، وهذا القبول لا يعني عدم الإحساس بالألم، وإنَّما هو عدم الاعتراض والسخط، فقد يتألم الإنسان عند فقد الحبيب، وهذا لا ينافي مع مرتبة الرضى، فقد تألم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما مات ولده إبراهيم وقال: «إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربّنا إنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

مقام الرضا:

يعتبر مقام الرضا من المراتب العالية والدرجات الرفيعة فإنَّ الله تعالى جعله مقروناً برضاه، فقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) تفسير البرهان: ٢/ ١٤٥.

وجعله النبيّ ﷺ دليلاً على الإيمان، حين سأل طائفة من أصحابه، «ما أنتم؟» قالوا: مؤمنون، فقال: «ما علامة إيمانكم؟» قالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: «مؤمنون وربّ الكعبة»(١).

وقال ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه»(٢).

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أُمَّتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعَّمون كيف يشاؤون، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أُمَّة من أنتم؟ فيقولون: من أُمَّة محمَّد ﷺ، فيقولون: نشدناكم الله، حدِّثونا ما كانت أعمالكم في الدُّنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلّغنا الله تعالى هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنَّا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير ممَّا قسم لنا، فتقول الملائكة: حق لكم هذا»(٣).

وقال ﷺ: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب الله تعالى يوم فقركم والإفلاس»(٤).

---

(١) مسكن الفؤاد: ص٧٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

الوصول إلى مقام الرضا:

لكي يصل الإنسان إلى مرتبة الرضا لا بدَّ له من أمور:

١ ـ **العلم** بأنَّ الله تعالى لا يفعل له إلا ما هو خير له.

فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «في ما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى بن عمران، ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ من عبدي المؤمن، فإنِّي إنَّما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي وليرض بقضائي، أكتبه في الصدِّيقين عندي، إذا عمل برضاي، وأطاع أمري»[1].

٢ ـ **الحب**، فمن أحبّ الله تعالى رضى بما يفعل به.

ففي الحديث إنَّ الإمام الرضا عليه السلام سأل جابر الأنصاري كيف تجد حالك؟ فقال جابر: أنا في حال الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، والمرض أحبُّ إليَّ من الصحَّة، والموت أحبُّ إليَّ من الحياة، فقال عليه السلام: أمَّا نحن أهل البيت فما يرد علينا من الفقر والغنى والمرض والصحَّة والموت والحياة فهو أحبُّ إلينا»[2].

٣ ـ **الثقة بالله تعالى**، فعن الإمام علي عليه السلام: «أصل الرضا حسن الثقة بالله»[3].

٤ ـ **الدعاء بنيل مقام الرضا**، قال العلامة السيد تقي المسقطي حفظه الله: عندما كنت في حرم الإمام الرضا عليه السلام تيقَّنت بأنَّ الحوائج

---

(١) المصدر نفسه: ص٨٣.

(٢) كيف تواجه الابتلاء: ص١٥١.

(٣) كيف تواجه الابتلاء: ص١٥٢.

مُستجابة في ذلك المكان المقدَّس فاستحييت أن أطلب حوائج الدُّنيا فسألت ما هو أعلى من ذلك بكثير وهو مقام الرضا فقلت:

أُطالب ربِّي كمال الرضا بحقِّ علي بن موسى الرضا
بحقّ الإمام التقي النقي ومن اسمه في العالمين الرضا[1]

أقسام الرضا:

ينطبق معنى الرضا على نحوين:

الأول: الرضا بالله تعالى، بأن يرضاه ربّاً، وحاكماً، ورازقاً ومشرّعاً، وما إلى ذلك من الصفات، فعن رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد ﷺ نبياً»[2].

وفي بعض الأدعية: «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً...».

ومن ذلك الرضا بما يصدر من أحكام شرعية بلا اعتراض.

الثاني: الرضا عن الله تعالى، وهو الرضا بما يحدثه الله تعالى من أمور سواء كانت محبوبة للقلب أم لا، ومن ذلك:

أ ـ الرضا بتقسيم الأرزاق، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي دعاء الإمام السجَّاد عليه السلام: «ورضِّني من العيش بما قسمت لي».

وفي الخبر: قال الله عزَّ وجلَّ لموسى بن عمران عليه السلام: «يابن

---

(١) خمسة من العرفاء: ص١٩٧.

(٢) أسرار وأنوار: ص١٧٩.

عمران، لا تحسدنَّ الناس على ما أتيتهم من فضلي، ولا تمدنَّ عينيك إلى ذلك. ولا تتبعه نفسك، فإنَّ الحاسد ساخطٌ لنعمتي، صادٌّ لقسمي الَّذي قسَّمت بين عبادي، ومن يكُ كذلك فلستُ منه وليس منِّي»[١].

ب ـ الرضا بما يجري على الإنسان من قضاء وقدر، كالموت والمرض والفقر والبلاء.

فعن الإمام علي عليه السلام: «من لم يرضى بالقضاء دخل الكفر دينه»[٢].

وعن قتيبة الأعشي قال: أتيت أبا عبد الله عليه السلام أعود ابناً له، فوجدته على الباب فإذا هو مهتمٌ حزين، فقلت: جُعلت فداك كيف الصبي؟ فقال: «والله إنَّه لما به، ثمَّ دخل فمكث ساعة، ثمَّ خرج إلينا وقد اصفر وجهه وذهب التغير والحزن، قال: فطمعت أن يكون قد صلح الصبي، فقلت: كيف الصبي جُعلت فداك؟ فقال عليه السلام: وقد مضى لسبيله، فقلت: جُعلت فداك لقد كنت وهو حيٌّ مهتماً حزيناً وقد رأيت حالك الساعة وقد مات غير تلك الحال فكيف هذا؟ فقال عليه السلام: إنَّا أهل البيت إنَّما نجزع قبل المصيبة، فإذا وقع أمر الله رضينا بقضائه وسلَّمنا لأمره»[٣].

ج ـ الرضا بما يختاره الله تعالى، ففي مناجاة موسى عليه السلام: «يا رب أي خلقك أحبّ إليك؟ فقال الله تعالى: من إذا أخذت حبيبه سالمني، فقال: فأي خلق أنت عليه ساخط؟ فقال: من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي»[٤].

---

(١) كلمة الله: ص٢٤.

(٢) غرر الحكم.

(٣) أهل البيت في الكتاب والسُّنَّة: ص٢٩٢.

(٤) مسكن الفؤاد: ص٨١.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «من اتكل على حسن الاختيار من الله لم يتمنَّى أنَّه في غير الحال التي اختارها الله له»[(١)].

د ـ الرضا بثواب الله تعالى في الآخرة.

ثمرات الرضا:

إنَّ الرضا يجعل الإنسان في عيشة راضية، فلا يحزن، ولا يخاف، ولا يقلق، بل يملك قلباً مطمئناً قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله بحكمته وجلاله جعل الرُّوح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط»[(٢)].

وأما في يوم القيامة، فإنَّ النفس تعود إلى ربها راضية مرضية كما قال تعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٨-٣٠].

السخط مقابل الرضا:

يقابل الرضا حالة «السخط والاعتراض والإنكار والرفض»، وهي حالة ناتجة عن عدم التسليم لأوامر الله تعالى، وهي ظاهرة كثيرة في المجتمع خصوصاً المجتمعات البعيدة عن الله تعالى، وهي حالة تؤدِّي إلى الإحباط واليأس ورفض الواقع، حتى إنَّ البعض يلجأ لإحداث الشغب والفوضى تعبيراً عن سخطه عن الواقع.

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) مسكن الفؤاد: ص٨١.

إنَّ السخط يؤدّي إلى إنكار قضاء الله تعالى واتهامه في تدبيره وحكمته كما في الحديث القدسي: «ما أنصف الله من نفسه، من اتَّهم الله في قضائه، واستبطأه في رزقه»[١].

وعن رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «أنا الله لا إله إلاَّ أنا، من لم يرض بقضائي، ولم يؤمن بقدري، فليلتمس إلهاً غيري»[٢].

ويعبّر البعض عن سخطه بكثرة التذمر والشكوى من الأحوال والأوضاع والأمراض.

في الحديث: «أوحى الله تعالى إلى عُزير: «... وإذا نزلت إليك بليَّة فلا تشك إلى خلقي، كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساويك وفضائحك»[٣].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ليست الشكاية أن يقول الرجل: مرضت البارحة أو وعكت البارحة، ولكن الشكاية أن يقول: «بُليت بما لم يبل به أحد»[٤].

وما يُنسب للإمام زين العابدين عليه السلام:

وإذا بُليت بعسرة فاصبر لها ... صبر الكرام فإنَّ ذلك أحزم

لا تشكون إلى الخلائق إنَّما ... تشكو الرَّحيم إلى الَّذي لا يرحم

---

(١) كلمة الله: ص٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٨.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «المرض».

(٤) التمحيص: ص٤٣١.

التفويض

عن رسول الله ﷺ: قال الله جلَّ جلاله:

«يابن آدم أطعني فيما أمرتك ولا تعلّمني ما يصلحك»[١].



مقام التفويض:

يعتبر التفويض من أعلى مراتب السير إلى الله تعالى حتى ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أول العلم معرفة الجبَّار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه»[٢].

حقيقة التفويض:

التفويض في اللغة: من فوَّض الأمر إليه، أي صيَّره إليه، وقد فسَّره البعض بأنَّه التوكّل، ولكن التدبُّر في المعنى يفيد بأنَّ التفويض أعلى من ذلك، وذلك لأنَّ الإنسان في الحياة العملية قد يتخذ وكيلاً ولكنَّه يواصل الإشراف على عمله، أما في التفويض فإنَّه يترك الأمر

(١) سفينة البحار: مادة «فوض».

(٢) تأملات: ص٧٧.

كلياً إلى من فوَّض إليه بلا إشراف، كما أنَّ التوكيل هو إرجاع الأمور فيما يريد الموكّل، أما التفويض فهو إرجاع الأمور للمفوَّض إليه فيما يراه من مصلحة، فهو يتصرف كما يريد لا كما يريد المفوِّض، قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «من اتكل على حسن الاختيار من الله له لم يتمنَّى أنَّه في غير الحال التي اختارها الله له»[1].

من هنا ندرك أنَّ التفويض أعلى من التوكل، وأعلى من الصبر والرضا، ففرق بين أن يرضى بما يرضاه الله تعالى، وبين أن يتخلى عن رضاه لرضا الله تعالى.

الإيمان والتفويض:

إنَّ التفويض لا يتحقق في الإنسان إلا إذا كان على درجة عالية من الإيمان بالله تعالى والثقة بعلمه وقدرته وحكمته وتدبيره، ومن هنا كان التفويض من أركان التوحيد.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمان له أركان أربعة: التوكّل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله»[2].

قال العلامة الآصفي: «فيفوض الإنسان أمره إليه تعالى تفويضاً كاملاً، بثقة واطمئنان، كما يفوّض المريض أمره إلى الجرَّاح، بفتح صدره بالسكِّين، وكما يسلِّم الراكب في الطائرة أمره إلى الطيار في أعماق الجوّ، مطمئناً واثقاً، ولا تنطبق هذه الأمثلة على التفويض، فإنَّ التفويض أرقّ وأدقّ من ذلك، وإنَّما نستعين بها على فهم الموضوع.

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «التفويض».

(٢) تأملات في المعرفة والسلوك: ص٨٨.

إنَّ المريض إنَّما يسلِّم أمره إلى الجرَّاح، والمسافر في الوادي والبراري إنَّما يسلِّم أمره إلى الدليل، وركاب الطائرة إنَّما يسلِّمون أمورهم إلى الطيَّار لأداء مهمة معيَّنة يطلبونها، وهي إعادة السلامة إلى المريض والدلالة في الصحاري والبوادي، وسلامة الوصول لركاب الطائرة. وهذا أمر آخر غير التفويض... إنَّ هؤلاء يعتمدون الطبيب والدليل والطيار في مهمة معيَّنة، ثقة بهم في أداء هذه المهمَّة، ولو علم المريض إنَّه لن يعود إلى الحياة بعد أن يشقّ الجرَّاح صدره، ولو علم راكب الطائرة إنَّه لن يعود إلى الأرض، بعد ما يقلع به الطيَّار إلى السماء لما سلَّموا أزمَّة أمورهم إليهم.

وإنَّما التفويض أن يسلِّم الإنسان كل أمره إلى الله، ويدع الأمر إلى الله - بالكامل - فيما يحب وما لا يحب، وما يريد وما لا يريد، ويجرّد نفسه عن كل إرادة وحب ورغبة، ويفوِّض أمره كله إلى الله تعالى ليدبّر أموره كما يحب ويريد، بالسرَّاء أو الضرَّاء، وبالرخاء أو العسر، وبالغنى أو الفقر، وبالمرض أو السلامة، من دون اعتراض، ولا رفض، ولا عتاب. وقد قرأنا أنَّ رسول الله ﷺ، لم يكن يقول لشيء قد مضى: «لو كان غيره»؛ وهذا هو معنى التفويض.

في منزل التفويض يختفي (الأنا) تماماً عن ساحة النفس في التعامل مع الله تعالى، ويتجرَّد الإنسان، عن كل ذاته وأنانيته بإرادته، لتكون إرادته ورغباته في امتداد ما يريد الله تعالى.

والأنا حبٌّ، وبغض، وعزم، ورفض، ورغبة، وعزوف... فإذا أراد الإنسان أن يفوِّض أمره إلى الله تعالى... يجب أن يتجرَّد عنها جميعاً... وهو بمعنى التجرُّد عن (الأنا) و(الذَّات). وليس بوسع أحد أن يأخذ معه (الأنا) إلى منزل التفويض في سلوكه إلى الله.

إنَّ الإنسان قد يصطحب معه (الأنا) في أيّ منزل من منازل السلوك إلى الله، بِقَدَرٍ أو بآخر... أما في منزل (التفويض) فلا يصطحب الإنسان معه شيئاً من (الأنا) قط...

وسلام على إسماعيل، عندما قال له أبوه إبراهيم عليه السلام في وادي «منى»، حيث لا يشهده إلا الله وملائكته ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصَّافات: ١٠٢]،.. لم يشأ أبوه إبراهيم عليه السلام أن يجرّده من إرادته ورغبته وحبّه، وإعراضه وإقباله وأنانيته قسراً، ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصَّافات: ١٠٢] ليدخل هذا المنزل، إذا شاء بملء إرادته، ولن يدخل الإنسان هذا المنزل، إلا بكامل إرادته.

فقال الفتى اليافع إسماعيل عليه السلام لأبيه الطَّاعن في السنّ إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: ١٠٢]، فأطلق يد أبيه الشيخ الكبير، في أن يذبحه، من غير اعتراض، ولا إعراض، ولا انكماش، ولا توقّف: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصَّافات: ١٠٢]، ووعده أن يكون صابراً تحت حدّ السكِّين، لا يصرخ ولا يصيح، ولا يضطرب ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: ١٠٢].

ولكن ما إن تفوّه بهذه الكلمة (ستجدني) حتى عرف أنَّه اصطحب معه ظِلاً من «الأنا» باهتة معه إلى هذا المنزل (ستجدني)، وهو ما لا ينبغي أن يكون، فهو لا يدخل هذا المنزل الرفيع إلا بعد أن يتجرد من (الأنا) بشكل كامل، فلا يصطحب معه ظلالاً أو أثراً للأنا إلى هذا المنزل، فيتدارك عليه السلام الأمر سريعاً، ليدفع الأنا وإيحاءاته عن نفسه، فيقول (إن شاء الله) بعد كلمة (ستجدني) مباشرة، فهو بمشيئة الله يصبر، وليس بعزمه وإرادته. إنَّما ركب اللّغة مركب ضعيف لا يتحمَّل

المعارج العالية للعبد إلى الله تعالى، فلا محالة تعجز اللّغة، عمَّا تطيق النفس من المنازل العالية التي يعرج فيها الإنسان إلى الله»[١].

أثر التفويض على السلوك:

إنَّ للتفويض آثار عجيبة على حياة الإنسان في الدُّنيا والآخرة، فأما في الدُّنيا، فإنَّ مصائب الدُّنيا تهون عليه كما يهون على المريض تحمُّل الآلام تحت يد الطبيب، بلا شك ولا خوف ولا قلق.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «المفوّض أمره إلى الله في راحة الأبد والعيش الدائم الرغد»[٢].

وعنه عليه السلام: «وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدُّنيا»[٣].

وأما في الآخرة فإنَّ الله تعالى يفوّض له التصرف في جنات الخلد، فعن جابر الجعفي قال: قال لي الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ المؤمن ليفوّض الله إليه يوم القيامة فيصنع ما يشاء، قلت: حدثني في كتاب الله أين قال؟ فقال عليه السلام: قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[قٓ: ٣٥]، فمشيئة الله مفوَّضة إليه، والمزيد من الله تعالى ممَّا لا يُحصى»[٤].

❁ ❁

(١) المصدر السابق: ص٨٩.
(٢) سفينة البحار.
(٣) تأملات: ص٧٢.
(٤) سفينة البحار.



أين تجد الله تعالى؟

في الحديث القدسي أنَّ موسى عليه السلام سأل ربّه: «أين أجدك؟ فقال الله تعالى:

«تجدني عند القبور المندرسة والقلوب المنكسرة»[١].



فطرة البحث عن الله تعالى:

الإنسان بفطرته يبحث عن الله تعالى، فقد ثبت في الأبحاث الفلسفية أنَّ الناقص يطلب الكامل، والسافل يطلب العالي... فكل موجود له غاية وهدف من موجود آخر حتى يصل الأمر إلى غاية الغايات وهو الله تعالى.

«فالجماد وإن كان طالباً للحق تعالى ولكن بتوسط طلبه للنبات، وطلب النبات للحيوان، وطلب الحيوان للإنسان، وطلب الإنسان الناقص بالإضافة للإنسان الكامل وهكذا الأكمل فالأكمل والأشرف فالأشرف إلى أن ينتهي إلى الغاية القصوى»[٢].

---

(١) مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.

(٢) كسر أصنام الجاهلية: ص١٣٨.

فالإنسان عبر الزمان والمكان يبحث عن الكمال المطلق وهو الله تعالى، فلا تجد دين أو مذهب في مشارق الأرض ومغاربها إلا وهو يبحث عن الله تعالى.

أين الله؟

والسؤال الذي يُطرح في هذا المجال هو: أين الله؟

الجواب: إنَّ الله تعالى موجود في كل مكان كما في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «أناجيك يا موجوداً في كل مكان».

فمن أراد الله تعالى فهو في كل مكان كما في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهمَّ إنِّي أجد سُبُل المطالب إليك مشرعة».

وله تعالى وجود خاص بمعنى «إنَّ له تجليات خاصة في آثاره ورحمته».

ويتحقق ذلك الوجود في الأمور التالية:

١ ـ **قلب المؤمن**، ففي الحديث القدسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن»[١].

٢ ـ **القلب المنكسر**، وهو القلب الذي ينكسر من خشية الله تعالى وهيبته وحيائه... أو الذي ينكسر عند أذية الناس له، وهذا القلب المنكسر ينجبر بإرادة الله تعالى بتجلي اسم «الجبَّار».

قال العارف السيِّد السبزواري رحمه الله: «كسرها حب الله جلَّ جلاله وجبرها تجلِّي المحبوب فيها، فكسرت الهيبة الإيمانية جميع الحجب الظلمانية بل الجهات الإمكانية، فاتصلت إلى معدن النُّور

---

(١) مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.

ومنبع الخير والسرور، فاستعدت للإشراق، فأشرق عليها المعارف الحقة والعلوم الغيبية»[١].

٣ ـ **المسجد المهجور**، وهو المسجد الذي لا يصلِّي به أحد.

٤ ـ **القبور المندرسة**، وهي القبور التي عفى عليها الزمان حتى تغيرت معالمها، قال العارف السيِّد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: «ولعلَّ المراد بالقبور المندرسة قبور خلّص المؤمنين الذين لا يعرفون إلا الله، ولا يعرفهم إلا الله تعالى»[٢].

٥ ـ **المريض**، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة: يابن آدم مرضت فلم تعدني فيقول: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ فيقول تعالى: أما علمت إنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنَّك لو عدته لوجدتني عنده»[٣].

والسرّ في وجوده تعالى عند المريض أنَّ المريض يصير في أقرب الحالات إلى الله تعالى من خلال أنينه وشكواه وتضرعه.

قيل في شرح الحديث: «إنَّ العبد يكون في نعمة العافية حتى إذا مرض سُلب هذه النعمة واستبدل منها بالمنعم، فبدل أن يكون في معية النعمة يكون في معية المنعم وهو الله تعالى».

وفي الخبر أنَّ الإمام الحسن عليه السلام دخل على عليل فقال له: «إنَّ الله تعالى قد أتاك فاشكره وذكرك فاذكره»[٤].

ونظراً لحال المريض وقربه من ربّه، فقد رُوي أنَّ الإمام علي عليه السلام

---

(١) مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.
(٢) مهذب الأحكام: ج٤، ص٢٢٧.
(٣) ميزان الحكمة: مادة «المرض».
(٤) كشكول البهائي: ج٣، ص١٩٢.

كان يمشي حافياً في عدة مواضع، منها: «يوم الفطر، والنحر، والجمعة، وعيادة المريض، وتشييع الجنائز ويقول: «إنَّها مواضع الله، وأحب أن أكون فيها حافياً»[١].

قانون الطلب والإيجاد:

إنَّ الله تعالى جعل في الكون سُنناً وقوانين، منها قانون «الدُّعاء» الذي يعني الطلب، ويتفرع عنه «الاستجابة».

ومنها: قانون «الطلب والإيجاد» بمعنى أنَّ من أراد شيئاً فلا بدَّ أن يطلبه طلباً حثيثاً من مظانه.

وهذا القانون ينطبق على وجود الله تعالى، فمن أراد الله تعالى فلا بدَّ أن يطلبه، ومن هنا ورد:

في الحديث القدسي: «من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني أحبني، ومن أحبني عشقني، ومن عشقني عشقته، ومن عشقته قتلته، ومن قتلته فعليَّ ديته، ومن عليَّ ديته فأنا ديته»[٢].

وورد أيضاً: «يا داود من عرفني ذكرني، ومن ذكرني قصدني، ومن قصدني طلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني حفظني، ومن حفظني لا يختار عليَّ غيري»[٣].

وورد في الحديث القدسي أنَّ موسى عليه السلام قال: «أين أجدك يا رب؟ فقال تعالى: يا موسى إذا قصدت إليَّ فقد وصلت إليَّ»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص٥٤.
(٢) عارف في الرحاب القدسية: ص١٦٢.
(٣) المحبة: ص٢٢٦.
(٤) الأمثل: ج١٨، ص٢٢.

ماذا فقد من وجدك؟

إنَّ من يجد الله تعالى فإنَّه يحصل على «الكنز الخفي» الذي يستغني به عن كل شيء، فهو الغني، القوي، العالم، الكامل. . .

وفي هذا المجال نذكر دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم «عرفة» ففيه يقول: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟».

فمن وجد الله تعالى في حياته فهو الغني وإن كان من الفقراء والمستضعفين والمسجونين، ومن فقد الله تعالى فهو أفقر الفقراء وإن ملك الدُّنيا بأجمعها.

ففي الخبر أوحى الله تعالى إلى موسى: «يا موسى الفقير من ليس له مثلي كفيل، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب ليس له مثلي حبيب»[١].

وفي الواقع إنَّ أحوج ما يكون الإنسان إلى الله تعالى أن يجد بعد الموت رحمته وإحسانه، وإلاَّ كان مصيره إلى النار، ولذا قال تعالى عن أحوال الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النُّور: ٣٩].

والمعنى أنَّ الكافر يتصور أن ما يقدِّم من أذكار وقرابين سوف تنفعه بعد موته، ولكنَّه يتجلَّى له خلاف ذلك حيث سيجد الله ـ أي أمر الله وجزائه ـ فيوفِّيه حسابه»[٢].

---

(١) كلمة الله: ص١٩٣.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم: ص٢١٢.



زيارة الله تعالى

عن رسول الله ﷺ أنَّه قال:

«من زار أخاه في بيته قال عزَّ وجلَّ له: أنت ضيفي وزائري، عليَّ قراك، وقد أوجبت لك الجنَّة بحبك إيَّاه»[١].

❋ ❋ ❋

فضل زيارة المؤمن:

تعتبر زيارة المؤمن في بيته من أهم الأمور الاجتماعية التي حثَّ عليها الدِّين الإسلامي لما فيها من آثار إيجابية في الدُّنيا والآخرة، فهي «تنبت المودة» كما قال رسول الله ﷺ[٢] وتقرّب بين الناس، وتشدّ الأواصر الاجتماعية.

وهي طريق لدخول الجنَّة وازدياد الحسنات والقرب من ربّ العالمين، حتى ورد أنَّ من زار مؤمناً كأنَّما زار الله تعالى وهو ضيف الله تعالى.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ ضيف الله عزَّ وجلَّ رجل حجَّ

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٧٦.

(٢) المعجزات: ص١٥٣.

واعتمر فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله، ورجل كان في صلاته فهو في كنف الله حتى ينصرف، ورجل زار أخاه المؤمن في الله عزَّ وجلَّ فهو زائر الله في عاجل ثوابه وخزائن رحمته»[١].

زيارة الله تعالى:

وهنا يطرح سؤال:

لماذا أُعتبرت زيارة المؤمن كزيارة الله تعالى؟ وما معنى زيارة الله تعالى؟

الجواب:

إنَّ معنى الزيارة في اللغة العربية هي «القصد» ومنه زار أخاه أي قصده، و«حقيق على الله أن يكرم زوَّاره» أي قاصديه، و«اللَّهمَّ اجعلني من زوَّارك» أي قاصديك[٢].

وفي الحديث: «من زار أخاه في جانب المصر ابتغاء وجه الله فهو زوره وحق على الله أن يكرم زوره»[٣].

فمعنى زيارة الله تعالى هي «القصد إلى الله تعالى»، وليس معناه الحضور عنده كحضور الناس لدى بعضهم البعض، فإنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء.

وأما كون زيارة المؤمن هي كزيارة الله تعالى، فذلك لأنَّ المؤمن

---

(١) الخصال: ج١، ص١٢٧.
(٢) مرآة الكمال: ج٣، ص١٤٤.
(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٦.

منسوب إلى الله تعالى كبيته المنسوب إليه، فمن أتى بيت الله تعالى فكأنَّما قصد الله تعالى، ومن أتى المؤمن فكأنَّما قصد الله تعالى.

ويتجلى هذا الأمر بشكل واضح فيما ورد حول النظر إلى المؤمن وأنَّه كالعبادة، وأنَّ معاداة المؤمن هي معاداة الله تعالى، وأنَّ أذيته هي أذية الله تعالى، فكل ذلك لأنَّ المؤمن من الله تعالى ومنسوب إليه.

وكلَّما كان المؤمن على درجة عالية من الكمال فإنَّ هذا المعنى يتحقق فيه بشكل أبرز وآكد، وهذا المعنى يتجسَّد في زيارة النبي وآله عليهم السلام فمن زارهم فكأنَّما زار الله تعالى.

فعن الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام قال: كنَّا مع أمير المؤمنين عليه السلام أنا وحارث الأعور، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يأتي قوم في آخر الزَّمان يزورون قبر ابني الحسين، فمن زاره فكأنَّما زارني، ومن زارني فكأنَّما زار الله سبحانه، ألا ومَنْ زار الحسين فكأنَّما زار الله في عرشه»[١].

قال بعض المحقِّقين: «إنَّه قد تحقَّق عند أهل المعرفة أنَّ للإنسان في سلوكه إلى طاعة الله ورضوانه حالةً راقية ومرتبة رفيعة يعبِّرون عنه بالفناء في الله تعالى، وهو نهاية مقام كمال العبد في عبوديَّته وغاية مقام قربه، وهو عبارة عن كون علمه مستهلكاً في علمه تعالى وقدرته مضمحلةً في قدرته عزَّ سلطانُهُ، وإرادته منمحية في إرادته جلَّ مجده بحيث لا يكون له رأي وحكم إلاَّ ما رآه وحكم به، ولا يرى لنفسه قدرة على شيء إلاَّ بحوله وقوَّته، ولا يريد شيئاً غير ما أراده الله تعالى.

---

(١) نور العين: ص٥٠.

فإذا داوَم العبد على هذه الحالة واستمرَّ عليه بحيث صارت ملْكة له وصار العبد متجوهراً بها فقد فني عن نفسه ولا حكم له حينئذٍ؛ فمن أكرمَهُ فقد أكرم الله، ومن أهانه فقد أهان الله، ومن زاره فقد زار الله.

كما ورد أنَّه تعالى قال خطاباً لبعض أنبيائه: «مرضت فلم تعدني»، ولمَّا استفسر النبيُّ واستوضَحَ عن الأمر قال سبحانه: «كان عبدي المؤمن فلانٌ مريضاً»، فأسنَدَ المرضَ إلى ذاته المقدَّسة، وقال في حقّ أكرم رُسُلِهِ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فاتّضح إذاً معنى الخبر الوارد في زيارة الحسين عليه السلام؛ لأنَّ مولانا الحسين عليه السلام ببذل مهجته ومُهَج أولاده وأعوانه، فقد فني عن نفسه في طريق التوحيد والجهاد مع أعداء الإسلام، ولو أرضاهم ببيعته لطاغيتهم الرِّجس يزيد بن معاوية لأمضى كفرهم ونفاقهم، ولَما قام للتوحيد عمودٌ ولَمَا اخْضَرَّ له عودٌ، فمن زاره في قبره ـ روحي له الفداء ـ كان كمن زار الله في عرشه»[1].

قال العالم الشيخ جعفر الشوشستري رحمه الله: «وأما الصفة الخاصة التي تحصل للزائر بمقتضى الأخبار وينبغي ذكرها مستقلة فهي أنَّ من زار الحسين **فقد زار الله في عرشه**، وهو كناية عن نهاية القرب إلى الله والترقي إلى درجة الكمال، وفوق هذه الصفة صفة أخرى أنَّه يدرك بها زيارة الرَّب فإنَّه قد ورد أنَّه يزوره الله كل ليلة جمعة، فمن زاره في ليلة الجمعة أدرك زيارة الرَّبّ له وزيارته للرَّب، فزيارة الرَّبّ له كناية عن إفاضة خاصة من الرحمة عليه في ذلك الوقت، فمن أدركها لا يمكن أن يصير محروماً منها، ولا يتصور أن لا يناله نصيب منها، وزيارته للرَّب كناية عن نهاية القرب إليه، فإذا اجتمعا حصلت له

---

(١) المصدر نفسه.

خصوصية مرتبة من شمول الرحمة الإلهية لا يمكن أزيد منها، وفي رواية أخرى أنَّه من أراد أن ينظر إلى الله يوم القيامة فليكثر من زيارة الحسين عليه السلام، فهذه ثلاث عبارات: زيارة الله، والزيارة مع الله، والنظر إلى الله، وهي عبارة عن نهاية ما يتصور للمخلوق من الترقي إلى درجات القرب، ولهذا جعلت هذه الصفة باباً مستقلاً، فإنَّه يقابل جميع القضايا ويفوق عليها»[١].

ويتأكَّد معنى زيارة المؤمن فيما إذا كان المؤمن في حال القرب من الله تعالى كالمرض والاحتضار وبعد الموت، ففي بعض الروايات إنَّ الله تعالى عند المريض وعند القبور المندرسة.

عيادة المريض:

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى العبد إلى الله تعالى فيحاسبه حساباً يسيراً فيقول: يا مؤمن ما منعك أن تعودني حين مرضت؟».

فيقول المؤمن: أنت ربِّي وأنا عبدك، أنت الحي القيُّوم الذي لا يصيبك ألم ولا نصب.

فيقول عزَّ وجلَّ: «من عاد مؤمناً أن تعوده حين مرض؟ أما إنَّك لو عدته لعدتني ثم لوجدتني عنده، ثم لو سألتني حاجة لقضيتها لك ولم أردَّك عنها»[٢].

---

(١) الخصائص الحسينية: ص٢١٩.

(٢) المحجة البيضاء: ج٣، ص٤١١.

شروط قبول الزيارة:

إنَّ لقبول الزيارة شروط أبرزها:

١ ـ **أن يكون قصد الزائر هو القرب إلى الله تعالى**، وحبّاً لله تعالى بلا رياء ولا مباهاة ولا لطلب مصلحة خاصة.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ ملكاً من الملائكة مرَّ برجل قائم على باب دار فقال له الملك: يا عبد الله ما يقيمك على باب هذه الدار؟ فقال: أخٌ لي فيها، أردت أن أسلِّم عليه.

فقال الملك: هل بينك وبينه رحم ماسة؟ أو هل نزعتك إليه حاجة؟

فقال: لا بيني وبينه رحم، ولا نزعتني إليه حاجة إلا أخوّة الإسلام، وحرمته، وأنا أتعهده وأسلِّم عليه في الله ربّ العالمين.

فقال الملك: إنِّي رسول الله إليك وهو يقرئك السلام ويقول: إنَّما إيَّايّ أردت، ولي تعاهدت، وقد أوجبت لك الجنَّة، وأعفتك من غضبي، وأجرتك من النار»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكَّل الله به سبعين ألف ملك، ينادون في قفاه: «أن طبت وطابت لك الجنَّة.. فأنتم زوَّار الله، وأنتم وفد الرحمن» حتى يأتي منزله.

فقال له بشير: جعلت فداك! فإن كان المكان بعيداً؟

---

(١) جامع الأخبار: ص١١٨.

قال: «نعم يا بشير! وإن كان المكان مسير سنة؛ فإنَّ الله جواد، والملائكة كثير، يشيعونه حتى يرجع إلى منزله»[١].

٢ ـ أن يكون قصده تعظيم حق المؤمن.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره فيوكل الله عزَّ وجلَّ به ملكاً فيضَع جناحاً في الأرض وجناحاً في السماء يظلّله، فإذا دخل إلى منزله نادى الجبَّار تبارك وتعالى: «أيُّها العبد المعظِّم لحقِّي، المتّبع لآثار نبيِّي، حقٌّ عليَّ إعظامك، سلني أعطك، ادعني أجبك، اسكت ابتدئك» فإذا انصرف شيّعه الملك يظلّله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: «أيُّها العبد المعظِّم لحقِّي، حق عليَّ إكرامك، قد أوجبت لك جنَّتي وشفَّعتك في عبادي»[٢].

وقد ورد عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «أيُّما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقّه كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيِّئة، ورُفِعَتْ له درجة، فإذا طرق الباب فتحت له أبواب السماء.

فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبلَ الله عليهما بوجهه ثم باهى بهما الملائكة فيقول: «انظروا إلى عبديَّ تزاورا وتحبَّا فيَّ، حق عليَّ ألا أُعذبهما بالنار، بعد ذا الموقف» فإذا انصرف شيَّعه ملائكة عدد نفسه وخطاة كلامه، يحفظونه عن بلاء الدُّنيا وبوائق الآخرة إلى مثل تلك اللية من قابل، فإن مات فيما بينهما أعفي من الحساب، وإن كان

---

(١) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٤، الكافي: ج٢، ص١٧٧، ح٧.
(٢) حق اليقين: ص٤٨٦.

المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور كان له مثل أجره»[١].

إكرام الضيف:

ذكر الحديث القدسي أنَّ الزائر هو ضيف الله تعالى، ومن الطبيعي أنَّ الله تعالى يكرم ضيفه، وتكريمه له هو الجنَّة.

فعن رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[٢].

وعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «لكل أخوين في الله لباس وهيئة يشبه هيئة صاحبه، وهم يُعرفون بذلك حتى يدخلون في دار الله عزَّ وجلَّ، فيقول الله تبارك وتعالى: «مرحباً بعبيدي وخلقي وزواري والمتحابين فيَّ في محل كرامتي، أطعموهم واسقوهم واكسوهم».

فأول من يكسى منهم سبعون إلى سبعمائة ألف حلة ـ إن شاء الله تعالى ـ من الحلل ليس منها حلة تشبه صاحبها، ثم يقول: «مرحباً بعبيدي وزواري وجيراني في محل كرامتي والمتحابين فيَّ، اطعموهم وعطروهم» فينشر سحاب بالعطر لم يروا قبله ما يشبهه، ثم يقول لهم: «مرحباً مرحباً (عشر مرات)»، حتى أحلوهم إلى تحت الأظلال وفيما بين أيديهم مائدة من ذهب وفضة»[٣].

---

(١) حق المتقين: ص٥٤٧.

(٢) التذكرة الحمدونية: ج١، ص٢٧٥.

(٣) جامع الأخبار للسبزواري: ص٣٢٤، ح٩١١.

حديث مهم:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضاً من أغراض الدُّنيا، قيل لهما: مغفور لكما فاستأنفا، فإذا أقبلا على المسائلة قالت الملائكة بعضها لبعض: «تنحّوا عنهما فإنَّ لهما سرّاً وقد ستر الله عليهما.

قال إسحاق: فقلت: جعلت فداك فلا يكتُبّ عليهما لفظهما، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟

«فتنفس أبو عبد الله عليه السلام الصعداء ثم بكى حتى اخضلَّت دموعه لحيته، وقال: «يا إسحاق إنَّ الله تعالى إنَّما أمر الملائكة أن تعتزل عن المؤمنين إذا التقيا إجلالاً لهما، وإنَّه وإن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما فإنَّه يعرفه ويحفظهما عالم السر وأخفى»[(١)].

---

(١) المحجة البيضاء: ج٣، ص٣٨٩.



بيوت الله تعالى

عن رسول الله ﷺ: قال الله تعالى:

«إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، وإنَّ زواري فيها عمارها»[(١)].

❋ ❋ ❋

بيت الله تعالى:

الإنسان يحتاج للبيت ليتخذه سكناً يأوي إليه من الحرّ والبرد والمخاطر، أما الله تعالى فلا يحتاج إلى بيت ليستفيد منه، فتعالى الله عن النقص والحاجة، إلا أنَّه اتخذ من الأرض بيوتاً ليستفيد منها الناس في العبودية له تعالى، وقد أضاف هذه البيوت إلى نفسه تشريفاً لها، فصار يُقال لها «بيوت الله».

فكل مخلوق اصطفاه الله تعالى واختاره وميزه عن غيره فإنَّه يُنسب إليه، ومنه قول «شهر الله» عن رمضان، ومنه «روح الله» عن السيِّد المسيح عليه السلام.

فعن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

---

(١) رواه أبو نعيم.

[الحجر: ٢٩]: «. . . وإنَّما أضافه إلى نفسه لأنَّه اصطفاه على سائر الأرواح كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال «بيتي» وقال لرسول من الرُّسل «خليلي» وأشباه ذلك، وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مُدبَّر»[١].

وهذه البيوت التي اتخذها الله تعالى هي «المساجد» وهي خير بقاع الأرض وأحبها إلى الله تعالى وأقدسها وأطهرها.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبريل عليه السلام: يا جبرائيل أي البقاع أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: المساجد، وأحبّ أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً منها»[٢].

دور المساجد:

قلنا إنَّ الهدف من اتخاذ الله تعالى لبيت في الأرض هو منفعة الناس، حيث يتقربون من خلاله إلى ربّهم، فيصلّون، ويدعون، ويذكرون، ويعبدون. . .

فعن الإمام علي عليه السلام: «كانت الحكماء فيما مضى من الدهر تقول: ينبغي أن يكون الاختلاف إلى الأبواب لعشرة أوجه، أولها: بيت الله عزَّ وجلَّ لقضاء نسكه، والقيام بحقِّه، وأداء فرضه»[٣].

وللمساجد أدوار أخرى في مختلف المجالات التربوية، والاجتماعية، والسياسية، كما يُعرف ذلك من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) حياة السيِّد المسيح عليه السلام: ص٧٨.

(٢) الكافي: ج٣، ص٤٨٩.

(٣) الخصال: ص٤٢٦.

وآله ﷺ فقد كان مكاناً للقضاء، ونشر العلم، وتجهيز الجيوش والتعارف. . .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه كان يقول: «من اختلف إلى المسجد، أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو يسمع كلمة تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياءً»[1].

عمارة المساجد:

ذكر الحديث القدسي إنَّ الذي يصدق عليه أنَّه يزور الله تعالى في بيته هو من يعمره.

والعمارة هي البناء المادي، والمعنوي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قال الشيخ ناصر الشيرازي: «والعمارة في الآية تشمل بناء المسجد وتأسيسه وترميمه، والاجتماع فيه والحضور عنده»[2].

العمارة المادية:

وهي بناء المساجد بالطين، وهو عمل مستحب وفيه الأجر والثواب.

عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته وهي آخر خطبة له بالمدينة حتى لحق بالله عزَّ وجلَّ فوعظنا بمواعظ ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، واقشعرت منها الجلود، وتقلقلت منها الأحشاء،

---

(١) المستدرك: ج٣، ص٣٥٧.

(٢) الأمثل: ج٥، ص٥٠٥.

أمر بلالاً فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس وخرج رسول الله ﷺ حتى ارتقى المنبر إلى أن قال في خطبته: «ومن بنى مسجداً في الدُّنيا أعطاه الله بكلّ شبر منه أو قال بكل ذراع منه مسيرة أربعين ألف ألف عام مدينة من ذهب وفضة ودرّ وياقوت وزمرد وزبرجد ولؤلؤ...»[١].

وعن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ في حديث طويل أنَّه رأى ليلة الإسراء هذه الكلمات مكتوبة على الباب السادس من الجنة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أحب أن يكون قبره واسعاً فسيحاً فليَبْنِ المساجد، ومن أحب أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليكنس المساجد، ومن أحب أن لا يظلم لحده فلينوِّر المساجد، ومن أحب أن يبقى طرياً تحت الأرض فلا يبلى جسده فليشترِ بُسط المسجد»[٢].

وعن أحدهم قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يحدِّث عن أبيه: «إنَّ الجنَّة والحور، لتشتاق إلى من يكسح المسجد، ويأخذ منه القذى»[٣].

وعن رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً ولو مفحص قطاة، بنى الله له بيتاً في الجنة»[٤].

وإذا لم يستطع الإنسان أن يبني مسجداً على نفقته الخاصة فيمكنه أن يساهم بمبلغ من المال أو بأن يشغل بنفسه مجاناً لينال بذلك اسم ووسام «عمَّار المساجد».

---

(١) ثواب الأعمال، باب جوامع مناهي النبي ﷺ، ص٢٤٩، نقلاً عن بحار الأنوار: للمجلسي، ج٧٦.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٣، ص٣٨٥.
(٣) المستدرك: ج٣، ص٣٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٦٦.

ومن جميل ما سمعته أنَّ امرأة إذا عرفت عن بناء مسجد كانت تشتري أربعة عشر حجراً وتنوي ذلك عن الأربعة المعصومين عليهم السلام.

ويشترط في بناء المسجد أن يكون بإخلاص لله تعالى دون رياء أو عصبية أو ضداً بأحد كما فعل المنافقون زمن رسول الله صلى الله عليه وآله فقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بهدم المسجد الذي بنوه لأنَّه لم يؤسس على التقوى، وإنَّما للتفريق بين الناس وبث الخلافات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

فقد روى أنَّ بني عمرو بن عوف لمَّا بنوا مسجد «قبا» بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وآله فأتاهم فصلَّى فيه، فحسدهم أخوتهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ليأتيهم فيصلِّي فيه، فاعتل عليهم بأنَّه متوجه إلى تبوك، وإنَّه متى قدم أتاهم فصلَّى فيه، فحين قدم من تبوك أنزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧] الآيات، فانفذ صلى الله عليه وآله جماعة من أصحابه، منهم عمَّار بن ياسر، وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم، فاهدموه وحرّقوه» وأمر أن يتَّخذ مكانه كناسة للجيف»[١].

(١) المصدر السابق: ص٤٤٨.

وذلك لأنَّ بيوت الله تعالى خالصة لله، ومن ثم لا يقبل الله تعالى بناء من غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

كما ينبغي أن يكون المال الذي يُصرف للبناء من أطهر الأموال، وأن يُعطى العاملون أجورهم بلا بخس.

ملاحظة مهمة:

شاع في زماننا الحاضر افتتاح المساجد بعد بنائها باحتفال يُدعى إليه الناس من قبلِ من بنى المسجد، والأولى له قبل ذلك أن يدخل إلى المسجد ويصلِّي ويدعو ربّه بأن يتقبَّل عمله، وهذا العمل هو اقتداء بالنبي إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

العمارة المعنوية:

وهي أحياء المساجد بالأجواء الروحية كالصلاة، والدُّعاء، وتلاوة القرآن.

فالمطلوب من الناس الحضور في المساجد ليتقربوا إلى ربّهم، ولئلا تُهجر، وبالأخص جيران المسجد.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: اشترط

رسول الله ﷺ على جيران المسجد شهود الصلاة، وقال: «لينتهين أقوام لا يشهدون الصلاة أو لآمرنَّ مؤذّناً يؤذّن ثم يقيم، ثم آمر رجلاً من أهل بيتي وهو علي عليه السلام فليحرقنَّ على أقوام بيوتهم بحزم الخطب، لأنَّهم لا يأتون إلى الصلاة»[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال: «لا صلاة لمن لا يشهد الصلاة من جيران المسجد إلا مريض أو مشغول»[٢].

وعن زرارة والفضيل قالا: قلنا له أي الإمام الصادق عليه السلام: الصلاة في جماعة فريضة هي؟ فقال: «الصلاة فريضة وليس الاجتماع بمفروض في الصلوات كلها، ولكنَّها سُنَّة من تركها رغبةً عنها وعن جماعة المؤمنين من غير علَّة فلا صلاة له»[٣].

وتتحقق عمارة المسجد بأمور:

١ ـ **المشي إليها ففي الحديث القدسي**: «ألا إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، تُضيءُ لأهل السماوات، كما تُضيءُ الكواكب لأهل الأرض.

ألا طوبى لمن كانت المساجد بيوته.

ألا طوبى لمن تطهَّر في بيته، ثمَّ زارني في بيتي.

ألا إنَّ على المزور كرامة الزَّائر.

ألا بشِّر المشَّائين في الظلمات إلى المساجد، بالنور الساطع يوم القيامة»[٤].

---

(١) الحر العاملي: الوسائل: ج٥، باب ٢، من أبواب صلاة الجماعة، ح٦.
(٢) الحر العاملي: الوسائل: ج٥، باب ٢، من أبواب صلاة الجماعة، ح٢.
(٣) الحر العاملي: الوسائل: ج٥، باب ٢، من أبواب صلاة الجماعة، ح٢.
(٤) كلمة الله: ص٢١٧.

٢ ـ **الجلوس فيه**، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الجلوس في المسجد لانتظار الصلاة عبادة، وقال: من كان القرآن حديثه، والمسجد بيته، بنى الله له بيتاً في الجنَّة، ودرجة دون الدرجة الوسطى»[١].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «قال المسيح عليه السلام للحواريين: يا عبيد السوء اتخذوا مساجد ربّكم سجوناً لأجسادكم وجباهكم، واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان، لأنَّ الله يقول: «إنَّما يعمر مساجد الله من آمن بالله»[٣].

وجاء في وصيته ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر إنَّ الله يعطيك ما دمت جالساً في المسجد بكلّ نفس تتنفس فيه درجة في الجنَّة وتصلِّي عليك الملائكة، ويُكتب لك بكلّ نفس تنفست فيه عشر حسنات ويُمحى عنك عشر سيِّئات.

يا أبا ذر أتعلم في أيّ شيء نزلت هذه الآية: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠]، قلت: لا، قال: في انتظار الصلاة خلف الصلاة.

يا أبا ذر إسباغ الوضوء على المكاره من الكفارات وكثرة (الاختلاف إلى المساجد) انتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط.

---

(١) المستدرك: ج٣، ص٣٥٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

يا أبا ذر كل جلوس في المسجد لغو إلا ثلاثة قراءة مصلّ أو ذاكر الله تعالى أو مسائل في علم»[١].

٣ ـ تلاوة القرآن الكريم فيه، فعن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم في مجلس من مساجد الله تعالى يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاَّ تنزَّلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[٢].

٤ ـ ترك المكروهات، فعن أبي ذر قلت: يا رسول الله كيف تعمر مساجد الله؟ فقال ﷺ: «لا تُرفع فيها الأصوات، ولا يُخاض فيها بالباطل، ولا يُشترى فيها ولا يُباع، واترك اللغو ما دمت فيها، فإن لم تفعل فلا تلومنَّ يوم القيامة إلاَّ نفسك»[٣].

ثواب عمار المساجد:

عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ المسجد يشكو الخراب إلى ربّه، وأنَّه ليتبشبش من عماره إذا غاب عنه ثم قدم، كما يتبشبش أحدكم بغائبه إذا قدم عليه»[٤].

خراب المساجد:

ويقابل العمارة «الخراب المادي» وهو هدم المساجد أو كسر بعض أثاثها أو التصرف فيها، كإزالة الدهان أو كسر القفل وما أشبه

---

(١) الحر العاملي: الوسائل: ج٣، باب ٢ من أبواب المواقيت، ح٨.

(٢) المستدرك: ج٣، ص٣٦٣.

(٣) ميزان الحكمة: مادة «المسجد».

(٤) المستدرك: ج٣، ص٣٦٥.

و«الخراب المعنوي» وهو ترك المساجد وهجرانها حتى تبقى فارغة من المصلين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١١٤].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «ثلاثة يشكون إلى الله عزَّ وجلَّ: مسجد خراب لا يصلِّي فيه أهله، وعالم بين جهَّال، ومصحف معلَّق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه»[١].

ورُوي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد جعل ذلك من ضمن وصاياه حيث قال: «الله الله في بيت ربّكم فإنَّه إن تُرك لم تنظروا»[٢]، فيمكن أن نفهم من الحديث إنَّ هجر المسلمين لبيت الله يؤدِّي إلى خسارتهم العناية الإلهيَّة وأنَّه سبحانه لا ينظر إليهم، كما أنَّ هجر المسجد يؤدِّي إلى عدم الإمهال والأنظار من قبل الأعداء، لأنَّه وسيلتنا للوقوف في وجه عدوّنا، فما دمنا نرتاده فنحن على خير، أما لو تركناه فهذا يعني ضعفنا وتفرّقنا وسهولة انقضاض العدو علينا وقضاؤه علينا، وممَّا نقل عن الأئمَّة عليهم السلام بهذا الصدد، ما نقله زريق عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شكت المساجد إلى الله تعالى الذين لا يشهدونها من جيرانها فأوحى الله إليها وعزَّتي وجلالي لا قبلت لهم صلاة ولا أظهرت لهم في الناس عدالة ولا نالتهم رحمتي ولا جاوروني في جنَّتي»[٣].

عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يجيء يوم القيامة

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٤، باب ٤، من أبواب قراءة القرآن، ح٢.

(٢) راجع البلاغة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، باب الوصايا.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٣، أبواب أحكام المساجد، باب ٢، ح٨.

ثلاثة يشكون إلى الله عزَّ وجلَّ: المصحف والمسجد والعترة. يقول المصحف: يا ربّ حرّقوني ومزّقوني، ويقول المسجد: يا ربّ عطّلوني وضيّعوني، وتقول العترة: يا ربّ قتلونا وطردونا وشرّدونا. فاجثوا للرُّكبتين للخصومة، فيقول الله جلَّ جلاله لي: أنا أولى بذلك»[١].

الصد عن المساجد:

إنَّ بعض الناس يقومون بتصرفات تجعل الآخرين يمتنعون عن الدخول إلى المساجد، وهذا هو خراب لها وصدّ عن سبيل الله تعالى قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٣٤].

وهذا هو حال البعض في آخر الزمان.

فعن النبي ﷺ، قال: «يأتي في آخر الزمان قوم يأتون المساجد، فيقعدون حلقاً ذكرهم للدنيا وحبّ الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله فيهم حاجة»[٢].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا فعلت أُمّتي خمسة عشر خصلة حلّ بها البلاء - إلى أن عدّ ﷺ منها -: وارتفعت الأصوات في المساجد»[٣].

---

(١) الخصال: ص١٧٤، باب الثلاثة، ح٢٣٢.

(٢) المستدرك: ج٣، ص٣٧٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٨٢.

قرض الله تعالى

في الحديث القدسي:

«استقرضت عبدي فلم يقرضني»[١].



عتاب إلهي:

يحتوي هذا الحديث على العتاب من الرَّب إلى العبد، وذلك لأنَّ الله تعالى يطلب من عبيده القرض المالي إلا أنَّهم يرفضون ذلك حبّاً للمال وخوفاً من الفقر.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل يحتاج الله تعالى إلى مال العبد حتى يطلب القرض؟

الجواب: إنَّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، وخزائنه لا تفنى مهما أعطى، فهو الجواد الكريم، إلا أنَّ الاستقراض هو «طلب المؤمن من المؤمن أن يقرضه مالاً»، فكأن المؤمن إذا طلب القرض فهو يتكلَّم عن

---

(١) مسند أحمد بن حنبل.

الله تعالى، ومثله الحديث القدسي: «مرضت فلم تعدني» كما ذكرنا في موضوع «عيادة الله تعالى».

كما أنَّ المؤمن هو من «عيال الله تعالى» فمن أقرضه، فإنَّما يقرض الله تعالى، ومثاله: إنَّ الأب يطلب مالاً لولده فيقول لصديقه: اقرضني مالاً لابني.

فقرض الله تعالى، لا عن حاجة لاستغنائه عن الغير بالذات، وإنَّما هو قرض رباح يعود ربحه إلى العبد، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المُزّمل: ٢٠].

ثمَّ إنَّ المال هو مال الله تعالى أودعه عند خلقه، ومع ذلك فإنَّه عندما يطلبه منهم، فهو من باب استرداد ماله.

القرض الحسن:

قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].

عبَّرت الآية المباركة عن قرض الله تعالى بـ«القرض الحسن» وذلك لأنَّه قرض شرعي، خالصاً لله تعالى، وخالصاً من الرياء والمنّ، كما أنَّه حسن لأنَّه قرض لا خسارة فيه، فالمال لا يضيع، بل إنَّه يُضاعف أضعافاً مضاعفة كما قال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المُزّمل: ٢٠].

وفي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «إنِّي جعلت الدُّنيا بين عبادي قرضاً، فمن أقرضني منها قرضاً، أعطيته بكلِّ واحدةٍ عشراً إلى

سبعمائة ضعفٍ وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً، فأخذت منه شيئاً قسراً، أعطيته ثلاث خصالٍ، لو أعطيت واحدةً منهنَّ ملائكتي لرضوا بها منِّي»(١).

جاء في التفسير أنَّه لمَّا نزلت الآية ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] الآية، كان رجل من الصحابة اسمه أبو الدَّحداح، جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنَّ الله تعالى يستقرض منَّا وهو غنيٌّ عنَّا؟ فقال ﷺ: بلى، حتى يدخلكم الجنَّة.

فقال: يا رسول الله، إن أقرضت الله تعالى، فهل تضمن لي الجنَّة؟ فقال ﷺ: نعم، منْ تصدَّق بشيء فله مثله في الجنَّة.

فقال: يا رسول الله، وأهلي ـ أُمّ الدَّحداح ـ معي؟ قال ﷺ: نعم.

قال: وهذه بنتي دحداحة معي؟ قال ﷺ: نعم.

قال: فاعطني يدك، فوضع رسول الله ﷺ يده في يده، فقال: يا رسول الله، إنَّ لي حديقتين: إحداهما فوق المدينة، والأُخرى في أسفلها، ما لي غيرهما قد أقرضتهما الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: لا، اقرض واحدة، واطلق الأخرى تكون عيشة لك ولعيالك.

فقال: يا رسول الله، لما قلت هذا، فاشهد بأنَّ أحسن الحديقتين لله تعالى، وهي حائط فيها ستّون نخيلة، فقال رسول الله ﷺ: إذاً يجزيك الله الجنَّة.

---

(١) كلمة الله: ص١٩٧.

فأتى أبو الدّحداح إلى أهله وولده، وهم في الحديقة يطوفون حول الأشجار ويعملون عملاً، فنادى وأنشأ يقول:

هداك ربّي سبيل الرَّشاد إلى سبيل الخير والسَّداد
يبني من الحائط لي بالزَّاد فقد مضى فرضاً إلى التَّناد
أقرضته اللَّه على اعتمادي بالطّوع لا منٌّ ولا انداد
إلاَّ رجاء الضَّعف في المعاد فارتحلي بالنَّفس والأولاد
والبرّ لا شك فخبر زاد قدَّمه المرء إلى المعاد

فقالت أمّ الدَّحداح: بارك الله لك فيما اشتريت، وأنشأت تقول:

بعلك أدَّى ما لديه ونصح أنَّ لك الخطّ إذا الخطّ وضح
قد منع اللَّه عيالي ومنح بالعجوة السَّوداء والزَّهر البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح طول الليالي وله ما اجترح

وأخذ ما كان في حجور الأولاد وأكمامهم وطرحه، وما كان في أفواههم أخذه وطرحه، وخرجوا ودخلوا حديقة أخرى، وقال الرَّسول ﷺ: كم من عذق ورواح ودار فناح في الجنَّة لأبي الدَّحداح»[١].

استنتاج:

يُستنتج من الآية عدَّة أمور:

أولاً: إنَّ قرض الله تعالى لا يضيع، لأنَّ المال قد تخرجه منك على أمل أن تستعيده، وهو تعالى يطمئن العبد بأنَّه سيرده إليه.

ثانياً: إنَّ قرض المؤمن هو قرض لله تعالى، وفي هذا المعنى

---

(١) المستدرك: ص٢٦٤.

إعزاز للمؤمن، وذلك لأنَّ المقترض عندما يطلب فإنَّما يطلب قرضاً لله تعالى.

ثالثاً: إنَّ المقرض لا يخاف ولا يقلق عندما يقرض المؤمن، بل أنَّه يندفع إلى ذلك بشدة لأنَّه يرى في نفسه أنَّه يقرض الله تعالى.

رابعاً: إنَّ من لم يقرض أخاه المحتاج فقد منع حقّ الله تعالى.

فعن رسول الله ﷺ: «من احتاج إليه أخوه المسلم في قرض وهو يقدر عليه فلم يفعل، حرَّم الله عليه ريح الجنَّة»[(١)].

بين القرض والصدقة:

عن رسول الله ﷺ: «الصدقة بعشرة، والقرض بثماني عشرة، وصلة الأخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربع وعشرين»[(٢)].

والسِّرّ في ذلك: إنَّ الصدقة ربَّما تُعطى لغير المحتاج، أو ربَّما اعتمد عليها البعض فترك العمل مع التمكُّن منه، بينما القرض لا يقدم عليه إلاَّ المحتاج، وهو ينشّط دولاب العمل، فكم من مقترض أشرف على الإفلاس وبالقرض عاد إلى العمل، وصار غنيّاً.

كما أنَّ المتصدق يُعطي ولا تتعلق نفسه بالمال، أما الذي يقدّم القرض فنفسه متعلقة به وكلَّما صبر عليه نال حسنات وكلَّما أمهل المقترض فله أجر أكبر، ومن هنا ورد ثواب انتظار المعسر.

فعن الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «يُبعث يوم القيامة قوم تحت ظلِّ العرش، ووجوههم من نور، ورياشهم من نور، جلوس على

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٩.

(٢) النوادر: ص٦.

كراسي من نور، فتشرف لهم الخلائق فيقولون: هؤلاء الأنبياء، فينادي منادٍ من تحت العرش: إنَّ ليس هؤلاء بأنبياء، فيقولون: هؤلاء شهداء، فينادي منادٍ من تحت العرش: ليس هؤلاء بشهداء، ولكن هؤلاء كانوا ييسرون على المؤمنين وينظرون المعسر حتى ييسر»[١].

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: إنَّ أبا لبابة بن عبد المنذر جاء يتقاضى أبا اليسر ديناً له عليه، قال: فسمعته يقول: قولوا له ليس هنا، فصاح أبو لبابة: يا أبا اليسر اخرج إليَّ، فخرج إليه، فقال: ما حملت على هذا؟

قال: العسر يا أبا لبابة. قال: الله. قال: الله.

فقال أبو لبابة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أحبّ أن يستظل من فور جهنم؟

فقلنا: كلّنا نحب ذلك.

قال: فلينظر غريماً أو ليدع لمعسر»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد أن يظلّه الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه، فلينظر معسراً، أو ليدع له من حقّه»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «من سرَّه أن يقيه الله من نفحات جهنم فلينظر معسراً أو ليدع له من حقّه»[٤].

---

(١) ثواب الأعمال: ص١٤٥.
(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ص٥١.
(٣) تفسير العياشي: ج١، ص١٥٣.
(٤) المصدر: ج١، ص١٥٤.

وصعد رسول الله ﷺ المنبر ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على أنبيائه عليهم السلام، ثم قال: «أيُّها الناس ليبلغ الشاهد منكم الغائب: من أنظر معسراً كان له على الله عزَّ وجلَّ في كلِّ يوم ثواب صدقة بمثل ماله حتى يستوفيه»[١].

ملاحظة مهمة:

ينبغي للمؤمن الذي يستقرض مالاً أن يراعي حال المقرض فيردّه إليه عند الاستطاعة، وإلا فعل حراماً لأنَّه يحبس حق المؤمن، فإنَّ من الأخلاق الوفاء والشكر لمن يساعده في محنته، وهو يقتضي عدم المماطلة، ومن هنا جاء التهديد لمن يحبس الحقوق.

فعن الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كل ذنب يكفّره القتل في سبيل الله إلاَّ الديْن لا كفَّارة له إلاَّ أداؤه، أو يقضي صاحبه، أو يعفو الذي له الحق»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «لا تزال نفس المؤمن معلَّقة ما كان عليه الدين»[٣].

وفي الحديث: «يؤتى بصاحب الدين يشكو الوحشة، فإن كانت له حسنات أخذت منه لصاحب الدين، وإن لم يكن له حسنات ألقي عليه من سيِّئات صاحب الدين»[٤].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٣٢.
(٢) علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٨.
(٣) المصدر: ج٢، ص٥٢٨.
(٤) ثواب الأعمال وعقابها.

وقال عليه السلام: «كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مات رجل وعليه ديناران، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله فأبى أن يصلِّي عليه، وإنَّما فعل ذلك لكيلا يجرؤا على الدين»[١].

❋ ❋

(١) علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٨.

الصدقة تقع بيد الله تعالى

عن الإمام الصادق عليه السلام: إنَّ الله يقول:

«ما من شيءٍ إلاَّ وقد وكَّلتُ به من يقبضه غيري، إلاَّ الصدقة فإنِّي أتلقَّفها بيدي تلقُّفاً، حتَّى إنَّ الرَّجل ليتصدَّق بالتَّمرة أو بشقِّ تمرةٍ فأُربيها له كما يربِّي أحدكم فلوه وفصيله فيلقاني يوم القيامة وهو مثل جبل أُحدٍ وأعظم من أُحدٍ»[١].



ما هي الصدقة؟

الصدقة هي «كل ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة»[٢].

وهي على نحوين:

الأول: الصدقة الواجبة وهي ما يُعرف بـ«الزكاة» و«الخمس».

(١) كلمة الله: ص١٩٦.

(٢) مواهب الرحمن: ج٤، ص٣٧٨.

والثاني: الصدقة المستحبة، وهي ما يخرجه الإنسان من تلقاء نفسه بدافع القربة إلى الله تعالى.

وعلى كلِّ حال، فكل إخراج للمال هو «صدقة» بل يُستفاد من الروايات الشريفة أنَّ الصدقة تشمل كل عمل يترتب عليه قضاء حوائج النَّاس سواء أكان في المجال الاقتصادي أم الاجتماعي أو الصحي أو التربوي، كالعفو عن الحق المالي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النِّساء: ٩٢].

ومنه ما ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من أنظر معسراً كان له على الله عزَّ وجلَّ في كل يوم ثواب صدقة بمثل ماله حتَّى يستوفيه»[١].

ومنه يُعلم أنَّ الصدقة لا تعني العمل فقط بل قد تعني بالقول، فالكلمة الطيِّبة صدقة والإصلاح بين النَّاس صدقة.

فعن النَّبي ﷺ، أنَّه قال: «إنَّ على كلّ مسلم في كلّ يوم صدقة، قيل: من يطيق ذلك؟ قال ﷺ: إماطتك الأذى عن الطَّريق صدقة، وإرشادك الضَّال إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة، وردّك السَّلام صدقة»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّدقة شيء عجيب، فقال أبو ذر الغفاري: يا رسول الله، فأيُّ الصَّدقات أفضل؟ قال: أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها، قال: فإن لم يكن له مال؟ قال: عفو طعامك، قال: يا رسول الله، فمن لم يكن له عفو طعام؟ قال: فضل رأي ترشد به صاحبك، قال: فإن لم يكن له رأي؟ قال: فضل

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٣٢.

(٢) المستدرك: ج٧، ص٢٤٢.

قوَّة تعين بها على ضعيف، قال: فإن لم يستطع؟ قال: الصَّنيع لأجر وأن تعين مغلوباً، قال: يا رسول الله، فإن لم يفعل؟ قال: فينحِّي عن طريق المسلمين ما يؤذيهم، قال: يا رسول الله، فإن لم يفعل؟ قال: تكفُّ أذاك عن النَّاس، فإنَّها صدقة تطهِّر بها عن نفسك»[١].

وعن سعيد بن جبير، قال: حدَّثني ابن عبَّاس: أنَّ النبي ﷺ، قال: «من مشى إلى أخيه بدين ليقضيه إيَّاه فله به صدقة، ومن أعان على حمل دابَّة فله به صدقة، ومن أماط أذى فله به صدقة، ومن هدى زقاقاً فله به صدقة، وكلّ معروف صدقة»[٢].

وعن عطا قال: قال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «هل صمت اليوم؟ قال: لا يا رسول الله، فتصدَّقت اليوم بشيء؟ قال: لا، قال: فاذهب واصب من امرأتك فإنَّه منك عليها صدقة»[٣].

الحث على الصدقة:

حثَّت الشريعة الإسلامية على الصدقة بشكل لافت حتى ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «والصدقة شيء عجيب، شيء عجيب، شيء عجيب»[٤].

حتَّى أنَّه ﷺ أوصى الإمام علي عليه السلام بالصدقة قائلاً: «أمَّا الصدقة فجهدك حتَّى تقول قد أسرفت، ولم تسرف»[٥].

---

(١) المستدرك: ج٧ ص٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٦٤.

(٤) المستدرك: ج٧، ص١٦٢.

(٥) روضة الكافي: ص٧٩.

يقول السيِّد الخميني قدِّس سرُّه: «وهي من المستحبات الَّتي قلَّ أن يبلغ مثوبتها في الأجر والثواب عمل آخر»[1].

قبول الصدقة:

ويكفي في ذلك ما ورد في الحديث القدسي الذي ذكرناه في أول الموضوع، ومعناه إنَّ الله تعالى هو الذي يقبض الصدقة بل إنَّه يتلقفها، والتلقّف يكون مسبوقاً بالعلم والانتظار بل وبالتشويق وعناية الاستلام للصدقة، لا مجرد مرورها على اليد أو وقوعها فيها، ويكون التلقّف كناية عن حبّ الله تعالى لنفس التصدق ولفاعله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وهو استفهام استنكاري بداعي تشويق الناس إلى الصدقة، وذلك لأنَّهم عندما يعطون الصدقة للفقير فإنَّهم يعطونها لله تعالى، فهنا ثلاث أيدي:

١ ـ يد الله تعالى.

٢ ـ يد المتصدق.

٣ ـ يد الفقير.

وهنا يُطرح سؤال: كيف نطلق كلمة اليد على الله تعالى، أليس هذا من التشبيه، وتعالى الله عن ذلك، فإنَّه ليس كمثله شيء؟

الجواب: لما كان الذي يأخذ الصدقة هو النبي ﷺ أو الإمام المعصوم عليه السلام أو الأفراد المستحقون، فإنَّ أخذهم للصدقة يعني تناول

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٤٣٩.

الله تعالى لها، وذلك لما ذكرناه في بعض المواضيع أنَّ المؤمن تصير يده يد الله تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] فعندما يضع المؤمن يده في يد الرسول ليبايعه فإنَّما يضعها في يد الله تعالى.

فظهر ممَّا تقدَّم أنَّ الله تعالى يتلقّف الصدقة، ويقبضها، وإضافة إلى ذلك فإنَّها يقبضها قبل أن تقع في يد الفقير، ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: «ضمنت على ربِّي أنَّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتَّى تقع في يد الرَّبّ، وهو قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]»[١].

استنتاج:

إذا أيقن المؤمن أنَّ الصدقة تقع في يد الله تعالى أولاً فلا بدَّ أن يكون على مستوي عالٍ من استحضار هذا المعنى والشعور به، وهذا ما يستوجب الالتفات إلى الآداب التالية:

أولاً: أن يعطي أفضل ما عنده.

ففي رواية أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كانت تمسك بدرهم يعلوه الصدأ وهي تجلوه، فسألها النبي عن ذلك، فقالت: لأنِّي أُريد أن أتصدق به ولأنِّي أعلم أنَّه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد العبد[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام إنَّه كان يتصدَّق بالسُّكر؛ فقيل له:

---

(١) المستدرك: ج٧ ص١٥٥.

(٢) تفسير القرآن الكريم: للشعراوي.

أتصدَّق بالسُّكر؟ قال: «نعم إنَّه ليس شيء أحبُّ إليَّ منه وأنا أُحب أن أتصدَّق بأحبّ الأشياء إليَّ»[١].

ثانياً: أن يعلم أنَّ الفقير واسطة بينه وبين ربّه، وعلى حدّ تعبير الإمام الباقر عليه السلام: «الفقير هدية الله إلى الغني، فإن قضى حاجته فقد قبل هدية الله، وإن لم يقضِ حاجته فقد ردَّ هدية الله»[٢].

فإذا أيقن بذلك فلا بدَّ أن يحترمه ويتأدب معه، فلا يؤذيه ولا يمنّ عليه، بل المنَّة للفقير لأنَّه واسطة في التحبّب إلى الله تعالى، ولذا كان أئمتنا عليهم السلام يقبِّلون أيديهم احتراماً وتعظيماً للصدقة، أو أنَّهم كانوا يعطونها للفقير ثم يأخذونها ويقبِّلونها ويشمونها ثم يعيدوها إليه، وإليك هذه الروايات:

عن الإمام عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: «إذا ناولتم السَّائل شيئاً فاسألوه أن يدعو لكم ـ إلى أن قال ـ: وليردَّ الَّذي يناوله يده إلى فيه فليقبّلها، فإنَّ الله يأخذها قبل أن تقع في يده، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]»[٣].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: تصدَّقت يوماً بدينار، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: أما علمت أنَّ صدقة المؤمن لا تخرج من يده حتَّى تفكّ بها لحي سبعين شيطاناً، وما تقع في يد السَّائل حتَّى تقع في يد الرَّبّ تبارك وتعالى، ألم تقرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]»[٤].

---

(١) الوسائل: ج٤، ص٣٣٠.
(٢) الإنفاق: ص١٢٧.
(٣) الوسائل: ج٤، ص٣٠٣.
(٤) المصدر نفسه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: «إنَّ الله لم يخلق شيئاً إلاَّ وله خازن يخزنه إلاَّ الصَّدقة فإنَّ الرَّب يليها بنفسه؛ وكان أبي إذا تصدَّق بشيء وضعه في يد السَّائل، ثمَّ ارتجعه منه فقبَّله وشمّه ثمَّ ردَّه في يد السَّائل، وذلك إنَّها تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السَّائل، فأحبب أن أُقبِّلها إذ ولاها الله»(١).

وعن أحدهما عليه السلام قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا أعطى السَّائل قبَّل يد السَّائل، فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال: لأنَّها تقع في يد الله قبل العبد»(٢).

وعن معلى بن خنيس قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشت السماء وهو يريد ظلة بني ساعدة، فاتبعته، فإذا هو قد سقط منه شيء، فقال: بسم الله اللهم رده علينا، قال: فأتيته فسلَّمت عليه، فقال: معلى؟ قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لي: التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إليَّ، قال: فإذا أنا بخبز متنثر فجعلت أدفع إليه ما وجدت، فإذا أنا بجراب من خبز، فقلت: جعلت فداك أحمله عليَّ، فقال: لا أنا أولى به منك، ولكن امض معي.

قال: فأتينا ظلة بني ساعدة فإذا نحن بقوم نيام فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين تحت ثوب كل واحد منهم، حتى أتى على آخره ثم انصرفنا.

فقلت: جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق؟

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

فقال عليه السلام: لو عرفوا لواسيناهم بالدقة و«الدقة هي الملح»، إنَّ الله لم يخلق شيئاً إلاَّ وله خازن يخزنه إلاَّ الصدقة، فإنَّ الرَّب تبارك وتعالى يليها بنفسه، وكان أبي إذا تصدَّق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتده منه فقبَّله وشمَّه ثم ردَّه في يد السائل، وذلك أنَّها تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، فأحببت أن أناول ما وليها الله تعالى أنَّ إذا ناولها الله وليها، إنَّ صدقة اللَّيل تطفىء غضب الرَّب، وتمحو الذنب العظيم، وتهون الحساب، وصدقة النهار تثمر المال، وتزيد في العمر، إنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام لما أن مرَّ على شاطىء البحر ألقى بقرص من قوته في الماء، فقال له بعض الحواريين: يا روح الله وكلمته لم فعلت هذا، فإنَّما هو من قوتك؟

قال: فعلت هذا لتأكله دابة من دواب الماء وثوابه عند الله عظيم»[1].

يقول السيِّد الخميني رحمه الله: «إنَّ الإنسان عندما يتصدَّق بيده إذا منَّ على الفقير أو أساء إليه (والعياذ بالله) كانت منَّته وإساءته أولاً إلى الله تعالى وثانياً إلى الفقير، كما أنَّه إذا خشع وتواضع وأبدى منتهى الذل والمسكنة لدى تقديم الصدقة إلى السائل المؤمن كان خضوعه وذله وخشوعه لله أولاً ثمَّ للفقير المؤمن ثانياً، كما رأينا بأنَّ عالم آل محمَّد صلى الله عليه وآله وعاشق جمال الحق المتعالي الإمام الباقر عليه السلام «إذا تصدَّق بشيء وضعه في يد السائل ثمَّ ارتدَّه منه فقبَّله وشمَّه ثمَّ ردَّه في يد السائل».

والله سبحانه يعلم بأنَّ مثل هذه المغازلة مع المعشوق جلَّ وعلا

---

(١) معاجز الصدقة: ص٢٦.

إلى أي حد كانت تبعث على قرار نفس العاشق المجذوب وراحة أعماق الإمام المقدَّسة، وكانت تسبِّب إخماد ذلك اللهب والضرام المتأجج في صدره صلوات الله وسلامه عليه»[١].

ثالثاً: أن يعلم أنَّه في أثناء هذه المعاملة تتنزل الرحمة على المُعطي والسائل، فلا بدَّ من اغتنامها بطلب الدُّعاء من السائل، فإنَّ دعاءه مستجاب.

عن أبي الحسن عليه السلام قال: «لا تحقّروا دعوة أحد، فإنَّه يُستجاب لليهود والنَّصرانيّ فيكم، ولا يُستجاب لهم في أنفسهم»[٢].

عن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام: «ما من رجل تصدَّق على مسكين مستضعف فدعا له المسكين بشيء تلك السَّاعة إلاَّ استجيب له»[٣].

وعنه عليه السلام أنَّه كان يقول للخادم: «امسكي قليلاً حتَّى يدعو».

وكان عليه السلام يأمر الخادم أنَّه إذا أعطيت السَّائل أن تأمره أن يدعو بالخير.

عن بريد العجلي، عن أبيه، قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقلت له: جعلت فداك، قد كان الحال حسنة، وإنَّ الأشياء اليوم متغيِّرة، فقال: «إذا قدمت الكوفة فاطلب عشرة دراهم، فإن لم تصبها فبع وسادة من وسائدك بعشرة دراهم، ثمَّ ادع عشرة من أصحابك واصنع لهم طعاماً، فإذا أكلوا فاسألهم فيدعوا الله لك».

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٤٤٠.

(٢) الوسائل: ص٢٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٩٦.

قال: فقدمت الكوفة فطلبت عشرة دراهم فلم أقدر عليها، حتَّى بعت وسادة لي بعشرة دراهم كما قال، وجعلت لهم طعاماً، ودعوت أصحابي عشرة، فلمَّا أكلوا سألتهم أن يدعوا الله لي، فما مكثت حتَّى مالت إليَّ الدُّنيا»[١].

❁ ❁

(١) المستدرك: ج٧، ص٢٠٧.

إنصاف الله تعالى

عن النبي محمَّد ﷺ: ما من يوم يمر إلا والباري عزَّ وجلَّ ينادي:

«عبدي! ما أنصفتني، أذكرك وتنسى ذكري، وأدعوك إلى عبادتي وتذهب إلى غيري، وأرزقك من خزائني، وآمرك لتتصدَّق لوجهي فلا تطيعني، وأفتح عليك أبواب الرِّزق وأستقرضُك من مالي فتجبهني، وأُذهب عنك البلاء، وأنت معتكفٌ على فعل الخطايا، يابن آدم! ما يكون جوابك لي غداً إذا أجبتني؟»[١].



ميزان الحياة:

الإنصاف هو ميزان الحياة، فهو قرين العدل والقسط، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان التفضُّل»[٢].

---

(١) كلمة الله: ص٣٢٥.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الإنصاف».

وهو مطلوب في كافة الأمور، فهناك إنصاف في المدح والذم، وإنصاف في الحكم على الآخرين، وإنصاف في والأخذ والعطاء، والحب والبغض...

وهو من الأمور التي قلَّما يلتفت إليها الناس، فتراهم يفرّطون ويتطرفون في الحب أو البغض، أو الحكم على غيرهم... كما ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «قلَّما ينصف اللِّسان في نشر قبيح أو إحسان»[(١)].

إلا أنَّ المؤمن يدرك أنَّ إيمانه يُلزِمه بأن يكون منصفاً تجاه كل الناس، وبكافة الأمور، بدأً من نفسه ومن حوله.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من واسى الفقير وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً»[(٢)].

فالمؤمن يعلم أنَّ إيمانه يمنعه من التطرف في الحكم على الآخرين حتى ولو كانوا من أعدائه، فكيف لو كانوا من أهل دينه وقرابته؟!

فعن الإمام علي عليه السلام: «أنصف الناس من نفسك وأهلك وخاصتك ومن لك فيه هوى، واعدل في العدو والصديق»[(٣)].

إنصاف الله تعالى:

إذا كان الإنصاف مطلوباً مع العدو والصديق، فكيف بذلك مع ربّ العالمين؟

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

أليس من الأولى أن ننصف الله تعالى في تعاملنا معه؟ إنَّه يتحبَّب إلينا بالنعم، فنعارضه بالذُّنوب، إنَّه ينزل إلينا خيره، ونصِعد إليه شرنا، إنَّه تعالى يدعونا فنولِّي عنه، إنَّه تعالى يرزقنا فنبخل ونحرص، ولنستمع إلى كلام الله وعتابه.

قال الله تعالى: «يابن آدم!ما تنصفُني، أتحبَّب إليك بالنعم وتتمقَّتُ إليَّ بالمعاصي، خيري إليك منزلٌ، وشرُّك إليَّ صاعدٌ، ولا يزال ملكٌ كريمٌ يأتيني عنك - كلَّ يومٍ وليلةٍ - بعملٍ غير صالحٍ.

يابن آدم! لو سمعت وصفك - وأنت لا تدري من الموصوف - لسارعت إلى مقته»[١].

إنَّ هذا الكلام دعوة لنا لننصف ربّنا القوي العزيز، وهو أمر مولانا علي عليه السلام الذي كتب لمالك الأشتر: «انصف الله وانصف الناس من نفسك»[٢].

قصة وعبرة:

قحط بنو إسرائيل سبع سنين، فخرج موسى على نبينا وعليه السلام ليستسقي، ومعه سبعون ألفاً، فأوحى الله إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلت عليهم ذنوبهم وسرائرهم خبثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنوا مكري؟ ارجع إلى عبد من عبادي يُقال له «برخ» ليخرج حتى أستجيب لهم، فلم يعرفه موسى عليه السلام.

فبينَّا هو ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود، بين عينيه تراب من أثر السجود، في شعلة قد عقدها، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله

(١) كلمة الله: ص٣٢٥.

(٢) ميزان الحكمة.

تعالى، فسلَّم عليه وقال له: ما اسمك؟ قال: برخ قال: أنت طلبتنا منذ حين، اخرج استسق لنا، فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ما هذا من حلمك، وما الذي بدا لك، أنقصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفد ما عندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة، وأمرت بالعطف، أم ترينا أنَّك ممنع، أم تخشى الفوت، فتعجل بالعقوبة.

فما برح برخ يقول حتى خاضت بنو إسرائيل في القطر، فلما رجع استقبل موسى عليه السلام وقال: كيف رأيت؟ خاصمت ربِّي، كيف أنصفني؟»[١].

❋ ❋

---

(١) كشكول البهائي: ج٤، ص٣٦.

السياسة الإلهية

في الحديث القدسي:

«أيُّما عبدٍ اطّلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري تولّيت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه»(١).



المقدمة:

تحتل السياسة جانباً كبيراً من حياة الإنسان، فمنذ أقدم العصور عرف الإنسان السياسة ومارسها في حياته ومجتمعه في شتى المجالات والميادين، ولم يعد بوسع أحد من الناس أن يبتعد عن الأوضاع السياسية...

وذلك لأنَّ السياسة حاجة ضرورية لكافة الأفراد والمجتمعات، فكل إنسان بحاجة إلى من يسوسه في حياته الخاصة والعامة، وكل مجتمع بحاجة إلى من يسوسه في قيادته، واقتصاده، وتنظيمه، وتربيته... فعن الإمام علي عليه السلام: «حسن السياسة قوام الرعية»(٢).

(١) عدة الداعي: ص٢٣٥.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «السياسة».

وقبل الدخول في تعيين أهل السياسة لا بدَّ من الوقوف على معناها.

معنى السياسة:

السياسة في اللغة هي «القيام على الشيء بما يصلحه سواء كان آدمياً أم حيوانياً» ومنه «سائس الخيل» حيث يقوم بترويضها، والعناية بها، وتربيتها.

وفي المصطلح السياسي هي «إدارة شؤون العباد في كافة المجالات الاقتصادية، والأمنية، والعسكرية، والتربوية، والإعلامية، والاجتماعية، والصحية وغير ذلك ممَّا يساهم في تنظيم شؤونهم وأحوالهم».

السياسة الإلهية:

عند الإمعان في معنى السياسة نجد أنَّها تؤدِّي معنى «العناية» و«الرعاية» و«التربية» و«الترويض».

وهذا المعنى لا يجري في الأساس إلا على الله تعالى، فهو الذي يسوس العباد في كلِّ أحوالهم للوصول بهم إلى الكمال في الدُّنيا والآخرة.

فهو تعالى الذي يسوس الناس في طعامهم وشرابهم وزواجهم وحياتهم ومماتهم، فيعزّ ويذلّ، ويحيي ويميت، ويفقر ويُغني، وذلك لأنَّه الأعلم بما يصلح أحوالهم، ففي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «إنَّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاَّ بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن

فيصلح عليه أمر دينهم، وإنَّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاَّ بالفاقة والمسكنة والسُّقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسُّقم فيصلح عليه أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين»[١].

وفي حديث آخر: «وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إلاَّ الغنى، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إلاَّ الفقر، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك»[٢].

وهو تعالى الذي يروّض العباد على الطاعة والانقياد إليه من خلال ضربهم بالبلاء والمصائب، ففي الحديث القدسي، قال الله تعالى: «وعزَّتي وجلالي، لا أُخرج عبداً من عبادي من الدُّنيا، وأنا أُريد أن أرحمه حتَّى أستوفي منه كلَّ خطيئةٍ عملها: إمَّا بسقمٍ في جسده وإمَّا بخوفٍ في دُنياه، فإن بقيت عليه بقيَّةٌ شدَّدتُ عليه الموتَ»[٣].

كما يروضهم على العبودية والتذلل من خلال الصلاة، والدُّعاء والذِّكر. . .

فإذا استجاب العبد لأوامر الله تعالى وصار الغالب عليه ذكر الله تعالى بحيث استوعب الذكر كل حياته، فإنَّه تعالى يتولَّى سياسته حتى يوصله إلى المقامات العالية، وهذا هو معنى «الولاية الإلهيَّة» و«الاصطناع الإلهي» كما يظهر ذلك جلياً في قصة موسى ﷺ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

---

(١) كلمة الله: ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٧٤.

سياسة النبي والأئمة عليهم السلام:

إنَّ الله تعالى برحمته قد جعل بين الناس ما يسوسهم نحو الخير والصلاح وهو ما تمثل بـ:

١ ـ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

٢ ـ الدِّين الإسلامي.

٣ ـ النبي والأئمة عليهم السلام، ففي الحديث: «... ثم فوَّض إلى النبي صلى الله عليه وآله أمر الدِّين والأُمَّة ليسوس عباده»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان مُسدّداً موفّقاً مؤيّداً بروح القدس، لا يزلّ ولا يخطىء في شيء ممَّا يسوس به الخلق»[٢].

وفي الزيارة الجامعة: «أنتم ساسة العباد».

ففي الإسلام والقرآن والنبي وآله عليهم السلام السياسة العادلة التي تقود العالم نحو الصلاح والكمال كما يظهر ذلك في النصوص الدينية وفي حياة المعصومين عليهم السلام، ومن أراد الوقوف ذلك فليراجع كتاب «النظام السياسي في الإسلام».

وأما من ترك اتباع السياسة العادلة واستبدلها بسياسة أخرى فهو إلى هلاك، فإنَّ البديل على السياسة العادلة هي سياسة الطواغيت

---

(١) السياسة: ص١٨.

(٢) رسالة القرآن: عدد ١٤، ص٩٧.

والظالمين، وهي سياسة قائمة على الظلم، والقتل، والفقر، كما يظهر ذلك من تاريخ الحكَّام الظلمة.

حديث مهم في السياسة المفروضة على كل إنسان:

سُئل الإمام الحسن عليه السلام عن السياسة فقال: «هي أن تراعي حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات.

فأما حقوق الله فأداء ما طلب والاجتناب عمَّا نهى.

وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أُمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأُمَّته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي.

وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم، فإنَّ لهم ربّاً يحاسبهم»(١).

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج١، ص٣٥١.



الحجب بين العبد والرَّبّ

في الحديث القدسي قال الله تعالى لداود عليه السلام:

«قل لعبادي المتوجّهين إليَّ بمحبتي ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي، إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليَّ بعيون قلوبكم»[١].

❁ ❁ ❁

إطلالة على الحديث:

إنَّنا من خلال هذا الحديث نريد أن نتعرف على الأشياء التي تحجب العبد عن الله تعالى، وذلك لأنَّنا نرى بالوجدان أن المؤمن ينقلب من حال إلى حال كما قيل: «المنافق يعيش أربعين سنة بحال واحد، أما المؤمن فيتنقل في اليوم الواحد أربعين حالاً».

فهو يشعر أحياناً بالحماس تجاه النوافل والمستحبات، وأحياناً يحدث لديه فتور وكسل، وإذا قام ببعض الأعمال يجد أنَّها تؤدِّي إلى

(١) ميزان الحكمة: مادة «اللقاء».

بُعد عن ربّه، فمثلاً: رجل كان يدخل إلى عالم الانترنت فإذا به يهمل صلاته ويسرقها، حتى إذا تخلَّص منه عاد إلى حالته السابقة.

من هنا نريد أن نتعرف عن الأمور التي تبعدنا عن الله تعالى وتحجبنا عنه... وبداية:

هل يوجد حجاب بين العبد وربّه؟

إنَّ الروايات الشريفة تشير إلى أنَّه لا حجاب بين العبد والله تعالى، فهو تعالى مع الإنسان أينما كان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو القريب، الباطن.

عن الحارث الأعور عن الإمام عليّ عليه السلام: أنَّه دخل السوق، فإذا هو برجلٍ موليه ظهره يقول: لا والَّذي احتجب بالسَّبع، فضرب علي عليه السلام ظهره، ثمَّ قال: من الَّذي احتجب بالسَّبع؟

قال: الله يا أمير المؤمنين.

قال: «أخطأت ثكلتك أُمُّك! إنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بينه وبين خلقه حجابٌ؛ لأنَّه معهم أينما كانوا».

قال: ما كفَّارة ما قلت يا أمير المؤمنين؟

قال: «أن تعلم أنَّ الله معك حيث كنت»[1].

وعن ابن أبي العوجاء: قلت له [أي الإمام الصادق عليه السلام]: ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرُّسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟

---

(١) موسوعة العقائد: ج٣، ص٣٣٥.

فقال لي: «ويلك! وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك؛ نشوءك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوَّتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوَّتك، وسقمك بعد صحَّتك وصحَّتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبَّك بعد بُغضك، وبُغضك بعد حبَّك، وعزمك بعد أناتك وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءك بعد يأسك ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعُزوب ما أنت معتقده عن ذهنك، وما زال يعدِّد عليَّ قدرته الَّتي هي في نفسي الَّتي لا أدفعها حتَّى ظننت أنَّه سيظهر فيما بيني وبينه»[1].

سبب الحجاب:

وإذا لم يوجد حجاب بين العبد وربّه، فلماذا حصل هذا البعد والحجاب؟

الجواب:

إنَّ سبب الحجاب هو:

١ ـ **القرب الشديد**، ففي الفلسفة يُقال: «شدة القرب حجاب» بمعنى أنَّ الإنسان إذا اقترب من الشيء قرباً شديداً حصل بينه وبينه حجاب، مثال ذلك: صديقان أحدهما مسافر، فيشتاق الآخر إليه ويراسله ويتصل به حتى إذا عاد إلى منزله وجاوره، قلَّ التواصل لركون النفس والاطمئنان عليه، فصار القرب بُعد وحجاب.

---

(١) الكافي: ج١، ص٧٥، ح٢.

إنَّ الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ولذلك لا يلتفت البعض إليه.

٢ ـ **أعمال العباد**، ففي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنَّك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك».

أقسام الحجب:

وهذه الحُجب على نحوين:

١ ـ **الحُجُب النُّورانيَّة**، وهي الأمور العبادية التي تكوّن حجاباً للعبد فمثلاً: العلم هو نور إلاَّ أنَّ الإنسان إذا علم بدون عمل فإنَّه يبتعد عن الله تعالى.

ففي مناجاة الإمام علي عليه السلام: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتَّى تخرق أبصار القلوب حُجب النُّور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلَّقةً بعزِّ قُدسك».

٢ ـ **الحُجب الظلمانية**، وهي المعاصي والذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطفِّفين: ١٤-١٥].

فعن الإمام الرضا عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم»[١].

وهذه الحُجب الظلمانية هي:

أ ـ **الكفر والشرك**، كأن يعتقد أموراً مخالفة للدين كالتثليث أو

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «المعرفة».

الجبر أو التشبيه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٣].

ب ـ **الجهل**، وهو من الحُجب الغليظة، فإنَّ الإنسان يعادي ويستهين بمن يجهل.

ج ـ **فعل المعاصي الكبيرة والصغيرة**.

د ـ **الغفلة**، فمن دعاء الإمام علي عليه السلام: «... هتكت بينك وبينهم حُجب الغفلة فسكنوا في نورك وتنفسوا بروحك»[(١)].

هـ ـ **هوى النفس**، ففقد نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام: «لا حِجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله من النَّفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاحٌ، مثل الافتقار إلى الله، والخشوع والخضوع والجوع والظمأ بالنَّهار والسَّهر باللَّيل؛ فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أدَّى عاقبته إلى الرِّضوان الأكبر»[(٢)].

و ـ **الانشغال بالدُّنيا والمباحات**، وخصوصاً منها التملىء من الطعام والشراب.

كيف ترتفع الحُجب؟

إنَّ ارتفاع الحُجب بحاجة إلى عزم وإرادة وعمل بجدّ حتى الوصول إلى مرحلة خرق الحُجب وانكشافها، وهذا الأمر يتطلب إزالة الأسباب الموجدة للحُجب ثم العمل على تصفية القلوب كي تنعكس

---

(١) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٣، ص٣٥٥.

(٢) مصباح الشريعة: ص٤٤٢، بحار الأنوار: ج٧٠، ص٦٩، ح١٥.

فيها الأنوار الإلهية، فمثل القلوب كالمرآة التي نالها الغبار والصدأ، ففي بداية الأمر يلزم:

الاستغفار لأنَّه يزيل آثار الأعمال السيِّئة، ثم الاقتداء بالأشخاص القريبين إلى الله تعالى، فهم الأعرف بكيفية هداية العبد إلى الله تعالى.

فعن الإمام علي الرِّضا عليه السلام: «من سرَّه أن ينظر إلى الله بغير حجاب وينظر إليه بغير حجاب فليتولَّ آل محمد وليتبرأ من عدوهم»[١].

آثار إزالة الحُجب:

إذا ارتفعت الحُجب بين العبد وربّه فإنَّه يصير خليفة لله تعالى، وتتحقق فيه الأسماء الحسنى، ويُؤهّل لأن ينظر إلى الأنوار الإلهية والنفحات القدسية.

ففي مناجاة الإمام علي عليه السلام يقول: «وانر ابصر قلوبنا بضياء نظرك إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النُّور فتصير معلقة بعزّ قدسك».

وأما من لم ترتفع الحُجب لديه في الدُّنيا فإنَّ سيُحجب عن ثواب الله ورضوانه في الآخرة.

فعن الإمام الرِّضا عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله تعالى لا يُوصف بمكان يحلّ فيه فيحجب عنه فيه عباده، ولكنَّه يعني أنَّهم عن ثواب ربهم محجوبون»[٢].

---

(١) موسوعة العقائد: ج٣، ص٣٧٥.
(٢) الفرقان: ج٣٠، ص٢٢١.

قال الشيخ الصادقي في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]: «كما حجبوا أنفسهم يوم الدُّنيا عن البينات كذلك يحجبهم عن ربوبيته المتمثلة في رحماته يوم الدِّين... محجوبون عن ربهم لا عن الله،... هؤلاء هم الفجار، وأما المؤمنون فغير محجوبين عن ربهم فـ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]»[١].

❖ ❖

(١) المصدر نفسه: ص٢٢٠.



المباهاة الإلهية

عن رسول الله ﷺ: إذا قام العبد من لذيذ مضجعه والنعاس في عينه ليرضي ربّه بصلاة ليله باهى الله به الملائكة وقال:

«أما ترون عبدي هذا قد قام من لذيذ مضجعه لصلاة لم أفرضها عليه اشهدوا أنّي قد غفرت له»[1].

❁ ❁ ❁

المباهاة:

هي المفاخرة، والتباهي هو التفاخر، وهي حالة يعيشها الناس فيما بينهم، ليشعروا بالعظمة والعزة والترفع، فبعضهم يتباهى بأولاده، وبعضهم يتباهى بأمواله، وبعضهم يتباهى بأنَّ فلان يعرفه ويحبّه...

وأما أهل الإيمان فيتفاخرون بإيمانهم ودينهم وتقواهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

مباهاة الله تعالى بعباده:

يستطيع المؤمن أن يصل إلى درجة يكون ممَّن يباهي الله تعالى به بين ملائكته، ومعنى المباهاة «إنَّه تعالى يحلّه من قربه وكرامته بين

---

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص٢٧٧.

الملائكة محلّ الشيء المباهي به، وذلك لأنَّ الله غني عن التعزّز بما اخترعه ثم تعبده، ولأنَّ المباهاة موضوعة للمخلوقين فيما يترفعون به على أكفائهم، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك، فهو من باب المجاز»[1].

ومن تلك المباهاة ما رُوي في قصة الإمام علي عليه السلام حيث بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة فباهى الله تعالى به الملائكة.

ومنها مباهاة الله تعالى بالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال عن السيِّدة فاطمة عليها السلام: «... متى قامت في محرابها بين يدي ربِّها جلَّ جلاَله زهر نورها لملائكة السَّماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عزَّ وجلَّ لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيِّدة إمائي قائمة بين يديَّ، ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أُشهدكم أنِّي قد آمنت شيعتها من النَّار»[2].

أسباب المباهاة:

١ ـ المباهاة بالصلاة والتذلل لله تعالى:

وفي الخبر: «لما كلَّم الله عزَّ وجلَّ موسى بن عمران عليه السلام، قال موسى: إلهي، ما جزاء من شهد أنِّي رسولك ونبيك، وأنَّك كلمتني؟ قال: يا موسى، تأتيه ملائكتي فتبشره بجنَّتي. قال موسى عليه السلام: إلهي، فما جزاء من قام بين يديك يصلِّي؟ قال: يا موسى، أُباهي به ملائكتي راكعاً وساجداً، وقائماً وقاعداً، ومن باهيت به ملائكتي لم أعذبه»[3].

وعن القمي في حديث ابن عمر أنَّه نظر النبي إلى علي وهو يعمل

---

(١) مجمع البحرين: مادة «بها».
(٢) كيف تصلي بخشوع: ص١٦٦.
(٣) الأمالي للصدوق: ص٢٧٦.

في الأرض وقد أغبر فقال: «ما ألوم الناس في أن يكنوك أبا تراب فتمعر وجه علي فأخذ بيده وقال: أنت أخي ووزيري وخليفتي في أهلي وقال الحسن بن علي عليه السلام: وسئل عن ذلك فقال: إنَّ الله يباهي بمن يصنع كصنيعك الملائكة والبقاع تشهد له قال: فكان عليه السلام يعفّر خديه ويطلب الغريب من البقاع لتشهد له يوم القيامة فكان إذا رآه والتراب في وجهه يقول: «يا أبا تراب افعل كذا ويخاطبه بما يريد»[١].

وعن إسحاق بن عمار قال: لقيت أبا عبد الله عليه السلام بالقادسية عند قدومه على أبي العباس، فأقبل حتى انتهينا إلى طراناباد (طراناباد: كذا والصواب طيزناباد: موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادة الحاج، وبينها وبين القادسية ميل وفيها مزارع...)[٢] فإذا نحن برجل على ساقية يصلي، وذلك ارتفاع النهار، فوقف عليه أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا عبد الله، أي شيء تصلي؟ فقال: صلاة الليل فاتتني أقضيها بالنهار، فقال: يا معتب، حط رحلك حتى نتغدى مع الذي يقضي صلاة الليل، فقلت: جعلت فداك، تروي فيه شيئاً؟ فقال: حدثني أبي عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله يباهي بالعبد يقضي صلاة الليل بالنهار، يقول: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي كيف يقضي ما لم افترضه عليه! أشهدكم أنِّي قد غفرت له»[٣].

٢ ـ المباهاة بأهل الحج وعرفة:

عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله يباهي بالطائفين»[٤].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) معجم البلدان: ج٤، ص٥٤.

(٣) وسائل الشيعة: جط، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٤) الحج والعمرة في الكتاب والسُّنَّة: ص١٨٩.

وعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، لما حجَّ حجَّة الوداع وقف بعرفة فأقبل على الناس بوجهه وقال: مرحباً بوفد الله - ثلاث مرات - الذين إن سألوا أعطوا، وتخلف نفقاتهم، ويجعل لهم في الآخرة بكل درهم ألف من الحسنات، ثم قال: يا أيُّها الناس ألا أبشركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إنَّه إذا كانت هذه العشية باهى الله بأهل هذا الموقف الملائكة، فيقول: [يا ملائكتي] انظروا إلى عبيدي وإمائي أتوني من أطراف الأرض، شعثاً غبراً، هل تعلمون ما يسألون؟ فيقولون: ربّنا يسألونك المغفرة، فيقول، أشهد كأنّي قد غفرت لهم، فانصرفوا من موقفكم مغفوراً لكم ما سلف»(١).

٣ - المباهاة بالموالين لآل محمد عليهم السلام:

عن معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول لداود بن سرحان: «يا داود أبلغ موالي عنِّي السلام، وأنِّي أقول: رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا فإنَّ ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاَّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر فإنَّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا»(٢).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله إنَّ الله يباهي بزائر الحسين والوافد إليه الملائكة المقرَّبين وحملة عرشه فيقول لهم: أما ترون زوَّار قبر الحسين عليه السلام أتوه شوقاً إليه وإلى فاطمة؟! وعزَّتي وجلالي وعظمتي لأوجبنَّ لهم كرامتي، ولأحبنهم لمحبتي»(٣).

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، ص٣٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٤٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج٤، ص٤٩٧.

٤ ـ المباهاة بالحب في الله تعالى:

عن رسول الله ﷺ: «احتمل ممَّن هو أكبر منك، وممَّن هو أصغر منك، وممَّن هو خير منك، وممَّن هو شر، وممَّن هو فوقك، وممَّن هو دونك، فإن كنت كذلك، باهى الله بك الملائكة»(١).

وعن محمد بن صدقة، قال: كنت عند الإمام الرِّضا عليه السلام، إذ وفد عليه قوم من أهل أرمينية، فقال له زعيمهم: إنَّا أتيناك ولا نشكّ في إمامتك، ولا نشرك فيها معك أحداً، وإنَّ عندنا قوم من إخواننا لهم الأموال الكثيرة، فهل لنا أن نحمل زكاة أموالنا إلى فقراء إخواننا؟ ونجعل ذلك صلة بهم وبراً، فغضب حتى تزلزلت الأرض من تحتنا، ولم يكن فينا من يحر جواباً، وأطرق رأسه ملياً وقال: «من حمل إلى أخيه شيئاً يرى أنَّ ذلك الشيء براً له وتفضلاً عليه، عذبه الله عذاباً لا يعذب به أحداً من العالمين، ثم لا ينال رحمته»، فقال زعيمهم ودموعه تجري على خده، كيف ذلك يا سيِّدي فقد أحزنني؟ فقال: «لما علمت أنَّ الله تبارك وتعالى، لم يفرق بينهم في نفس ومال، فمن يفعل ذلك لم يرضى بحكم الله، وردَّ عليه قضاءه، وأشركه في أمره، ومن فعل ما لزمه، باهى الله به ملائكته، وأباحه جنَّته»(٢).

وعن محمد بن صدقة قال: قال لي الإمام الرِّضا عليه السلام: «يا محمد بن صدقة، طوبى لمؤمن مظلوم مغصوب مستضعف، وويل للذي ظلمه وغصبه واستضعفه، إنَّ المؤمن ليظلم المؤمن ويغصبه ويستضعفه، فعند ذلك فليتوقَّع سخط ربّه»، قلت: كيف يا سيدي، قد أحزنني ما ذكرته وأنا أبكي؟ قال: «أما علمت أنَّ الله جلَّ ذكره خلق

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٩٢.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٧، ص١٣٥.

الدُّنيا والآخرة للمؤمنين، فهم فيه شركاء، فمن أعطى شيئاً من حطام الدُّنيا ومنع أخاه منه، كان ممَّن ظلمه وغصبه واستضعفه، ومن فعل ما لزمه من أمر المؤمنين باهى الله تعالى به ملائكته»[١].

٥ ـ المباهاة بأهل الصبر على البلاء:

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزَّ وجلَّ: «لولا أنِّي أستحيي من عبدي المؤمن، ما تركت عليه خرقة يتوارى بها، وإذا أكملت له الإيمان ابتليته بضعف في قوته وقلَّة في رزقه، فإن هو جزع أعدت عليه، وإن صبر باهيت به ملائكتي، ألا وقد جعلت علياً علماً للناس، فمن تبعه كان هادياً، ومن تركه كان ضالاً، لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق»[٢].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حمّ ثلاث ساعات فصبر فيها باهى الله به ملائكته، فقال: ملائكتي، انظروا إلى عبدي وصبره على بلائي، اكتبوا لعبدي براءة من النار» قال: فيكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الله العزيز الحكيم، براءة من الله لعبده فلان ابن فلان، إنِّي قد أمنتك عن عذابي، وأوجبت لك جنَّتي فادخلها بسلام»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله يباهي الملائكة بمن قلَّ مطعمه في الدُّنيا، يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدُّنيا فصبر

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٧، ص٤٣٧.
(٢) الأمالي للطوسي: ص٣٠٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٥٩، ص١٠٥.

وتركهما، اشهدوا يا ملائكتي: ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنَّة»[١].

النبي محمد ﷺ يباهي بأُمَّته:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوَّجوا فإنِّي مكاثر بكم الأُمم يوم القيامة، حتى أنَّ السقط ليظلّ محبنطئاً على باب الجنَّة، فيُقال له: أدخل، فيقول: حتى يدخل أبواب»[٢].

وإذا كان الرسول ﷺ يباهي بأُمَّته يوم القيامة، فلا بدَّ للمسلم أن يكون على مستوى عالٍ من الإيمان والعمل الصالح حتى يفتخر به الرسول ﷺ أمام العالمين.

❋ ❋

(١) جامع السعادات: ج٢، ص٥.

(٢) مسكن الفؤاد: ص٣٢.

اللعن الإلهي

أوحى الله إلى نبيٍّ من الأنبياء:

«إذا أُطعتُ رضيت، وإذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهايةٌ، وإذا عُصيتُ غضبتُ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغُ السَّابع من الولد»[١].

* * *

حلول الغضب الإلهي:

يتحدَّث الناس ـ عادةً ـ عن البركة في الحياة، والمال، والأولاد... ولكن قلَّما يُلتفت إلى حلول اللعن، مع أنَّه من أخطر ما قد يحصل في حياة الأشخاص والأسر والمجتمعات، فقد نجد بيوتاً مصابة بالأمراض، والفقر، والبلاء، فلا تكاد تخرج من مصيبة إلا وتقع في غيرها... وسبب ذلك هو «اللعن».

ومن أبرز الأمثلة على هذا المعنى «الشجرة الملعونة» التي ذكرها

---

(١) كلمة الله: ص١٣٨.

القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

ومن ذلك «اليهود» قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

والسؤال المطروح: ما هو اللعن؟ ولماذا يقع؟

معنى اللعن:

اللعن هو «الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى»، وهذا المعنى يستبطن إنزال العذاب والعقاب على اختلاف أنواعه «المعنوية»: كالمسخ وقساوة القلب والارتداد... و«المادية»: كالفقر والمرض والجوع والذلّ...

نتيجة اللعن:

إذا وقع اللعن الإلهي على أحد من الناس، فإنَّ اللعن قد يطال ما حوله من أموال، ومن حوله من أولاد حتى قد تصل اللعنة إلى أولاده وذرِّيَّته كما في الحديث القدسي: «ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

الابتعاد عن أجواء اللعن:

لا ينبغي للإنسان أن يدخل إلى البيوت الملعونة، ففي الحديث إنَّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم إلاَّ أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم ما أصابهم»[١].

ورُوي أنَّه لمَّا سار النبي محمَّد ﷺ إلى غزوة تبوك مرَّ بـ«الحجِر» وهي ديار «ثمود» فاستقى الجيش من بئرها، فأمر النبي ﷺ مُنادياً يُنادي: لا تشربوا من ماء بئرهم ولا تتوضاؤا منه للصلاة، فجعل النَّاس يهرقون الماء وقالوا: قد عجّنا، فقال ﷺ: اعلفوا الإبل خوف أن يُصيبكم مثل ما أصابهم، ثمَّ غطّىٰ النبي ﷺ وجهه بثوب واستحثَّ الراحلة بالمشي، وفعل الجيش كذلك، وقال ﷺ: «لا تدخلوا بيوت الَّذين ظلموا إلاَّ وأنتم باكون»[٢].

كما لا ينبغي الجلوس في مجالس مُعرَّضة للعن الإلهي، أو مصاحبة الظالمين والأشخاص المعرَّضين لنزول اللعن.

فعن محمد بن مسلم قال: مرَّ بي أبو جعفر عليه السلام أو أبو عبد الله عليه السلام وأنا جالس عند قاضٍ بالمدينة، فدخلت عليه من الغد فقال لي: «ما مجلسٌ رأيتك فيه أمس؟» فقلت: إنَّ هذا القاضي لي مكرمٌ فربما جلست إليه فقال لي: «وما يؤمنك أن تنزل اللعنة فتعمّ من في المجلس»[٣].

سبب اللعن:

إنَّ للعن أسباب أبرزها «المعصية»:

---

(١) البيت السعيد: ص٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عواقب الأمور: ص٣٩.

فإذا عصى العبد ربّه أُنزلت عليه العقوبة واللعنة، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج للعاصي، فذكر لعنة الله تعالى على الظالمين، والكافرين، والكاذبين. . .

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمّد: ٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرّعد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّور: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

حديث جامع:

عن يونس بن يعقوب، قال: سمعت الإمام الصادق جعفر بن محمدٍ عليه السلام يقول في حديثٍ: «يا يونس، ملعونٌ ملعونٌ من آذى جاره، ملعونٌ ملعونٌ رجلٌ يبدؤه أخوه بالصلح فلم يصالحه، ملعونٌ ملعونٌ حامل القرآن مصرٌّ على شرب الخمر، ملعونٌ ملعونٌ عالمٌ يؤمّ سلطاناً جائراً معيناً له على جورٍ، ملعونٌ ملعونٌ مبغض عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، فإنّه ما أبغضه حتى أبغض رسول الله صلى الله عليه وآله ومَنْ أبغض رسول الله صلى الله عليه وآله لعنه الله في الدُّنيا والآخرة. ملعونٌ ملعونٌ من رمى مؤمناً بكفرٍ، ومَنْ رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقاتله، ملعونةٌ ملعونةٌ امرأةٌ تؤذي زوجها أو تغمّه، وسعيدةٌ سعيدةٌ امرأةٌ تكرم زوجها ولا تؤذيه وتطيعه في جميع أحواله ـ إلى أن قال: ـ ملعونٌ ملعونٌ قاطع رحمٍ،

ملعونٌ ملعونٌ من صدَّق بسحرٍ، ملعونٌ ملعونٌ من قال: الإيمان قولٌ بلا عملٍ، ملعونٌ ملعونٌ مَنْ وهب الله له مالاً فلم يتصدَّق منه بشيء، أما سمعت أنَّ النبي ﷺ قال: «صدقة درهمٍ أفضل من صلاة عشر ليالٍ». ملعونٌ ملعونٌ من ضرب والده أو والدته، ملعونٌ ملعونٌ من عقّ والديه، ملعونٌ ملعونٌ من لم يوقّر المسجد»[١].

كيف ترتفع اللعنة؟

إنَّ ارتفاع اللعنة يتمّ من خلال العمل على إزالة الأسباب التي أدَّت إليها، مثلاً: إذا عرف أنَّ سبب البلاء هو قطع الرحم، فإنَّه يعمل على صلته، ثم بعد ذلك يعمد إلى الاستغفار والتوبة.

❋ ❋

---

(١) عواقب الأمور: ص٤٦.

الناقد بصير

جاء في الحديث القدسي:

«يابن آدم! أكثر من الزَّاد إلى طريقٍ بعيدٍ، وخفِّف الحمل فالصِّراطُ دقيقٌ، وأخلص العمل فإنَّ النَّاقدَ بصيرٌ»[١].



إطلالة على الحديث القدسي:

إنَّ هذا الحديث القدسي يبيّن ضرورة الإخلاص لله تعالى في الأفكار والأقوال والأعمال، فإنَّه تعالى لا يقبل ولا يأخذ إلاَّ ما كان خالصاً له.

ولبيان هذا المعنى لا بدَّ من الوقوف على معنى النقد في اللغة العربية.

معنى النقد:

في الزمن الماضي كان الناس يتعاملون فيما بينهم أثناء البيع والشراء بمسكوكات من الفضة، وكان بعضهم يزيّفها بأن يصنع من

---

(١) كلمة الله: ص٤١٣.

معدن الرصاص مسكوكات تشبه النقود الرائجة، ولمعرفة حقيقة المسكوكات الأصلية من المغشوشة كان الرجل يذهب إلى خبير ليميّز له حال المسكوكات، وهذا الرجل الخبير كان يُوصف بـ«المنتقد» والدراهم تُسمَّى بـ«النقود».

فالنقد هو تمييز المزيَّف من الحقيقي، والمغشوش من الأصلي.

والناقد هو الخبير الذي يكشف ذلك، فليس كل إنسان له قدرة على كشف المزيف من الحقيقي، بل لا بدَّ من معرفة وعلم وبصيرة وخبرة.

وإلاَّ فإنَّ الكثير من الناس لا يستطيعون التمييز فيما بين النقود لأنَّها متشابه في الصورة.

وعملية النقد هي قبض ـ فيُقال في اللغة العربية نقدته الدراهم أي أعطيته إيَّاها ـ ثم تمييز الصحيح من المغشوش.

شرح الحديث القدسي:

إذا توضح هذا المعنى نعود إلى الحديث القدسي فإنَّه يقول: إنَّ الناقد بصير.

ومعناه أنَّه تعالى هو الذي يقبض الأعمال ثم ينقدها، فما كان خالصاً له فإنَّه يقبله، وأما ما كان فيه رياء أو شرك أو تزييف فإنَّه لا يقبله، وهو تعالى الخبير البصير بأعمال العباد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

فمثلاً: رجلان يصليان في وقت واحد وعلى هيئة واحدة، فمن ينظر إليهما يُعجب بصلاتهما، ولكنَّها عندما ترتفع إلى الله تعالى، فإنَّه يميّز الخالص منها فيأخذ الخالص ويرفض الآخر.

ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عزَّ وجلَّ: اجعلوها في سجِّين إنَّه ليس إيَّاي أراد بها»[١].

فالملاحظ أنَّ الملائكة تنظر إلى صورة العمل فقط وبالتالي لا تميّز فيه، فأعمالهم هي حفظ الأعمال لا معرفتها بحقيقتها، ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «... فيقول الله تعالى: أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه»[٢].

وفي دعاء كميل: «وكنتَ أنت الرقيب عليَّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم».

فإذا كان هذا حال الملائكة في النظر إلى الأعمال، فكيف بالإنسان؟!

فالناقد الحقيقي للأعمال هو الله تعالى.

فهو تعالى ناقد لأعمال العباد.

وهو ناقد لأقوالهم.

وهو ناقد لنواياهم.

عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ أولى الناس أن يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتَّى استشهدت، قال: كذبت، ولكنَّك قاتلت ليُقال: جريء، فقد قيل ذلك. ثمَّ أمر به، فسُحب على وجهه حتَّى أُلقي في

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٤.
(٢) اعلم النافع: ص١٧٣.

النار. ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت، ولكنَّك تعلَّمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: قارىء القرآن، فقد قيل. ثمَّ أُمر به، فسُحب على وجهه حتَّى أُلقي في النار»[١].

استنتاجات:

أولاً: المطلوب من الإنسان أن يكون ناقداً لأعماله قبل أن تصعد إلى ربّه، فمثلاً: إذا صلَّى الصلوات المفروضة لا بدَّ أن يجلس قليلاً ويفكِّر ويتساءل: هل إنَّ هذه الصلاة التي أدَّاها تليق بأن تُرفع إلى الله تعالى؟ هل فيها خلل؟ هل يشوبها رياء؟...

فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّكم إلى إعراب الأعمال أحوج منكم إلى إعراب الأقوال»[٢].

ثانياً: يجب الاهتمام بإخلاص النيَّة في كل عمل أو قول كما ذكرنا في موضوع «الإخلاص».

ثالثاً: إنَّ الإنسان ينبغي يخاف من ردّ عمله، فكما أنَّ الرجل إذا أعطى نقوداً مغشوشة لأهل الخبرة فإنَّه يخاف من ردّها لخبرتهم، كذلك العبد يخاف من ردّ عمله عندما يُعرض على الله تعالى.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «لو نظر الناس إلى مردود الأعمال من السماء لقالوا: ما يقبل الله من أحدٍ عملاً»[٣].

---

(١) البحار: ج٧٠، ص٢٤٩.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الأعمال».

(٣) المصدر نفسه.

وعن رسول الله ﷺ: «لو كان لرجل عمل سبعين نبيّاً لاستقلّ عمله من شدة ما يرى يومئذٍ يوم القيامة»[١].

قال رجل لمعاذ بن جبل حدِّثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ حفظته وذكرته كل يوم من دقَّة ما حدثك به، قال نعم وبكى معاذ ثمَّ قال: بأبي وأُمَّي حدَّثني وأنا رديفه قال: «يا معاذ»! قلت: لبَّيك يا رسول الله إمام الخير ونبي الرَّحمة، فقال: «أحدثك ما حدَّث نبي أُمَّته إن حفظته نفعك عيشك وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجَّتك عند الله».

ثمَّ قال: «إنَّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السَّماوات فجعل في كل سماءٍ ملكاً قد جلَّلها بعظمته، وجعل على كل باب منها ملكاً بوَّاباً، فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي.

ثمَّ ترتفع الحفظة بعمله، له نور كنور الشَّمس حتَّى إذا بلغ سماء الدُّنيا فيزكيه ويكثره فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل على وجه صاحبه، أنا ملك «**الغيبة**» فمنْ اغتاب لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري أمرني بذلك ربِّي.

ثمَّ يجيء من الغد ومعه عمل صالح فيمرُّ به ويزكيه ويكثره حتَّى يبلغ السَّماء الثانية فيقول الملك الَّذي في السَّماء الثانية: قف فاضرب بهذا العمل على وجه صاحبه، إنَّما أراد بهذا العمل «**عرض الدُّنيا**» أنا صاحب الدُّنيا لا أدع عمله يتجاوز إلى غيري.

قال: ثم يصعد بعمل العبد مبتهجاً بصدقة وصلاة، فتعُجب الحفظة وتجاوزه إلى السَّماء الثالثة فيقول الملك: قف فاضرب بهذا

---

(١) المصدر نفسه.

العمل وجه صاحبه وظهره، أنا ملك «**صاحب الكبر**» فيقول: إنَّه عمل تكبَّر فيه على النَّاس في مجالسهم أمرني ربِّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الَّذي في السَّماء له دويّ بالتسبيح والصوم والحج فيمرُّ به إلى ملك السَّماءِ الرابعة فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه، أنا ملك «**العجب**» فإنَّه كان يعجب بنفسه وأنَّه عمل وأدخل نفسه العجب، فأمرني ربِّي ألاَّ أدع عمله يتجاوزني إلى غيري، فأضرب به وجه صاحبه.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المرفوعة إلى أهلها فيمرُّ إلى ملك السَّماء الخامسة بالجهاد والصلاة ما بين الصلاتين ولذلك رنين كرنين الإبل عليه ضوء كضوء الشَّمس فيقول الملك: قف أنا ملك «**الحسد**» فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، ويحمله على عاتقه إنَّه كان يحسد من يتعلَّم ويعمل لله بطاعته، فإذا رأى لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه فيحمله على عاتقه ويلعنه عمله.

قال: ويصعد الحفظة فيمرُّ به إلى السَّماء السادسة فيقول الملك: قف أنا صاحب «**الرَّحمة**» اضرب بهذا العمل وجه صاحبه واطمس عينيه، لأنَّ صاحبه لم يرحم شيئاً، إذا أصاب عبداً من عباد الله ذنب للآخرة أو ضرّ في الدُّنيا شمت به، أمرني ربِّ أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد أعمالاً بفقه واجتهاد وورع له صوت كالرعد وضوء كضوء البرق ومعه ثلاثة آلاف ملك فيمرُّ به إلى ملك السَّماءِ السابعة فيقول: قف واضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا

ملك الحجاب أحجب «**كل عمل ليس لله**»، إنَّه أراد رفعة عند القوَّاد، وذكراً في المجالس وصوتاً في المدائن، أمرني ربِّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ما لم يكن خالصاً.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من حسن خلق وصمت وذكر كثير، تشيّعه ملاكة السَّماوات والملائكة السبعة بجماعتهم فيطئون الحُجب كلها حتَّى يقوموا بين يديه، فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء فيقول الله: أنتم حفظة عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ولم يردني بهذا العمل، عليه لعنتي، فتقول الملائكة عليه لعنتك ولعنتنا.

قال: ثمَّ بكى معاذ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ ما أعمل قال: اقتد بنبيك يا معاذ في اليقين، قلت: أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل.

قال: وإن كان في عملك تقصير يا معاذ فاقطع لسانك عن إخوانك وعن حملة القرآن، ولتكن ذنوبك عليك لا تحملها على إخوانك، ولا تزكِّ نفسك بتذميم إخوانك، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك، ولا تراء بعملك، ولا تدخل من الدُّنيا في الآخرة ولا تفحش في مجلسك لكيلا يحذروك بسوء خلقك، ولا تناج مع رجل وعندك آخر، ولا تتعظَّم على النَّاس فيقطع عنك خيرات الدُّنيا ولا تمزّق النَّاس فيمزّقك كلاب أهل النَّار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النَّازعَات: ٢] أتدري ما الناشطات، كلاب أهل النَّار تنشط اللحم والعظم، قلت: من يطيق هذه الخصال؟ قال: يا معاذ! أما إنَّه يسير على من يسَّر الله عليه.

قال: **وما رأيت معاذاً يكثر تلاوة القرآن كما يكثر تلاوة هذا الحديث»**[(١)].

رابعاً: لا ينبغي للإنسان أن يحكم على الآخرين من خلال ظاهر أفعالهم، فقد يكون الباطن مختلفاً عن الظاهر... وإذا كان الملائكة مع عظمتهم ومقامهم لا يستطيعون تمييز الباطن، فكيف بالإنسان... من هنا ورد في الروايات الشريفة حمل عمل المؤمن على سبعين محملاً.

خامساً: إذا أيقن المؤمن أنَّ رجلاً يقوم بأعمال منكرة فعليه أن ينقده ليصحح عمله، وهذا ما يُسمَّى بـ«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ولكن ذلك مشروط بأن يكون بحكمة بلا تجريح ولا تقريع أمام الناس.

---

(١) فلاح السائل: ص١٢١.

الاستخارة

عن الإمام الصادق عليه السلام: يقول الله عزَّ وجلَّ:

«إنَّ من شقاء عبدي أن يعمل الأعمال ثم لا يستخيرني»[(١)].

❁ ❁ ❁

شرح الحديث:

ما من إنسان إلاَّ ويتمنَّى أن يسعد ويفلح في الأعمال التي يقوم بها، كشراء منزل أو سيارة، أو فتح متجر، وما أشبه، إلاَّ أنَّ البعض يفشل ويخسر في عمله لأسباب عديدة، منها عدم التوفيق، والكسل، والإحباط وما أشبه.

ومن أهم الأمور التي تؤدِّي إلى الفشل والتعب هو «عدم الاستخارة» أي أنَّ يقوم الإنسان بعمل ولا يطلب الخير من الله تعالى ففي الحديث القدسي: «إنَّ من شقاء عبدي أن يعمل الأعمال ثم لا يستخيرني».

والشقاء هو التعب كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

---

(١) فتح الأبواب: ص١٣٢.

فمن يدخل في أمر بغير استخارة فإنَّه يتعب في الدُّنيا ثم لا ينال أجر التعب، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من دخل في أمر من غير استخارة ثم ابتلي لم يؤجر»[١].

والسرّ في حدوث التعب هو أنَّ الله تعالى يوكل العبد إلى نفسه بعد ترك العبد اتكاله على ربّه، ويقرب ذلك إلى الذهن، بحال الوالد مع ولده، فإذا صار الولد يتصرف من تلقاء نفسه بلا مراجعة ومشاورة، فإنَّ والده يتركه ويهمله حتى يقع في المشاكل والمتاعب، ثم فوق ذلك لا يعطيه أجر تعبه ولا يثني عليه، وهكذا حال العبد مع ربّه، فإنَّه إن اعتمد على نفسه بلا طلب الاستخارة، فإنَّ الله يكله إلى نفسه ليتعب ثم لا يؤجره على تعبه.

الحثّ على الاستخارة:

من هنا ينبغي لكل عاقل متدين أن يستخير الله تعالى ليبيّن له المصلحة في فعله، فإنَّه تعالى الحكيم الخبير، ولذا جاء الحث الشديد في الروايات على الاستخارة.

ففي وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ إذا أردتَ أمراً فاستخر ربّك، ثمَّ ارضَ ما يخير لك، تسعد في الدُّنيا والآخرة»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «ما استخار الله عزَّ وجلَّ عبد مؤمن إلاَّخار له، وإن وقع في ما يكره»[٣].

وكان أهل العصمة عليهم السلام يستخيرون الله تعالى في كلّ أمورهم.

---

(١) المصدر نفسه: ص١٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص٢٦٥، ذيل ح١٩.
(٣) البحار: ج٩١، ص٢٢٤، ح٤، الوسائل: ج٥، ص٢١٨، ح١٠.

فعن جابر بن عبد الله قال: كان النبيّ ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كُلّها، كما يعلّمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثمَّ ليقل: اللَّهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب، اللَّهمَّ إن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خير لي في ديني ودُنياي ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدرهُ ويسِّره لي، ثمَّ بارك لي فيه، اللَّهمَّ وإنْ كنتَ تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ودُنياي ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عنِّي واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثمَّ رضِّني به، قال: ويُسمِّي حاجته»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما أبالي إذا استخرت الله على أيّ طرفيَّ وقعت، وكان أبي يعلِّمني الاستخارة كما يعلِّمني السّور من القرآن»[٢]..

وعن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام قال: «كان عليَّ بن الحسين عليه السلام إذا همَّ بحجٍّ أو عمرةٍ أو شرى أو بيع، تطهَّرَ وصلَّى ركعتين للاستخارة، يقرأ فيهما بسورة الرحمن وسورة الحشر، فإذا فرغ من الركعتين استخار مائتي مرَّة ثمَّ قال: «اللهمَّ إنِّي قد هممتُ بأمرٍ قد علمْتهُ، فإن كنتَ تعلم أنَّه شرٌّ لي في ديني ودُنياي وآخرتي فاصرفه عنِّي، ربِّ اعزم لي على رشد وإن كرهت أو أحبّت ذلك نفسي، بسم الله الرحمن الرحيم، ما شاء الله، لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، حسبي الله ونعم الوكيل»، ثمَّ يمضي ويعزم[٣].

---

(١) فتح الأبواب: ص١٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ص١٥٧.

معنى الاستخارة وأقسامها:

الخيرة هي طلب الخير من الله تعالى، بمعنى أنَّ العبد يسأل ربّه أن يختار له الخير والبركة والتوفيق في الأمر الذي يطلبه.

ويتم معرفة الخير بالأمور التالية:

أولاً: أن يسأل الله تعالى ـ من خلال الدُّعاء والصلاة ـ أن يجعل له الخير في عمله، وأكثر أحاديث الاستخارة تدلُّ على هذا المعنى.

ثانياً: أن يسأل الله تعالى أن يوجد في نفسه العزم على ما فيه الخير.

ثالثاً: أن يطلب الخير من الله تعالى من خلال استشارة أهل الإيمان، لأنَّ الله تعالى يجعل الخير على ألسنتهم.

رابعاً: أن يطلب معرفة الخير من خلال القرآن الكريم والسبحة وهو ما تعارف واشتهر بين الناس، وتفصيل هذا الأمر في الكتب المختصة ككتاب «مفاتيح الغيب» للعلاَّمة المجلسي رحمه الله.

استنتاج:

يستنتج ممَّا تقدَّم:

١ ـ إنَّ الخيرة من الأسرار التي تبيّن للإنسان طريقه في الحياة، فهي من النعم الإلهيَّة على العباد.

يقول آية الله السيِّد حسين البروجردي رحمه الله: «عندي أنَّه جزء من أجزاء النبوة التي اختص بها سيِّد الأنام، أو بقية ممَّا تركه آل محمد وعلي عليهم السلام»[(١)].

---

(١) تفسير الصراط المستقيم: ج٣، ص٣١٤.

٢ ـ إنَّ الخيرة نوع من التدبير الإلهي للعباد لما يعود إلى مصلحتهم، فالله تعالى يكون هو الوكيل في أعمال العباد.

٣ ـ إنَّ الخيرة من التوفيق الإلهي للعباد.

٤ ـ إنَّ الخيرة هي دعاء من العبد لله تعالى.

٥ ـ إنَّ الخيرة ترفع التردُّد والحيرة في الإنسان.

قال العارف السبزواري رحمه الله: «... فإنَّ الرُّوح عند الحيرة تتوجه إلى عالمها الذي نزل منه لعلَّه تستفيد منه شيئاً، فإن كان موحّداً يلزمها التوجه إلى الله تعالى، وإلاَّ فتقف في الغيب الممكن»[١].

٦ ـ إن ترك الخيرة هو سوء توفيق وقلَّة حظّ.

٧ ـ إنَّ على العبد أن يسلِّم أموره لله تعالى فيما يختار له، فلا يعترض على ما يختار له، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «من استخار الله فعمل أحد الأمرين فعرض في قلبه شيء فقد اتهم الله في قضائه»[٢].

❁ ❁

(١) مهذب الأحكام: ج٩، ص١٠٥.

(٢) مفاتيح الغيب: ص٢٢.



ما لا عين رأت

يقول الله تعالى:

«أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، فله ما أطلعتكم عليه، إقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧]»[١].

❁ ❁ ❁

الخبر والمعاينة:

خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له الحواس الخمس ليدرك ما حوله من الأشياء... ومن الطبيعي أنَّ لكل حاسة وظيفة محدودة، وفي كل واحد مفتاح للعلم والمعرفة، فحاسة الأُذن تدرك ما لا تدركه العين، وهكذا الحال في بقية الحواس... وهذا الاختلاف الموجود في الحواس يؤدِّي إلى الاختلاف في الإدراك والمعرفة واليقين... فما تبصره العين هو يقين بالنسبة إلى الإنسان، ودرجته أقوى ممَّا تسمعه الأُذن، وكما قيل «ليس من رأى كمن سمعا» وعلى حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام: «الحق أن تقول رأيت».

---

(١) كلمة الله: ص١٣٢.

وأما ما تسمعه الأذن فلا يصل إلى درجة اليقين التام، فمثلاً: يسمع الإنسان عن جمالية أصوات العصافير إلا أنَّه لا يدرك ذلك إلا إذا سمعها مباشرة...

كما أنَّ السماع يختلف عن المعاينة، فمهما سمع الإنسان عن جمال أو قبح الشيء إلا أنَّه لا يدركه إلا إذا استخدم حاسة البصر ورآه بعينه، فعند ذلك قد يكون ما سمعه لا يطابق ما رآه.

فمثلاً: الإنسان يسمع عن جمالية شلالات «نياجرا» إلا أنَّه لو ذهب إليها مرة أو مرتين وجلس عندها، فإنَّ هذه المعاينة تفقده حلاوة ما كان يسمعه.

ومن هنا نرى أنَّ وقع السماع في النفس يختلف عن وقع المشاهدة، فسماع أخبار كربلاء يختلف عن معاينتها.

فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة، قال الله تعالى لموسى: إنَّ قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يبالِ فلما عاين ألقى الألواح»[1].

وهكذا الحال في كل شيء في الدُّنيا، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه».

وأما إذا صار الأمر إلى الآخرة فإنَّ إدراكها أعظم من سماعها، فعن الإمام علي عليه السلام: «وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه».

فكل ما يسمعه الإنسان في هذه الدنيا عن الحشر والجنة والنار

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج١، ص٢٧١.

وما فيهما هو قليل أمام ما سيراه في الآخرة، والوصف قاصر عن إيصال حقائق الآخرة إلى الإنسان، ولذا نلاحظ الآيات القرآنية تقول: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقّة: ٣].

وقال الإمام علي عليه السلام عن الماضين: «فلو كانوا ينطقون بها لعيّوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا»[١].

وسرّ ذلك: محدودية إدراك الإنسان في عالم الدُّنيا واختلاف نظام عالم الآخرة عن نظام عالم الدُّنيا، فما يوجد هناك لا وجود له هنا إلا من حيث الاسم فقط، فمثلاً: العسل هنا يختلف عن العسل هناك، ولا قاسم مشترك بينهما إلا الاسم.

ومن ثم يرى الإنسان ما «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أنَّه قال: «المعاينة»[٢].

شرح الحديث:

يقول الحديث القدسي: «**أعددت**» والإعداد هو التهيئة، والمعنى أنَّ الله تعالى قد هيىء لعباده المؤمنين... كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمران: ١٣٣].

وفي هذا الكلام إشارة إلى أنَّ الجنَّة مخلوقة فعلاً ويدلُّ على

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٨.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «اليقين».

ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٥-٦].

وما ورد في روايات دخول النبي ﷺ إلى الجنة ليلة المعراج... وهذا الإعداد دليل على الإكرام للمؤمنين، وذلك أنَّه إعداد خاص من الرحيم، الكريم، المعطي...

وهذا الإعداد هو خاص بالمؤمنين الذين أعدُّوا أنفسهم للقاء الله تعالى وعملوا في الدُّنيا بإخلاص وجهد...

وأما غير المؤمنين فإنَّ الله تعالى قد أعدَّ لهم العذاب الأليم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهذا الإعداد يفوق تصوُّر الإنسان وخياله، فهو «**ممَّا لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

وقد قدَّم العين على الأذن لأنَّ دائرة العين أضيق، وقدَّم السمع على الخطور القلبي لأنَّ دائرته أضيق، فالمعنى: أعدَّ للمؤمن ما لم تراه العين، بل ولم تسمعه الأذن مع أنَّها أوسع إدراكاً، بل وما لم يخطر على الذهن مع أنَّه أوسع إدراكاً من الحواس.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «ما من عملٍ حسن يعمله العبد إلاَّ وله ثواب في القرآن، إلاَّ صلاة اللَّيل، فإنَّ الله لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها عنده، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٧].

ثمَّ قال: إنَّ لله كرامة في عباده المؤمنين في كلّ يوم جمعة، فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمنين ملكاً معه حلّتان فينتهي إلى باب الجنَّة فيقول: استأذنوا لي على فلان، فيُقال له: هذا رسول ربّك على الباب، فيقول لأزواجه: أي شيء ترينَ عليَّ أحسن؟ فيقلن: يا سيِّدنا! والذي أباحك الجنَّة، ما رأينا عليك شيئاً أحسن من هذا قد بعث إليك ربّك، فيتَّزر بواحدة ويتعطَّف بالأُخرى فلا يمرُّ بشيءٍ إلاَّ أضاء له، حتَّى ينتهي إلى الموعد، فإذا اجتمعوا تجلَّى لهم الرَّبّ تبارك وتعالى، فإذا نظروا إليه، أي إلى رحمته خرُّوا سجَّداً، فيقول: عبادي! ارفعوا رؤوسكم ليس هذا يوم سجود ولا عبادة، قد رفعتُ عنكم المؤونة. فيقولون: يا ربّ! وأيّ شيء أفضل ممَّا أعطيتنا؛ أعطيتنا الجنَّة. فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضِعفاً. فيرى المؤمن في كلّ جمعة سبعين ضِعفاً مثل ما في يده، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥]، وهو يوم الجمعة، إنَّها ليلةٌ غرَّاء ويومٌ أزهر، فأكثروا فيها من التسبيح والتهليل والتكبير والثناء على الله والصلاة على رسوله. قال: فيمرُّ المؤمن فلا يمرُّ بشيءٍ إلاَّ أضاء له حتَّى ينتهي إلى أزواجه فيقلن: والذي أباحنا الجنَّة يا سيِّدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة، فيقول: إنِّي قد نظرتُ إلى نور ربِّي، ثمَّ قال: إنَّ أزواجه لا يغرن ولا يحضن ولا يصلفن».

قال الراوي عاصم بن حميد: قلت: جُعلت فداك؛ إنِّي أردت أن أسألك عن شيء أستحي منه.

قال: سَلْ.

قلت: جُعلت فداك؛ هل في الجنَّة غناء؟

قال: «إنَّ في الجنَّة شجرة يأمر الله رياحها فتهبّ فتضرب تلك الشجرة **بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها حُسناً**».

ثمَّ قال: هذا عوض لمن ترك السماع للغناء في الدُّنيا من مخافة الله.

قال: قلتُ: جُعلت فداك؛ زدني!

فقال: «إنَّ الله خلق جنَّةً بيده ولم ترها عينٌ ولم يطَّلع عليها مخلوقٌ، يفتحها الرَّبُّ كلَّ صباح فيقول: ازدادي ريحاً، ازدادي طيباً، وهو قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧]»[١].

قد يُقال: لماذا أخفى الله تعالى ما أعدَّه للمؤمن؟ وبتعبير آخر: لماذا لم يبيّن الله تعالى ما أعدَّ للمؤمنين؟

الجواب:

أولاً: إنَّ محدودية الإنسان تجعله لا يدرك حقيقة الجنَّة وما فيها، ومن هنا نلاحظ أنَّ الله تعالى عندما ذكر الجنَّة فإنَّه قرَّب ذلك من خلال الأمثال، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمَّد: ١٥].

ولتقريب المعنى نقول: لو أنَّنا ذكرنا للجنين القابع في بطن أُمّه عن بيوت وأراضي وأشجار العالم الدنيوي لما استطاع أن يستوعب ذلك لمحدوديته، وهكذا الحال في الإنسان مع ما يسمع عن الآخرة وما فيها.

---

(١) معرفة المعاد: ج١٠، ص٨٠.

ثانياً: إنَّ حقائق الآخرة تختلف عمَّا يوجد في الدُّنيا حتى لو اشتركت في الاسم، فمثلاً: عسل الآخرة يختلف عن عسل الدُّنيا ولا اشتراك بينهما إلا بالاسم، وما يدركه الإنسان من الآخرة هو الاسم فقط، كما أنَّ هناك ما لم يره ولم يسمع به.

ثالثاً: إنَّ إخفاء النِّعمْ الأخروية يحفّز الإنسان للوصول إليها، وهذا سرّ إخفاء «ليلة القدر»، فإنَّه من باب تحفيز المرء للعمل.

ومنه إخفاء ثواب صلاة اللَّيل، فإنَّها لمَّا كانت عمل خفي في الليل فإنَّ ثوابها يكون كذلك كما تقدَّم.

جنات مُعدَّة:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنَّه أعدَّ جنات لبعض عباده المؤمنين، ومن ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وهناك جنات كثيرة قد أعدها الله تعالى..

فمنها: **جنَّة المأوى**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: ٤٠-٤١].

وجنَّة الخلد، قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥].

وجنَّة الفردوس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أطيب شيء في الجنَّة وألذَّه، حب الله، والحب لله، والحمد لله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وذلك أنَّهم إذا عاينوا ما في الجنَّة من النعيم، هاجت المحبَّة في قلوبهم فينادون عند ذلك: إنَّ الحمد لله ربِّ العالمين»[(١)].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «إنَّ لله مائدة عليها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا يقعد عليها إلاَّ الصائمون»[(٢)].

❋ ❋

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٥١ الراوية ٣٠.
(٢) شهر الله: ص٧٥.

لمن الملك اليوم

عن النبي ﷺ أنَّه قال:

«يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[١].



المالك الحقيقي:

إنَّ هذا الحديث الشريف يبيّن إنَّ المالك الحقيقي لعالمي الدُّنيا والآخرة هو الله تعالى فبيده تعالى وحده، الحياة والموت والإيجاد والعدم... وأما ما سواه فهو مخلوق ومملوك في كل شيء، فما سواه مملوك في الحياة والبقاء والاستمرار...

ففي آخر الزمان يأذن الله تعالى بموت أهل الأرض وأهل السماء، فقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد، ثم يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد، إلاَّ ملك الموت، وحملة العرش، وجبرائيل، وميكائيل.

(١) صحيح مسلم: ٢١٤٨١٤.

فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله تعالى، فيقول له: من بقي؟ وهو أعلم.

فيقول: يا ربِّ، لم يبقَ إلاَّ ملك الموت، وحملة العرش، وجبرائيل وميكائيل، فيقول: قل لجبرائيل وميكائيل: فليموتا؛ ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله فيُقال له: مَنْ بقي؟ وهو أعلم، فيقول: يا ربِّ لم يبقَ إلاَّ ملك الموت، وحملة العرش، فيقول: قل لحملة العرش: فليموتوا. ثم يجيء مكتئباً حزيناً، لا يرفع طرفه، فيُقال له: مَنْ بقي؟ فيقول: يا ربِّ، لم يبقَ إلاَّ ملك الموت، فيُقال له: مُتْ يا ملكَ الموت، فيموت، ثم يأخذ الأرض بيمينه والسموات ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أي الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر»[1].

ففي ذلك الوقت يقول تعالى: «أنا الملك».

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وأما أي يوم هذا؟ فهو ما أشار إليه بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: ٤].

ففي ذلك اليوم يظهر «ملك الله تعالى» للإنسان بشكل جلي حيث يرى ملك الله تعالى يتجلَّى في الملائكة، والجن، والإنس، والكون. . .

وفي ذلك اليوم يظهر مملوكية الإنسان وأنَّه لا يملك شيئاً ممَّا كان يظن أنَّه يملكه في الدُّنيا.

---

(١) نور الثقلين: ج١، ص٤١٨.

فهو لا يملك بعثه من جديد... ولا يملك الأسباب التي كان يعتمد عليها كالمال والجاه والأصدقاء.

بل لا يملك نفسه، حيث تنطق أيديهم وأرجلهم بلا إذن منهم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصّلت: ٢١].

كما يظهر ـ في ذلك اليوم ـ إنَّ الذين تسمّوا بالملوك في عالم الدُّنيا لا شيء لهم، بل هم أصغر الناس في ذلك اليوم.

ففرعون الذي كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]. يأتي يوم القيامة وهو يقدم قومه إلى النار ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وهكذا الحال في النمرود وقارون...

الملك الأخروي:

ظهر ممَّا تقدَّم أنَّ عالم الآخرة يختلف عن عالم الدُّنيا، فالملوك في الدُّنيا يتحولون إلى صور حقيرة صغيرة...

وأمَّا المؤمنين الضعفاء الفقراء في الدُّنيا فيتحولون إلى ملوك في عالم الآخرة.

فعن عبَّاس بن يزيد، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ـ وكنت جالساً عنده ذات يوم ـ: أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] ما هذا الملك الَّذي كبَّره الله حتَّى سمَّاه كبيراً؟ فقال لي: «إذا أدخل الله أهل الجنَّة الجنَّة أرسل رسولاً إلى وليّ من أوليائه فيجد الحجبة على بابه، فيقول له: قف حتَّى نستأذن لك،

فما يصل إليه رسول ربّه إلاّ بإذن، فهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]»[١].

ملكية الإنسان:

يستنتج ممَّا تقدَّم:

إنَّ الملكية الحقيقية هي في عالم الآخرة، حيث يملك الإنسان الخلود والقوَّة والمال والحياة بلا نفاذ ولا انقطاع...

وأما ملكية الدُّنيا فهي ملكية «وهمية» و«اعتبارية» بلا حقيقة واقعية... وذلك لأنَّ الملكية الحقيقية هي القدرة على التصرف بالشيء دائماً وفي كلِّ الأحوال، وملك الإنسان في الدُّنيا ليس كذلك، فما يملكه من مال يتحول إلى غيره وبالتالي لا يستطيع أن يتصرف به، وما يملكه من أراضي وبيوت كذلك... وحتى الأولاد هم ليسوا ملكاً له،... بل حتى نفسه ليست ملكاً له، فقد يفقد قوته أو سمعه أو بصره أو بعض أعضائه، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبتعبير آخر: كل ما في الكون هو «طاقة» تتبدل، فالطعام يتحول إلى طاقة جسدية، والمال يتحول إلى طاقة معنوية مادية، ولا بقاء لأي شيء فـ«دوام الحال من المحال» و«ما يكون لك اليوم فغداً لغيرك» حتى اليوم الذي يعتبره الإنسان له يكون غداً لغيره...

---

(١) معاني الأخبار: ص٢١٠.

ويتفرع على ذلك ما يلي:

١ ـ **إعادة النظر في معنى الملك**، فإنَّ كل ما عند الإنسان هو «أمانة» لديه، وهو «مستخلف» فيه، فالأولاد هم أمانة للرجل وليسوا ملكاً،.. والزوج هو أمانة لدى الزوجة وليس ملكاً لها...

وهذا المعنى يخفِّف من مصيبة فقدان الممتلكات ويغيّر نظرة الزوج تجاه الزوج، فهو ليس ملكاً لها دون غيرها...

والإنسان الذي يعيش القلق والخوف من فقد الممتلكات يخفّف من قلقه إذا أدرك هذا المعنى...

٢ ـ **إنَّ الإنسان ليس خادماً لممتلكته**، بل هي خادمة له، فالبعض يفني عمره في جمع الثروة وحفظها ثم يموت، والأحرى أن يستخدمها في راحة نفسه.

٣ ـ **لا بدَّ من وقفة حول مفاهيم الامتلاك لدى الناس**، فالبعض يرى أنَّه يملك الحقيقة المطلقة... والبعض يرى أنَّه يملك تغيير المصير... أو التاريخ...

فكرة للتأمُّل:

نجد في عالمنا المعاصر أنَّ بعض الأشخاص يبنون قصراً كبيراً ثم بيتاً صغيراً للخادم، وبعد ذلك يسكن الخادم في البيت ويتصرف في القصر وما حوله، بينما صاحب القصر لا يسكن فيه إلا وقتاً محدوداً في السنة... وبالتدبر نجد أنَّ الأجير هو المستفيد وإنَّ الله تعالى سخَّر الغني لراحة الفقير... وصاحب القصر يشعر أنَّه المالك الحقيقي وأنَّ بإمكانه التصرف كيفما يريد،.. ولكن النهاية أنَّ صاحب القصر يموت

فلا يأخذ قصره معه وأجيره يموت كذلك... وبالتدبُّر فإنَّ صاحب القصر أجير فقط لا مالك... بل هو أجير لدى أجيره... ولا ملك حقيقي له، وإنَّما مجرد اعتبار ذهني نفسي.

إيثار الهوىٰ

عن الإمام الباقر عليه السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يقول الله عزَّ وجلَّ:

«وعزَّتي، وجلالي، وعظمتي، وكبريائي، ونوري، وعُلُوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواه على هواي إلاَّ شتَّتُ أمره، ولبَّست عليه دُنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أُوته منها إلاَّ ما قدَّرت له. وعزَّتي، وجلالي، وعظمتي، وكبريائي، ونوري، وعُلُوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاَّ استحفظته ملائكتي، وكفَّلت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدُّنيا وهي راغمة»(١).



الهوىٰ:

أودع الله تعالى في الإنسان قوى عقلية وغرائزية وجسدية كالعقل، والإرادة، والضمير، والمحبة، وهذه القوى تقود الإنسان للتكامل الرُّوحي في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) كلمة الله: ص٩.

إلاَّ أنَّ ما يعيق الإنسان عن التكامل هو هوى النفس، وهو «مجموعة الغرائز والشهوات التي تتطلب الإشباع كيفما كان».

وذلك لأنَّ الهوى يقود الإنسان إلى الانحطاط والفساد والضلال واتباع الشهوات والملذات الدنيوية حتى قال البعض إنَّه «سُمّي الهوى لأنَّه يهوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»(١).

خطورة الهوى:

إنَّ الهوى يؤدِّي إلى الكفر بالله تعالى وعدم اتباع أنبيائه وشرائعه كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المَائدة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: ٥٠].

كما أنَّه يؤدِّي بالإنسان إلى نسيان ربّه، وذلك لأنَّه اتخذ إلٰهه هواه كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفُرقان: ٤٣].

فعن رسول الله ﷺ: «ما عُبد في الأرض إلٰهٌ أبغض إلى الله من الهوى ثم تلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣]»(٢).

إنَّ اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى فعل المحرمات الكبيرة حيث

---

(١) مرآة العقول: ج١٠، ص٣١٠.

(٢) تهذيب النفس: ج١، ص٨٧.

أنَّه لا يشبع ولا يقنع، فتسول له نفسه فعل المحرمات، ومنه قوله تعالى عن قتل قابيل لأخيه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

كما أنَّ اتباع الهوىٰ يؤدِّي إلى وقوع الفتن.

عن الإمام علي عليه السلام: «الهوىٰ مطية الفتن»[١].

وعنه عليه السلام: «إنَّما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتَّبع»[٢].

وعنه عليه السلام: «إيَّاكم وتمكّن الهوىٰ منكم، فإنَّ أوَّله فتنة، وآخره محنة»[٣].

والأخطر من كل ذلك أنَّ الإنسان إذا مات متبعاً لأهوائه فإنَّه يوم القيامة يُبعث وإلٰهه هواه.

فعن الإمام علي عليه السلام: «لو صمت الدهر كلّه، وقمت الليل كلّه، وقُتلت بين الركن والمقام بعثك الله مع هواك بالغاً ما بلغ، إن في جنَّة ففي جنَّة، وإن في نار ففي نار»[٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: كان قاض في بني إسرائيل وكان يقضي بالحق فيهم. فلما حضرته الوفاة قال لامرأته: إذا مت فاغسليني

---

(١) غرر الحكم: ج١، ص٥١.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٥٠.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نهج السعادة: ج٩، ص٥٩.

وكفنيني وغطي وجهي على سريري فإنَّك لا ترين سوءاً إن شاء الله تعالى.

فلما مات فعلت ما أمرها به، ثم مكثت بعد ذلك حيناً، ثم إنَّها كشفت عن وجهه، فإذا دودة تقرض من منخره ففزعت من ذلك. فلما كان الليل أتاها في منامها، فقال لها: فزعت ممَّا رأيت؟ قالت: أجل، قال: والله ما هو إلا في أخيك. وذلك إنَّه أتاني ومعه خصم له، فلما جلسا قلت: اللهم اجعل الحق له. فلما اختصما كان الحق له، ففرحت، فأصابني ما رأيت لموضع هواي مع موافقة الحق له»[١].

من هنا ورد التحذير عن اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أخْوَف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوىٰ وطول الأمل»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدىٰ للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[٣].

---

(١) قصص الأنبياء: ص٦٢٣.
(٢) الهوى: ص١١٦.
(٣) أُصول الكافي: ج٢، ص٣٣٥.

شرح الحديث:

ومن أهم النصوص التي تحذِّر من اتّباع الهوىٰ هو الحديث القدسي الذي ذكرناه في أول الموضوع فهو ـ كما يقول السيِّد الخميني رحمه الله ـ: «من محكمات الأحاديث التي يدلُّ مضمونها على أنَّه ينبع عن علم الله تعالى»[1].

ومعناه:

«وعزَّتي وجلالي. . .».

بدأ الحديث بالأيمان المغلظة والمشدّدة للكشف عن أهمية الموضوع فأقسم تعالى بعزته ـ أي قوته العالية ـ وبجلاله ـ وهو التنزه من النقائص ـ وبعظمته وبنوره وتعاليه وارتفاعه عن الاتصاف بصفات المخلوقات.

«لا يؤثر عبد هواه على هواي» والإيثار هو الاختيار، والمعنى لا يختار عبد أهوائه النفسية ويقدّمها على رضى الله تعالى، كأن يكون هوى العبد في فعل الزنا، وإرادة الله تعالى في ترك ذلك، فإذا فعل ذلك فإنَّه سينال عقوبات وهي:

«إلاَّ شتَّت عليه أمره».

أي مزَّقت عليه حاله، فهو في الدُّنيا حيران في أمور دينه ودُنياه، فلا انتظام لأحواله وأمواله وأرزاقه، فهو من خسارة إلى خسارة، ومن موقف إلى موقف، ومن هوى إلى هوى، فتراه يهرب من هوى القلق إلى هوى الخمر، ومن هوى الشهوات إلى هوى الزنا.

كما ورد في الحديث القدسي: «يا أحمد!. . فإنَّ النفس مأوى

---

(١) الأربعون حديثاً: ص١٦٦.

كل شر، وهي رفيق كل سوء، تجرّها إلى طاعة الله وتجرك إلى معصيته، وتخالفك في طاعة وتطيعك فيما يكره، وتطغى إذا شبعت، وتشكو إذا جاعت، وتغضب إذا افتقرت، وتتكبَّر إذا استغنت، وتنسى إذا كبرت، وتغفل إذا أمنت، وهي قرينة الشيطان، ومثل النفس كمثل النعامة، تأخذ الكثير وإذا حُمل عليها لا تطير، ومثل الدّفلى ـ شجر العَرْعَرْ ـ لونه حسن وطعمُه مُر»[١].

وإلى هذا العذاب النفسي الذي يلقاه الإنسان في دائرة الهوىٰ يشير النص عن أمير المؤمنين عليه السلام وإليك هذا النص: «ما أعجب أمر الإنسان، إن سنح له الرجاء أذلَّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن سعد نسي التحفظ، وإن ناله خوف حيَّره الحذر، وإن اتسع له الأمن أسلمته الغرَّة «الغفلة» وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن غضَّته فاقة شمله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضرّ، وكل إفراط به مفسد، وكل خير معه شر، وكل شر له آفة»[٢].

وعنه عليه السلام أيضاً: «المتمتّعون من الدُّنيا تبكي قلوبهم وإن فرحوا، ويشتد مقتهم لأنفسهم وإن اغتبطوا ببعض ما رزقوا»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من تعلَّق قلبه بالدُّنيا تعلَّق قلبه بثلاث خصال: هم لا يُغني، وأمل لا يُدرك، ورجاء لا يُنال»[٤].

---

(١) تهذيب النفس: ج١، ص٢٤.
(٢) الهوى: ص١١٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٣، ص٨١.
(٤) المصدر نفسه: ج٧١، ص١٨١.

وأما في الآخرة، فإنَّهم يخرجون من قبورهم أشتاتاً في عقولهم وأنفسهم من خوف ما يلاقوه.

فقد ورد في النصوص الإسلامية: إنَّ الذي يعصي الله تعالى، ويتَّبع هواه في الدُّنيا يبرء بعضه عن بعضه في الآخرة، ويلعن بعضه بعضاً، وهي صورة مطابقة لما عليه الإنسان في الدُّنيا عندما يتَّبع هواه.

عن رسول الله ﷺ: «كُفّ أذاك عن نفسك، ولا تتابع هواها في معصية الله، إذ تخاصمك يوم القيامة، فيلغي بعضك بعضاً، إلاَّ أن يغفر الله ويستر برحمته»[1].

«ولبست عليه دُنياه».

واللبس هو الخلط، ومنه «التبس عليه الأمر» أي اختلط واضطرب فيه فلم يعرف الصواب من غيره.

فالمعنى أنَّ الله تعالى يضرب من يتبع هواه بالالتباس في فكره وعمله، فيكون حاله كالضائع الحيران.

وقيل في المعنى: «هو إبراز الدُّنيا وإظهارها بظاهر مغرٍ ليس هو بحقيقة الدُّنيا، وهذا الظاهر هو مصدر إغراء الدُّنيا للإنسان، واغترار الإنسان بها، وهذا الذي يغري الإنسان من الدُّنيا هو السطح الظاهر منها، وهو أمر زائل سريع الزوال، أما عمق الدُّنيا وباطنها فهو مصدر العبرة واليقظة والزهد في الدُّنيا.

فإذا غضب الله تعالى على الإنسان سلبه بصيرته، ولبس عليه الظاهر بالباطن، فلا يميّز بين القشر واللب، والظاهر من الباطن،

---

(١) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني: ج٥، ص١١١.

ويحسب القشر لباً، والظاهر باطناً، فيغرّه ظاهر الدُّنيا ويغتر بها، ويرى الدُّنيا من خلال هذا الظاهر زينة مغرية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[البَقَرَة: ٢١٢]، فإنَّ الدُّنيا إنَّما تزيَّنت لهم، لأنَّهم لا يرون منها إلاَّ هذا الظاهر المغري، ولو كانوا يرون من هذه الدُّنيا باطنها لما تزيَّنت لهم.

«فشغلت قلبه بها».

وهذه العقوبة الثالثة وهي: الانصراف عن السعادة الحقيقية وهي الآخرة، والانشغال بالزائل وهو الدُّنيا، والانشغال القلبي من العقوبات النفسية حيث يعيش الإنسان الهمّ والغم والقلق والحزن من أجل الدُّنيا، ثم بعد ذلك يتركها ويرحل للعالم الآخر، ولا يحصل منها «إلا ما قدّر له».

وفي مقابل هذه العقوبات فقد جعل الله تعالى ثواباً لمن يتبع إرادة الله، فأقسم تعالى بعزته وجلاله وعظمته ونوره وعلوه.

فقال: **«لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي»** أي طلبت منهم أن يحفظوه من المكاره التي تحدث في اليل والنهار ويحفظونه من الضياع والفساد والتشتت والانحراف، فيكون دورهم دور المرشد والهادي.

«وكفلت السموات والأرض رزقه» أي إنَّ الله تعالى الكفيل بأمور عباده بجعل السموات والأرض، متكفلة بأرزاق الذين يتبعون إرادة الله تعالى، فيأتيهم رزقهم من حيث لا يحتسبون، فلا يتعبون ولا يشقون ولا يقلقون على أرزاقهم، لعلمهم بأنَّ الله تعالى هو الكفيل.

«وكنت له من وراء تجارة كل تاجر».

قيل في معنى هذه الفقرة:

١ ـ كنت له من وراء تجارة كل تاجر أي عقبها فأسوقها إليه، بعد أن أسخِّر قلوب التجَّار له.

٢ ـ كنت له، أي أكون له الهدف، فإذا كان لكل تاجر هدف ومنفعة دنيوية فإنِّي أنا مقصوده وهدفه دون الدُّنيا الزائلة، وبعبارة أخرى «أنا مقصوده في تجارته المعنوية بدلاً عمَّا يقصده التجار من أرباحهم الدنيوية»[١].

«أتته الدُّنيا وهي راغمة».

أي أتته الدُّنيا ذليلة منقادة، وهو كناية عن تيسر حصول أمور الدُّنيا بلا مشقة ولا مذلَّة.

السيطرة على الهوى:

بعد أن عرفنا خطورة الهوى وآثاره لا بدَّ من الوقوف عند العوامل التي تؤدِّي إلى السيطرة عليه وكبح جماحه، وهي كما يلي:

١ ـ اتباع العقل، فللعقل دور فعَّال في تحديد الهوىٰ وضبطه في حياة الإنسان، والمنع من طغيانه، وكفّ الإنسان عن الاسترسال المطلق في الاستجابة له.

ولعلَّ كلمة «العقل» في اللغة العربية مقتبسة من هذا الأصل، فالعقل والعقال في العربية يأتي بمعنى القيد والتقييد، وهو الذي أعطاه الله تعالى للعقل في حياة الإنسان بالنسبة إلى الهوىٰ، وقد روي في

(١) مرآة العقول: ج١٠، ص٣١٥.

هذا المعنى عن رسول الله ﷺ: «إنَّ العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب»[(١)].

وفي النصوص الإسلامية إشارات كثيرة إلى هذا المعنى:

عن الإمام علي عليه السلام: «فكرك يهديك إلى الرشاد»[(٢)].

وعنه عليه السلام: «للنفوس خواطر للهوىٰ، والعقول تزجر وتنهىٰ»[(٣)].

وعنه عليه السلام أيضاً: «للقلوب خواطر سوء والعقول تزجر عنها»[(٤)].

وعنه عليه السلام أيضاً: «النُّفوس طلقة، لكن أيدي العقول تمسك أعنّتها»[(٥)].

وعنه عليه السلام أيضاً: «ثمرة العقل مقت الدُّنيا وقمع الهوىٰ»[(٦)].

٢ ـ **مخالفة الهوىٰ**، عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إذا مرَّ بك أمران لا تدري أيُّهما خير وأصوب فأنظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإنَّ كثير الصواب في مخالفة هواك»[(٧)].

٣ ـ **الخوف من الله تعالى**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النّازعات: ٤٠].

والآية الكريمة تعبِّر بوضوح عن التلازم والترابط القائم بين

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١١٧.
(٢) غرر الحكم للآمدي: ج٢، ص٥٨.
(٣) تحف العقول: ص٩٦.
(٤) غرر الحكم للآمدي: ج٢، ص١٢١.
(٥) نفس المصدر: ج١، ص١٠٩.
(٦) نفس المصدر: ج١، ص٣٢٣.
(٧) ميزان الحكمة: مادة «الهوى».

«الخوف من الله» و«نهي النفس عن الهوىٰ»، كما هو واضح في الآية الكريمة.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «من علم أنَّ الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح، فذلك الذي خاف مقام ربّه، ونهىٰ النفس عن الهوىٰ»[1].

❁ ❁

(١) أُصول الكافي: ج٢، ص٧١.



الصوم لي

عن رسول الله ﷺ قال الله تعالى:

«الصوم لي وأنا أجزي به»[١].



شعائر الله تعالى:

أوجد الله تعالى بعض الأشياء وأضافها إلى نفسه تكريماً لها وتشريفاً وتعظيماً... كالرُّوح، والأولياء، وبعض «الأزمنة» كشهر رمضان، وبعض «الأمكنة» كالكعبة والمساجد... وهي ما يُطلق عليها «الشعائر الإلهية» و«الحرمات الإلهية».

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) مصباح الشريعة: ص١٣٥.

شرح الحديث:

ومن تلك الأمور التي أضافها إلى نفسه «الصوم» ففي الحديث القدسي أنَّه قال: **«الصوم لي»**.

والسبب في ذلك أنَّه سرّ بين العبد وربّه لا يطلّع عليه غيره تعالى، ومن ثم يكون الصوم من الأعمال القلبية التي تقوي الإخلاص في قلب العبد كما قالت السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام: «... والصيام تثبيتاً للإخلاص»[1].

فالصوم هو لله تعالى دون سواه، وليس لأحد من الناس فيه نصيب، إذ هو بعيد عن الرياء والمظاهر، وليس للنفس فيه نصيب إذ هو حرمان لها عن ملذاتها وشهواتها، فهو لله تعالى وحده بما فيه من معاني، فهو جوع إلى الله تعالى، وعطش إلى الله تعالى، وتعب إلى الله تعالى.

ونظراً لأنَّ الصوم عمل قلبي خالص لله تعالى دون سواه، فإنَّ الله تعالى جعل جزاؤه عليه، أي إنَّه تعالى يجزي به مباشرة بلا توسط ملك، ومن المعلوم أنَّ جزاؤه تعالى هو الجزاء الأوفى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ مائدةً عليها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون»[2].

قال العارف السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: «وأما قوله: «وأنا أجزي به» فهو كناية عن كمال الجزاء وعدم حصر له،

---

(١) فقه الزَّهراء عليها السلام: ج٢، ص٣٦٦.

(٢) شهر الله: ص٧٥.

وعدم اطلاع أحد عليه، فيكون المقام نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

هذا إذا قُرِئ بصيغة المعلوم، وأما إذا قُرِئ بصيغة المجهول ـ أي إنَّه تعالى بذاته الأقدس يكون جزاء لهذا العمل ـ فيكون كناية عن قرب الصائم إلى ربّه بحيث لا يمكن تحديده بحد»(١).

أحاديث مهمة:

عن رسول الله ﷺ: «يقول ربّنا جلَّ وعلا: الصيام جُنَّة يسجن بها العبد من النار وهو لي وأنا أجزي به»(٢).

عنه ﷺ: يقول الله تعالى: «كلُّ عمل ابن آدم له؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، إلاَّ الصِّيام هو لي وأنا أجزي به، إنَّه يترك الطعام وشهوته من أجلي، ويترك الشراب وشهوته من أجلي؛ فهو لي وأنا أجزي به»(٣).

عن الإمام علي عليه السلام ـ في الحكم المنسوبة إليه ـ: «الصوم عبادةً بين العبد وخالقه، لا يطلع عليها غيره، وكذلك لا يجازي عنها غيره»(٤).

شرح الحديث في كلمات العلماء:

قال الفيلسوف الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء رحمه الله:

---

(١) مواهب الرحمن: ج٣، ص٢١.
(٢) الشفاء في الصيام: ص١٦٧.
(٣) المصدر نفسه: ص١٦٥.
(٤) المصدر نفسه.

«تشترك العبادات عموماً بأنَّها أفعال وجودية، هي بمنزلة الجسد وروحها النية، فالصلاة، والطواف، والسعي، كالغسل والوضوء، وأمثالها أعمال جسدية، إذا لم يأت بها المكلف بداعي القربة فهي كجسد ميت لا حياة فيه، وكأشباح بلا أرواح، ولكن مهما كان فهو جسم عبادة؛ وصورة طاعة؛ وكل العبادات في ذلك سواء أعني أنَّها أجساد ولها أرواح، فإن كانت تلك الرُّوح فيه فهو حيّ، وإلاَّ فهو ميت إلا الصوم، فقد كاد بل كان روحاً مجردة، وحياة متمحضة لا جسم له ولا مادة.

وهذه ميزة امتاز بها الصوم عن سائر العبادات، ولم يشاركه فيها سوى الإحرام؛ فإنَّ الصيام والإحرام كل منهما تروك محضة، وعدميات صرفة، ليس فيها من الأعمال الجسمانية شيء، ولكن الإحرام فضحته ثياب الإحرام ولبسها، وبقي الصيام محتفظاً بروحيّته وتجرُّده من كل عمل ظاهري، ولم يتجاوز عن كونه نية خالصة، وعبادة قلبية خفية، لا يعلم بها إلا صاحبها وربّه العالم بالسرائر، ومن هنا اختصّ الصوم بميزة انفرد بها دون كل عبادة، وهي عدم إمكان دخول الرياء فيه، بل يستحيل ذلك إلا بالقول، فيكون الرياء حين ذاك بالعبارة لا بالعبادة، وبالكلام لا بالصيام، والإحرام أيضاً بجوهره وإن كان نية وتروكاً كالصوم إلا أنَّ الإحرام فيه عمل واحد وجودي؛ وهو ليس ثياب الإحرام، ومنه قد يتأتى تدخل الرياء فيه، بخلاف الصوم المتمحض في النية والتروك فقط، فهو عبادة صامتة خرساء، ومعاملة سرّية بين القلب والرَّب، ولعلَّ هذا هو المراد من الحديث المشهور (الصوم لي وأنا أجزي به) مبنياً للفاعل فيكون القصد أنَّه تعالى تكريماً للصائم يتولّى جزائه مباشرة من دون وسائط الفيض.

وعلى المفعول: فيكون المراد أنَّه هو جزائي واللائق بمقام

عظمتي وتجردي، فإنَّ الصائم يتجرد ويصير روحانياً، والمتخلق بأخلاق الروحانيين يلحق بهم، ويكون لحوقه بهم جزاؤه لهم، سواء عاد الضمير إلى الصوم، أو للصائم.

هذا مضافاً إلى ما يتضمنه الصوم من الفوائد الصحية، والرياضة البدنية، وتربية قوَّة الإرادة، ومضاء العزم، وتهذيب النفس، وقمعها عن الانقياد إلى بواعث الشهوات، وكبح جماح قوتي الشهوة والغضب اللتين هما أصل كل جريمة، والسبب في هتك كلّ حرمة، ومن آثاره تذكر حال الفقراء وأهل الفاقة ومن كضه الطوى وأمضه الجوع، فإنَّ الصيام يوجب رقَّة القلب واندفاع الدمعة فيواسي إخوانه، ويكون حليماً ورحيماً ومهبطاً للرحمة، والراحمون يرحمهم الله تعالى»[1].

وقال أبو حامدٍ الغزالي في شرح الحديث: إنَّما كان الصوم لله ومشرّفاً بالنسبة إليه ـ وإن كانت العبادات كلّها له كما شرَّف البيت بالنسبة إليه والأرض كلّها له ـ لمعنيين:

أحدهما: إنَّ الصوم كفّ وترك، وهو في نفسه سرّ ليس فيه عمل يشاهد، فجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يعلمه إلاَّ الله تعالى؛ فإنَّه عمل في الباطن بالصبر المجرّد.

والثاني: إنَّه قهرٌ لعدو الله؛ فإنَّ وسيلة الشيطان ـ لعنه الله ـ الشهوات، وإنَّما يقوى الشهوات بالأكل والشرب؛ ولذلك قال عليه السلام: «إنَّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فضيِّقوا مجاريه بالجوع»... فلمَّا كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسدّاً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه، استحقَّ التخصيص بالنسبة إلى الله؛ ففي

---

(١) الفردوس الأعلى: ص١٩٥.

قمع عدوّ الله نصرة لله، ونصرة الله للعبد موقوفة على النصرة له؛ قال الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: ٧]؛ فالبداية بالجهد من العبد، والجزاء بالهداية من الله؛ ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]؛ وإنَّما التغيير بكسر الشهوات، فهي مرتع الشياطين ومرعاهم، فما دامت مخصبة لم ينقطع تردُّدهم، وما داموا يتردّدون فلا ينكشف للعبد جلال الله، وكان محجوباً عن لقائه؛ قال رسول الله ﷺ: «لولا أنَّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء». فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جُنَّةً»[1].

وفي النهاية لابن الأثير: قد أكثر الناس في تأويل هذا الحديث وأنَّه لِمَ خصَّ الصوم والجزاء عليه بنفسه عزَّ وجلَّ، وإن كانت العبادات كلّها له وجزاؤها منه؟ وذكروا فيه وجوهاً مدارُها كلّها على أنَّ الصوم سرٌّ بين الله والعبد لا يطَّلع عليه سواه، فلا يكون العبد صائماً حقيقةً إلاَّ وهو مخلص في الطاعة. وهذا وإن كان كما قالوا؛ فإنَّ غير الصوم من العبادات يشاركه في سرّ الطاعة، كالصلاة على غير طهارة أو في ثوبٍ نجس، ونحو ذلك من الأسرار المقترنة بالعبادات التي لا يعرفها إلاَّ الله وصاحبها. وأحسن ما سمعت في تأويل هذا الحديث: إنَّ جميع العبادات التي يتقرَّب بها العباد إلى الله عزَّ وجلَّ ـ من صلاة، وحجّ، وصدقة، واعتكاف، وتبتُّل، ودعاء، وقُربان، وهَدي، وغير ذلك من أنواع العبادات ـ قد عبدَ المشركون بها آلهتهم، وما كانوا يتَّخذونه من دون الله أنداداً، ولم يسمع أنَّ طائفة من طوائف المشركين وأرباب النِّحَلِ في الأزمان المتقادمة عبدت آلهتها بالصوم، ولا تقرَّبت إليها به ولا عُرف

---

(١) المحجة البيضاء: ج٢، ص١٢٥، إحياء علوم الدين: ج١، ص٣٤٦.

الصوم في العبادات إلاَّ من جهة الشرائع، فلذلك قال الله عزَّ وجلَّ: «الصوم لي وأنا أجزي به»؛ أي: لم يشاركني أحدٌ فيه، ولا عُبد به غيري، فأنا حينئذٍ أجزي به وأتولَّى الجزاء عليه بنفسي، لا أكِلُه إلى أحد من ملك مقرَّب أو غيره على قدر اختصاصه بي[١].

جزاء الصوم:

استكمالاً لشرح الحديث نستعرض ما ورد حول ما أعد الله تعالى للصائمين من جزاء في الدُّنيا والآخرة ومن ذلك:

عن رسول الله ﷺ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أن «أخبر قومك أنَّ ليس عبدٌ يصوم يوماً ابتغاء وجهي إلاَّ أصححتُ جسمه، وأعظمت أجره»[٢].

عنه ﷺ: «أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى في الإنجيل أن «قل للملأ من بني إسرائيل: إنَّ من صام لمرضاتي صحَّحت له جسمه، وأعظمت له أجره»[٣].

وعنه ﷺ ـ لأسامة بن زيدٍ ـ: «يا أُسامة، عليك بالصوم؛ فإنَّه يقرِّب إلى الله. إنَّه ليس شيءٌ أحبَّ إلى الله من ريح فم الصائم ترك الطعام والشراب لله عزَّ وجلَّ، فإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائعٌ وكبدك ظمأن فافعل؛ فإنَّك تدرك شرف المنازل في الآخرة، وتحلُّ مع النَّبيِّين»[٤].

---

(١) النهاية: ج١، ص٢٧٠.
(٢) شهر الله: ص٨٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص٨٨.

جزاء الصوم في الضيافة الإلهية:

إنَّ الله تعالى جعل لعباده ضيافة زمانية في كل سنة وهي «شهر رمضان المبارك» كما قال رسول الله ﷺ: «هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله تعالى».

وعنه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ينادي المنادي؛ أين أضياف الله؟ فيؤتى بالصائمين»(١).

وجعل في تلك الضيافة «مائدة روحية» جزاءً لمن يترك مائدة الطعام المادي، وتلك المائدة هي «القرآن الكريم».

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم»(٢).

في هذا السياق نذكر ما كتبه العالم الربَّاني الشيخ رضا ابن الفقيه والفيلسوف والعارف الجليل الشيخ محمَّد حسين الأصفهاني طاب ثراهما، وهو يقول في «الرِّسالة المجدية» في شرح الحديث النبوي الشريف «شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله» ما نصَّه:

«اعلم أنَّ هذه الضيافة ليست استضافة الجسد، وأنَّ بدنك ليس هو المدعوّ لهذه الضيافة، فأنت تسكن في شهر رمضان في البيت نفسه الَّذي كنت تسكن فيه في شهر شعبان، وطعامك فيه هو الخبز والمرق نفسه الَّذي كنت تتناوله بقيَّة شهور السنة، وأنت ممنوع منه في أيَّام هذا

---

(١) المستدرك: ج٢، ص٢٢.
(٢) الوسائل: ج٦، ص١٦٨.

الشهر، إنَّما المدعوّ لهذه الضيافة هي نفسك الَّتي دعيت إلى منزل آخر وإلى أطعمة أُخرى روحيَّة تتواءم مع الرُّوح ومهيأة من سنخها.

إنَّ الدعوة إلى شهر رمضان دعوة إلى الجنَّة، وأطعمة هذه الضيافة من جنس أطعمة الجنَّة، والاثنان هما مَضيفا الله، لكن اسم التضيف هنا «شهر رمضان»، واسمه هناك «غرف الجنان»، هنا غيبٌ، وهناك مشاهدةٌ وعيَانٌ، هنا تسبيحٌ وتهليل، وهناك عين سلسبيل، وهنا نِعمٌ مستورة ومواهب مخزونة، وهناك: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقِعَة: ٢٠-٢١]. فالنعم تبرز في كلّ عالم بلباس ذلك العالم، وقد يحصل أحياناً أن تظهر للأنبياء والمعصومين في هذه الدُّنيا بصورتها الأخروية، وما جاء في أخبار كثيرة من أنَّ رسول الله ﷺ جاء للصدِّيقة الطاهرة فاطمة عليها السلام أو للحسنين عليهما السلام بفاكهة من فاكهة الجنَّة أو بحلل منحللها، لدليل على هذا المطلب.

أكثر من ذلك، ربَّما حصلت هذه الأمور لخواصّ الشيعة أيضاً تبعاً لسعتهم الوجودية والمرتبة الَّتي يحظون بها، فقد سمعت مرَّات وكرات ممَّن هو أقرب النَّاس إليَّ حسباً ونسباً، أنَّه يقول: كنت في أحد أيَّام شهر رمضان مشغولاً بالزيارة المعروفة بـ«زيارة أمين الله» في المرقد الشريف بالنجف، وحين وصلت بعبارات الزيارة إلى: «وموائد المستطعمين معدَّةٌ، ومناهل الظماء لديك مشرعةٌ»، وفيما أنا أتأمَّل بمعناها وأفكِّر به، تراءت لي فجأة مائدة مصفوف عليها أنواع الأطعمة والأشربة ممَّا لم أكن أتصوَّره قطّ، وأنا أتناول من طعامها، وفي تلك الأثناء كنت أفكِّر بمسألة فقهية، إنَّها حالة عجيبة تبعث على الدهشة! الواقع أنَّ هذه هي حقيقة الغذاء، وهي ليست مفطرة للصوم...

الشراب الطهور في الحياة الدُّنيا هو محبَّة الله، والوقت الأفضل

الَّذي يغتنم لتحصيله هو هذه الضيافة الَّتي يكون فيها الساقي هو المضيف نفسه، ولا تظننَّ أنَّ تعبيرات هذا العبد هي من قبيل خيالات الشعراء وأوهامهم، أو من شطحات غلاة المتصوّفة، فحاشى أن أتجاوز لسان الكتاب والسُّنَّة، أو أتخطَّىٰ في معتقدي غير ما جاء به الله والنَّبي وأمرا به، وإنَّما المقصود هو قول الله نفسه في سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ [الإنسان: ١] حيث يقول سبحانه: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]»[١].

❊ ❊

(١) شهر الله: ص٢٠.

المؤمن

لمَّا أُسري بالنبي ﷺ قال: يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال:

«يا محمد من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وأنا أسرع شيءٍ إلى نصرة أوليائي، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاَّ الغنى، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاَّ الفقر، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وما يتقرَّب إليَّ عبدٌ من عبادي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، وإنَّه ليتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أُحبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصرُ به، ولسانهُ الَّذي ينطقُ به، ويدهُ الَّتي يبطشُ بها، إنْ دعاني أجبتهُ، وإنْ سألني أعطيتهُ»[١].

❋ ❋ ❋

معنى المؤمن:

يعتبر هذا الحديث الشريف من الأحاديث المهمة التي تبيّن منزلة أهل الإيمان عند الله تعالى ومدى قربهم إليه سبحانه.

---

(١) كلمة الله: ص٧٢.

قال الشيخ البهائي رحمه الله: «هذا الحديث صحيح السند، وهو من الأحاديث المشهورة بين الخاصة والعامة»[١].

وقبل أن نبدأ بشرحه لا بدَّ أن نعرف، من هو «المؤمن»؟

الجواب: إنَّ المؤمن هو الذي آمن بالله تعالى واليوم الآخر وما نزل من عند الله تعالى من كتب، وهو الذي يؤمن بالأنبياء والأئمَّة عليهم السلام - وقد تحدثنا عن ذلك في موضوع الإيمان -.

وقد أشتّق هذا الاسم من أسماء الله تعالى، فمن أسماء الله «المؤمن».

فعن النبي ﷺ أنَّه قال: نزل عليَّ جبريل فقال: يا محمَّد: إنَّ ربّك يقرئك السلام، ويقول: «إشتققتُ للمؤمن اسماً من أسمائي، فسمَّيته مؤمناً، فالمؤمن منِّي وأنا منه، من استهان بمؤمنٍ، فقد استقبلني بالمحاربة»[٢].

عظمة المؤمن:

للمؤمن كرامة عند الله تعالى لا يعادلها شيء، حتى أنَّه ورد في الحديث القدسي: «وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليَّ من عبدي المؤمن»[٣].

بل ورد أنَّ المؤمن أكرم على الله تعالى من الكعبة.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه نظر إلى الكعبة ثم قال: مرحباً بالبيت ما

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٢١٨.
(٢) كلمة الله: ص٧١.
(٣) تكريم الناس: ص١٧.

أعظمك وأعظم حرمتك على الله! والله للمؤمن أعظم حرمة منك، لأنَّ الله حرم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يُظنّ به ظنَّ السوء»[١].

شرح الحديث:

ويكفينا الحديث القدسي الذي ذكرناه في بداية الموضوع، ففيه قال رسول الله ﷺ: «يا رب ما حال المؤمن عندك»؟

أي ما هو شأنه وما هي منزلته.

فجاء الجواب من ربّ الأرباب: **«من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»**.

والولي هو «المحب القريب من الله تعالى» ففي تعريف الولاية «أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، بحيث لا يوجد بينهما حاصل وحجاب» ويُستعار ذلك للقرب المكاني فيُقال: فلان يلي فلان، ويجري في القرب المعنوي فيُقال: فلان ولي فلان أي أنَّه قريب منه في المكانة، فيكون معنى «ولي الله» أنَّ الإنسان قد بلغ مرحلة من القرب إلى الله تعالى بحيث زالت الحُجب بينه وبين الله تعالى، فمن كان هذا شأنه مع الله تعالى فإنَّ الله تعالى يغضب لغضبه كما في الأحاديث التي نذكر أنَّ الله تعالى يغضب لغضب فاطمة عليها السلام ويرضى لرضاها.

إهانة الولي:

ومن تعرّض لهكذا ولي بالإهانة ـ أي الاستحقار والاستخفاف

---

(١) المصدر نفسه: ص١٨.

والإذلال ـ فقد بارز الله تعالى بالمحاربة، أي أظهر وأعلن الحرب على الله تعالى.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الإهانة التي توجب المحاربة هي ما كانت نابعة عن إهانة المؤمن لإيمانه بالله تعالى، وذلك كالكافر الذي يحارب المؤمن لأنَّه ينتمي إلى أهل الإيمان، وكالذي يحارب الشيعي لأنَّه شيعي.

وتعتبر هذه الإهانة من المحاربة، وذلك لأنَّ المحاربة العسكرية هي سلب الأموال والأنفس، وأما هذه المحاربة المعنوية فهي سلب ما أنعم الله تعالى على المؤمن من كرامة ورفعة ومنزلة.

فإذا تعرض الإنسان لمحاربة ربّه ـ بمحاربة المؤمن ـ فإنَّ الله تعالى يحاربه بأن يسلبه ما أنعم عليه من صحة ومال وأولاد وما أشبه، والتاريخ يشهد على ما نزل بأعداء المؤمنين من عقوبات، ومن ذلك ما حديث مع قتلة الإمام الحسين عليه السلام.

وهذا التهديد الشديد يجعل الإنسان يخاف من إهانة أي إنسان من أهل الإيمان فقد يكون ولياً لله تعالى، فعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ الله أخفى وليه في عباده فلا تستصغروا شيئاً من عباده فربما كان وليه وأنت لا تعلم»[1].

نسبة التردُّد إلى الله تعالى:

ثم قال الحديث القدسي: «**وما ترددت في شيء كترددي في وفاة...**».

---

(١) مرآة العقول: ج١٠، ص٣١٠.

وفي هذا الكلام إشكال وهو: إنَّ التردُّد من صفات النقص ولا يفعله إلا ضعيف الإرادة، وهو ممَّا لا يجوز إطلاقه على الله تعالى، فكيف ذُكر في هذا الحديث القدسي؟

الجواب: ذكر العلماء لهذا الحديث توجيهات عديدة وهي:

١ ـ إنَّ في الكلام إضماراً وتقديراً، أي: لو جاز عليَّ التردُّد ما تردَّدت في شيء كتردّدي في وفاة المؤمن.

٢ ـ إنَّ هذا الكلام فيه استعارة تمثيليَّة، فهو يكنِّي عن توقير المؤمن واحترامه، باعتبار أنَّ الإنسان عادةً يتردَّد في عمل يوجب إساءة مَنْ يحترمه ويوقِّره كالصديق الوفيِّ والخلِّ الصفيِّ، بخلاف مَنْ لا يقدّره ولا يوقِّره كالعدو والحيَّة والعقرب.

٣ ـ إنَّه ورد في الحديث من طرق الخاصَّة والعامَّة: إنَّ الله سبحانه يظهر للعبد المؤمن عند الاحتضار من اللُطف والكرامة والبِشارة بالجنَّة ما يزيل عنه كراهة الموت، ويوجب رغبته في الانتقال إلى دار القرار، فيقلُّ تأذِّيه به، ويصير راضياً بنزوله، راغباً في حصوله، فأشبهت هذه الحالة معاملة مَنْ يريد أن يؤلم حبيبه ألماً يتعقَّبه نفع عظيم، فهو يتردَّد في أنَّه كيف يوصل ذلك الألم إليه على وجه يقلُّ تأذِّيه به، فلا يزال يظهر له ما يرغِّبه فيما يتعقَّبه من اللذَّة الجسميَّة والراحة العظيمة إلى أن يتلقَّاه بالقبول، ويعدُّه من الغنائم المؤدِّية إلى إدراك المأمول[1].

ويشير إلى ذلك ما ورد عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جُعلت فداك يستكره المؤمن على خروج نفسه؟ قال: فقال: لا والله. قال: قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنَّ المؤمن إذا حضرته الوفاة حضر

(١) الأربعون حديثاً للشيخ البهائي.

رسول الله ﷺ وأهل بيته أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين وجميع الأئمَّة عليهم الصلاة والسلام، ولكن أكنُّوا عن اسم فاطمة[١]، ويحضره جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، قال: فيقول أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: يا رسول الله، إنَّه كان ممَّن يحبُّنا ويتولاَّنا فأحبَّه، قال: فيقول رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، إنَّه ممَّن كان يحبُّ عليّاً وذرِّيته فأحبَّه، وقال جبرئيل لميكائيل وإسرافيل عليهما السلام مثل ذلك، ثمَّ يقولون جميعاً لملك الموت: إنَّه ممَّن كان يحبُّ محمَّداً وآله، ويتولَّى عليّاً وذرِّيته، فارفق به، قال: فيقول ملك الموت: والذي اختاركم وكرَّمكم، واصطفى محمَّداً ﷺ بالنبوَّة، وخصَّه بالرسالة، لأنا أرفق به من والد رفيق، وأشفق عليه من أخ شفيق، ثمَّ قام إليه ملك الموت فيقول: يا عبد الله، أخذت فكاك رقبتك؟ أخذت رهان أمانك؟ فيقول: نعم، فيقول الملك: فبماذا؟ فيقول: بحبِّي محمَّداً وآله، وبولايتي عليِّ بن أبي طالب وذرِّيته، فيقول: أمَّا ما كنت تحذر فقد آمنك الله منه، وأمَّا ما كنت ترجو فقد أتاك الله به، افتح عينيك فانظر إلى ما عندك، قال: فيفتح عينيه فينظر إليهم واحداً واحداً، ويفتح له باب إلى الجنَّة، فينظر إليها فيقول له: هذا ما أعدَّ الله لك، وهؤلاء رفقاؤك أفتحبُّ اللحاق بهم أو الرجوع إلى الدُّنيا؟ قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما رأيت شخوصه[٢] ورفع حاجبيه إلى فوق من قوله: لا حاجة لي إلى الدُّنيا، ولا الرجوع إليها! ويناديه منادٍ من بطنان العرش يسمعه ويسمع من بحضرته: يا أيتها النفس المطمئنَّة إلى محمَّد ووصيّه والأئمَّة من بعده،

---

(١) قال المجلسي رحمه الله في ذيل نقله لهذه الرواية في البحار: «ولكن أكنُّوا عن اسم فاطمة» أي: لا تصرِّحوا باسمها عليها السلام؛ لئلاً يصير سبباً لإنكار الضعفاء من الناس.

(٢) شخص الميت بصره وببصره: رفعه.

ارجعي إلى ربِّك راضية بالولاية مرضيَّة بالثواب، فادخلي في عبادي مع محمَّد وأهل بيته، وادخلي جنَّتي غير مشوبة»[١].

وللمجلسي رحمه الله توجيه رابع وهو: توجيهه بمسألة البداء بالمعنى المعقول عندنا، فيكون التردُّد إشارةً إلى المحو والإثبات في لوحهما؛ فإنَّه يكتب أجله في زمان وآن فيدعو المؤمن لتأخيره، أو يتصدَّق فيمحو الله ذلك، ويؤخِّره إلى وقت آخر، فهو يشبه فعل المتردِّد أُطلِق عليه التردُّد على وجه الاستعارة[٢].

وللسيد الخميني رحمه الله توجيه خامس وهو: إنَّ أفعال العباد الكاملين تُنسب إلى الله تعالى كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

كالوفاة فهو يُنسب إلى ذلك الموت وإلى الله تعالى كما في بعض الآيات الكريمة فـ«عندما يرى بعض الملائكة الموكلين بنفوس المؤمنين وبقبض أرواحهم المقدَّسة مقام المؤمنين لدى محضر الحق المقدَّس المتعالي، ويرون من جانب آخر أنَّ المؤمنين يكرهون الموت انتابهم حالة من التزلزل والتردُّد، وقد نسب سبحانه هذه الحال إلى نفسه، كما نسب إلى نفسه التوقّي»[٣].

وللحديث توجيهات أخرى مذكورة في كتاب «مصابيح الأنوار» للسيد عبد الله شبّر رحمه الله.

---

(١) البحار: ج٦، ص١٦٢ ـ ١٦٣. وفسَّر المجلسي رحمه الله «غير مشوبة» بمعنى: كون الجنَّة غير مشوبة بالمحن والآلام.

(٢) مرآة العقول: ج١٠، ص٣٨٥.

(٣) الأربعون حديثاً: ص٥٢٢.

أحوال المؤمنين متفاوتة:

ثم قال الحديث القدسي: «**وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك...**».

وقد ذكر هذه الجملة دفعاً للتوهم والإشكال، والإجابة على سؤال يمكن أن يُطرح من قبل البعض وهو: إنَّ المؤمن إذا كان مقرباً إلى الله تعالى بدرجة أن تكون إهانته محاربة لله تعالى، فلماذا يُبتلى بالفقر والحاجة؟

فأجاب الله تعالى: إنَّ ما يتصرف به في أحوال عباده من الفقر والغنى إنَّما هو من كرامتهم عنده، فإنَّه تعالى يريد إصلاحهم في الدُّنيا والآخرة، ولكن قلوبهم ونفوسهم متفاوتة، فبعضهم لا يصلحه إلا الغنى فلذلك يغنيه، وبعضهم لا يصلحه إلا الفقر فلذلك يفقره، وقد ورد هذا المعنى بلفظ آخر.

فقال سبحانه وتعالى: «... وإنَّ من عبادي المؤمن لمن يريد الباب من العبادة فأكفُّه عنه؛ لئلاَّ يدخله عُجب ويفسده، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاَّ بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاَّ بالغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاَّ بالسقم، ولو صححت جسمه لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاَّ بالصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، إنِّي أُدبِّر عبادي بعلمي بقلوبهم، فإنِّي عليم خبير»[1].

وعن الفضيل بن يسار، عن الإمام الصادق عليه السلام: «... يا

---

(١) البحار: ج٧٠، ص١٦ ـ ١٧.

فضيل بن يسار، إنَّ المؤمن لو أصبح له ما بين المشرق والمغرب كان ذلك خيراً له، ولو أصبح مُقطَّعاً أعضاؤه كان ذلك خيراً له. يا فضيل بن يسار، إنَّ الله لا يفعل بالمؤمن إلاَّ ما هو خير له. يا فضيل بن يسار، لو عدلت الدُّنيا عند الله عزَّ وجلَّ جناح بعوضة ما سقىٰ عدوَّه منها شربة ماء. يا فضيل بن يسار، إنَّه مَنْ كان همُّه همّاً واحداً كفاه الله همَّه، ومَنْ كان همُّه في كلِّ وادٍ لم يبالِ الله بأيِّ وادٍ هلك»[1].

وإذا أردنا أن فهم هذا المعنى بشكل جيد فلا بدَّ أن نعود إلى الأحداث والقصص التي جرت مع المؤمنين، ومثال ذلك:

قصة موسى عليه السلام والخضر ففيها إشارات واضحة إلى أنَّ الله تعالى لا يفعل بعبيده إلا ما يصلح شؤونهم، كخرق السفينة للحفاظ على أحوال أصحابها...

التقرب إلى الله تعالى:

بعد أن ذكر تعالى حال المؤمن عنده أشار إجمالاً إلى طريق الوصول إلى مقام الولاية من بداية السلوك إلى النهاية، فقال:

«وما يتقرب إليَّ عبد من عبادي بشيء أحبّ إليَّ ممَّا افترضت عليه».

أي ما تحبَّب إليَّ عبدي ولا طلب القرب لديَّ بمثل أداء الفرائض، فبأداء الفرائض يصل العبد إلى مقام التقوى وينال الرتب

---

(١) أُصول الكافي: ج٢، ص٢٤٦.

الرفيعة، ولذا نجد أنَّ كبار العرفاء عندما يُسئلون عن الطريق إلى الله تعالى فإنَّهم يجيبون بضرورة العمل بالأحكام الشرعية.

فإذا أدَّى العبد الفرائض الواجبة عليه، ونال مقام التقوى والقرب إلى الله تعالى، فإنَّه يستطيع أن يترقَّى في الدرجات المعنوية، وذلك بأداء النوافل - وهي الأعمال المستحبة الزائدة عن الفرائض سواء كانت صلوات كالنوافل اليومية أو غيرها كخدمة الناس والصدقات وبقية الأعمال الصالحة -.

فإذا أدَّى النوافل صار حبيباً لله تعالى، كما في الحديث القدسي: **«وإنَّه ليتقرَّب إليَّ بالنافلة حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه...»**.

لا يخفى أنَّ الله تعالى منزَّه عن الحلول والاتحاد، فليس معنى الحديث أنَّ الله تعالى يحلّ في بعض الأشخاص فيكون سمعهم وبصرهم، فهذا كفر - والعياذ بالله - وإنَّما لهذا الحديث توجيهات منها:

أولاً: إنَّ أعضاء العبد الذي يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل تصير وقفاً على الله تعالى، فلا يسمع إلا ما يرضي الله بسماعه، ولا يبصر إلا ما يرضى الله ببصره، ولا يتكلم إلا بما يرضي ربّه...

ثانياً: هو أنّي إذا أحببته كنت كسمعه وبصره في سرعة الإجابة، فقوله «إن دعاني أجبته» إشارة إلى وجه التشبيه، يعني إنّي أجيبه سريعاً إن دعاني إلى مقاصده، كما يجيبه سمعه عند إرادته سماع المسموعات وبصره عند إرادته إبصار المبصرات، وهذا مثل قول الناس: فلان عيني ونور بصري[١].

(١) شرح أُصول الكافي: ج٩، ص٤٠٠.

ثالثاً: يقول بعض المحقِّقين: تارة يكون العبد في مرحلة يكون الله تعالى سمعه وبصره ويده، وأخرى يكون في مقام أعلى بحيث يكون هو عين الله وسمعه، ولتقريب ذلك يضرب مثالاً فيقول: افرض أنَّ لك طفلاً لا يعرف الآداب الاجتماعية فيكون حضوره في المجلس تبعاً لك، وإذا سأله أحد سؤالاً فأنت تجيبه لأنَّ الطفل لا يعرف الإجابة. وإذا أعطاه أحد شيئاً فأنت تشكره وهكذا، ففي هذه المرحلة تكون نائباً عنه في كلّ شيء، فإذا بلغ مرحلة الكمال وعرف آداب المعاشرة فقد ينعكس الأمر بحيث إنَّه يزور عنك ويُعزِّي نيابة عنك وهكذا، ففي مرحلة الطفولة كنت لسانه ويده... وأمَّا في مرحلة الكمال فإنَّه يصير لسانك ويدك..

وهكذا حال العبد مع الله تعالى فكلَّما تقرَّب إلى الله تعالى صار الله يده ولسانه.. حتَّى إذا وصل إلى أعلى الدرجات صار بنفسه يدَ وعين الله ولسانه.. ولهذا ورد في حقّ الإمام علي عليه السلام: «السَّلام عليك يا عين الله الناظرة، ويده الباسطة، وأُذنه الواعية...»[(١)].

حديث مهم:

عن إبراهيم بن أدهم: إنَّ الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليه السلام: «إنِّي قضيت على نفسي ألا يحبَّني عبدٌ من عبادي أعلم ذلك منه إلا كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ولسانه الَّذي يتكلَّم به، وقلبه الَّذي يفهم به، فإذا كان ذلك كذلك بغَّضت إليه الاشتغال بغيري، وأدمت فكرته، وأسهرت ليله، وأظمأت نهاره.

يا يحيى، أنا جليس قلبه وغاية أُمنيَّته وأمله، أهب له كلَّ يومٍ

(١) لاحظ دروس في التفسير للسيِّد الفهري: ج٢، ص١٤١.

وساعةٍ؛ فيتقرَّب منِّي وأتقرَّب منه، أسمع كلامه وأجيب تضرُّعه، فوعزَّتي وجلالي لأبعثنَّه مبعثاً يغبطه به النبيون والمرسلون، ثمَّ أمر منادياً ينادي: هذا فلانٌ ابن فلانٍ، وليُّ الله وصفيُّه، وخيرته من خلقه، دعاه إلى زيارته ليشفي صدره من النَّظر إلى وجهه الكريم»(١).

تكملة شرح حديث «من تقرَّب إليَّ شبراً»:

إنَّ هذا الحديث ينبّه الإنسان إلى أنَّ مفتاح القرب إلى الله تعالى هو في يده، فإذا بدأ الإنسان في الخطوة الأولى نحو الله تعالى، فإنَّ الله تعالى يتقرَّب إليه، ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] أي ابدأوا بذكري فأذكركم، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محَمَّد: ٧].

ومن الطبيعي إنَّ معنى الذكر، والوفاء، والحب يختلف بين العبد والرَّب، فذكر الله تعالى للعبد أعظم من ذكر العبد لربه، وحب الله تعالى لعبده أكثر من حب العبد لربه وهكذا الحال في القرب.

فمن تقرب إلى الله تعالى شبراً أي بالعمل القليل، فإنَّ الله تعالى يتقرب إليه أكثر بالإمداد والعطاء والرحمة. . .

❁ ❁

---

(١) حلية الأولياء: ج١٠، ص٨٢.

دعاء المظلوم

عن رسول الله ﷺ: اتقوا دعوة المظلوم، فإنَّها تُحمل على الغمام يقول الله تعالى:

«وعزتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين»[١].



سلاح المعارك:

من الطبيعي أنَّ في كل معركة بين الخير والشر، والحق والباطل، يُستخدم مختلف أنواع الأسلحة المادية المتشابهة كالسيوف أو القنابل بهدف إحراز النصر والغلبة على الآخر.

كما يُستخدم الأسلحة المعنوية مع اختلاف وتغيير في نوعيتها تبعاً لاختلاف أهداف كل طرف من أطراف المعركة.

فأهل الباطل يستخدمون أسلحة الكذب، والمكر، والإغراء بالأموال والمناصب...

وأهل الحق يستخدمون أسلحة الصدق، والحق، والقيم

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الظلم».

الأخلاقية، وهذا الأمر يجري في كل معركة بين اثنين، أحدهما على حق والثاني على باطل، كالخلاف على مال أو عقار وما أشبه، كما يجري في المعارك الكبرى بين فئتين أو حزبين، وما أشبه.

ومن أهم المعارك التي يستخدمها أهل الحق هي:

١ ـ المطالبة بالحقوق:

فقد قيل: «ما ضاع حق وراءه مطالب».

فلأصحاب الحق أن يطالبوا بحقوقهم، وهو حق لهم في الشرائع السماوية، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]، فالمظلوم له أن يجهر بظلامته ويطالب برفع الظلم عنه، وهذا نوع من أنواع الجهاد اللفظي كما ورد: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[١].

وفي التاريخ الماضي والحاضر أمثلة كثيرة على هذا العمل، وفي كل زمان يتخذ أسلوباً خاصاً، ففي السابق كان أهل الحق يطالبون بحقوقهم من خلال إلقاء الكلمات المؤثرة في المناسبات العامة ـ كخطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام التي تطالب فيها بفدك ـ وفي الحاضر يتم من خلال التلفزيون، والاعتصام في الشوارع، والإضراب إلى غير ذلك.

٢ ـ المظلومية:

المظلومية تستصرخ ضمائر الناس وتوقظ وجدانهم، وتدفعهم للوقوف بجانب المظلوم، كما تستثير نقمة الناس على الظالم حتى إنَّها

---

(١) حلية الصالحين: ص٣٢٣.

قد تمتد آثارها إلى معسكر العدو لتحرك فيه بعض الضمائر المخدوعة، وأكثر من ذلك فإنَّ تأثير المظلومية يتخطى حدود البلدان والأديان والقوميات بل وحتى التاريخ.

كما نجد ذلك جلياً في مظلومية آل محمد عليهم السلام، وبالأخص مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، فقد أثَّرت مظلوميته عليه السلام في بعض أعدائه في كربلاء فتركوا جيش ابن سعد والتحقوا بالإمام الحسين عليه السلام كالحرّ الرياحي وحوالي ثلاثين فارساً، وبعد ذلك بدأت الثورات في مختلف أنحاء الأُمَّة الإسلامية كردّ فعل على تلك المظلومية، كثورة التوَّابين وثورة المختار.

ولا تزال تلك المظلومية تؤثّر في قلوب الأحرار في العالم على اختلاف أفكارهم وأديانهم حتى إنَّ زعيم الهند «غاندي» قال: «لقد تعلَّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر».

والجدير ذكره في هذا المجال إنَّ أبرع من شهر سلاح المظلومية الحسينية هي السيِّدة «زينب عليها السلام»، فهي امرأة ومن طبيعتها أنَّها تملك القدرة على إثارة الضمائر والعواطف، فلذلك صارت تحرِّك الناس بكلامها ومواقفها فأثَّرت في كل عدو وصديق كما هو معروف في السيرة[١].

وفي هذا السياق لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ المظلومية التي تنتصر في المعركة هي النابعة من أعماق قلب قوي لا يضعف ولا يستكين، وأما إذا تحولت إلى ضعف وخوف وذل فإنَّها تؤدِّي إلى الانكسار لا

---

(١) المرأة العظيمة: ص١٨٠.

الانتصار، ولذلك لا بدَّ من رفض المظلومية النفسية في الذات لينتصر الإنسان على نفسه أولاً ثم ينتصر على الآخرين.

نقول هذا، لأنَّ البعض يرى أنَّ الشيعة ما زالوا يعيشون في دوائر المظلومية طوال حياتهم، وإنَّ ذلك هو دأبهم منذ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ولكن الواقع أنَّهم الأقوياء بمظلوميتهم، لأنَّهم حوّلوا المظلومية إلى قوة وعزّ وكرامة، فصارت من أعظم الأسلحة التي أكسبتهم ربح المعارك على مرّ العصور.

٣ ـ الدُّعاء:

الدُّعاء من أنجح الأسلحة في المعارك، وخصوصاً دعاء المظلوم، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام: «أنفذ السهام دعاء المظلوم»[٢].

فما من مظلوم يدعوا ربّه إلاَّ ويستجيب له، وذلك لأنَّ المظلوم ينقطع بدعائه إلى ربه، فإذا أراد المظلوم أن يُستجاب دعائه فلا بدَّ أن ينقطع عن الناس، ولا ينتظر مساعدة أحد من إخوانه أو عشيرته أو حزبه، بل يعتمد على ربّه فقط، وعندها يُستجاب الدُّعاء.

كما أنَّ السرّ في استجابة دعاء المظلوم أنَّه منكسر القلب، والله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، كما أنَّه يدعوا دعاء المضطر المستغيث وهو دعاء لا يُردّ.

---

(١) مواهب الرحمن: ج١٠، ص١٠٩.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «الظلم».

بل ورد أنَّ دعاء الكافر لا يُردّ لأنَّه مظلوم، ومنكسر، ولا أمل له إلا بالله تعالى، وحاشا لله تعالى أن يخيِّب آمليه.

فعن رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنَّه ليس دونه حجاب»[١].

من هنا جاء في الحديث القدسي: **«اتقوا دعوة المظلوم»** والمعنى: إيَّاكم والتعرض لدعاء المظلوم وذلك لأنَّ دعائه مستجاب، فدعوته تُحمل على الغمام وترتفع إلى السماء كما عن رسول الله ﷺ: «اتقوه دعوة المظلوم فإنَّها تصعد إلى السماء كأنَّها شرارة»[٢].

وسُئل الإمام علي عليه السلام: كم بين السماء والأرض؟ فقال: مدّ البصر ودعوة المظلوم»[٣].

فالمسافة المادية بين الأرض والسماء هي البصر المادي، وأما المسافة المعنوية فلا حدود لها، فإنَّها تصعد إلى الله تعالى.

وممَّا يُحكى أنَّه دخل شرطي على الشيخ «قربان الزنجاني» فقال له الشيخ: كم هو مدى تأثير الإصابة بالسلاح؟ فقال له: مسافة ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متر، فقال الشيخ: إنَّ مدى أنين المظلوم وصراخه يبدأ من الأرض حتى يصل إلى الله في عرشه[٤].

فإذا دعا المظلوم ربّه فإنَّ الله تعالى يجيبه ولو بعد حين، فقد تُؤخّر الإجابة سريعاً إلا أنَّه تعالى لا يترك حق المظلوم، ولذا نجد

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) خلق الأعلام: ج٢، ص٥٧.

دعاء السيِّدة الزَّهراء عليها السلام تحقق على من ظلمها، ودعاء الإمام الحسين عليه السلام تحقق بعد فترة، والشواهد على ذلك كثيرة جداً.

سهام الليل:

دعاء المظلوم في الليل أسرع في الاستجابة، ويُعبّر عنه بـ«سهام الليل».

قيل: دخل أحد الصالحين على ظالم فقال السلطان: والله لأقتلنك قتلة ما قتلها أحد من الناس.

فقال هذا الرجل الصالح: أما أنت فعندك الجنود، وعندك البيوت، وعندك السيوف، وعندك الرماح، أما أنا فعندي سهام الليل.

قال: ما هي سهام الليل؟

قال: أوتار أمدها بخشوع، وأرسلها بدموع مع السهر فيرفعها الحي القيُّوم ويقول لها: «وعزَّتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

قصص وعبر:

البرامكة بطروا وأكلوا وشربوا وضحكوا وعمروا ورفعوا القصور حتى بلغ من إعجابهم بأنفسهم أن أخذوا ماء الذهب وطلوا به القصور.

وسفكوا الدم.. وكان هناك شيخ ظلموه كبير مسن فرفع يديه في السحر وقال: يا رافع الجبابرة خذ البرامكة.

فأخذهم العزيز المقتدر الذي يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ فإنَّ أخذه أليم شديد ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ﴾[هُود: ١٠٢]، أليم يصل إلى القلوب، وشديد لا يطاق على الأرواح.

فغضب عليهم الخليفة هارون وهو أقرب الأقرباء إليهم. فقتل شبابهم في النهار، وأتى إلى شيوخهم فأوقعهم في السجن، ثم أخذ قصورهم فسباها بالجنود.

فدخلوا على شيخ البرامكة وهو شيخ كبير سقط شعر حاجبيه على عينيه فقالوا له: كيف حالك؟

قال: لست بميت من أهل الآخرة، ولا حي من أهل الدُّنيا، ما رأيت الشمس ثماني سنوات.

قالوا: ما الذي أصابكم بهذا؟

قال: «دعوة مظلوم سرت في جوف الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها».

وقيل: إنَّ ملكاً ظالماً أراد أن يبني له قصراً، فاستدعى المهندسين لكي يخططوا له خارطة ذلك القصر على الأرض بحسب ما خطر في ذهنه. وكانت بجانب هذه الخارطة بيتاً صغيراً لامرأة عجوز، وكان خارطة قصر الملك مصممة على أن يكون بيت العجوز ضمن مخطط القصر لكي يظهر بشكل مربع، فطلب من المرأة العجوز أن تبيعه بيتها، فرفضت طلبه بسبب كون البيت ملجأ لأطفالها يأوون إليه.

ويوماً ما كانت المرأة العجوز في سفر، فلما عادت وجدت بيتها قد هُدم، فتأثرت تأثراً شديداً من هذا العمل ونظرت إلى السماء وقالت: «إلهي إن كنتُ غائبة فقد كُنتَ حاضراً» وبعد إتمامها لهذه المناجات حدث زلزال شديد تهدّم على أثره قصر الملك، وكان حينها

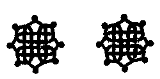
يجلس في أعاليه، فدُثر الملك تحت أنقاض القصر وأصبح من الهالكين.

وهذه عبرة للعقلاء كي يعلموا أنَّ الظلم لا يدوم.

سلاح المؤمن في الجهاد الأكبر:

إنَّ ما ذكرناه من أسلحة يُستخدم في المعارك مع العدو الخارجي، وأما في المعركة مع العدو الداخلي وهو النفس الأمارة بالسوء، فإنَّ سلاحها هو البكاء كما جاء في دعاء كميل: «وسلاحه البكاء».

وهو بكاء خوفاً من الله تعالى، وحباً له، وشوقاً إليه، وبكاء من أهوال الآخرة.



الصدمة النفسية

في الحديث القدسي:

«ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض ثواباً دون الجنة»[١].



صدمات الحياة:

يواجه الإنسان في حياته مصائب جليلة كفقد الأولاد والأموال... وإذا كانت المصائب بشكل مفاجىء فإنّها قد تؤدّي إلى حدوث صدمة عاطفية ونفسية... فمن الطبيعي إنَّ الحدث المتوقع لا يترك آثاراً كبيرة كالحدث المفاجىء لأنَّ الإنسان مستعد له، ومثال ذلك:

ما حُكي أنَّ الخواجه «نصير الدين الطوسي» طلب من الملك المغولي الاستعانة بالرؤية المستقبلية لمعرفة النصر والهزيمة فقال له الملك: ما الفائدة من ذلك ما دام القدر سيتحقق؟

فقال له الطوسي: الفرق هو عدم الصدمة النفسية عند الانهزام، والاستعداد لذلك، ثم أراد أن يقرّب له الأمر فقال له: غداً يُلقى

(١) سُنن ابن ماجة: ص١٥٩٧.

طشت في مجلسك وسترى ما سيحدث، وفي اليوم الثاني أمر الطوسي بإلقاء طشت في وسط المجلس، فارتطم بالأرض وأحدث صوتاً عالياً، فذعر الجميع وخافوا، أما الملك فصار يضحك، فقال له العلامة الطوسي: هذا هو الفرق بين العالم بعاقبة الأمر وبين الجاهل، فإنَّك لم تخاف لعلمك بما سيجري أمَّا هم فخافوا لأنَّهم صُدموا[١].

آثار الصدمات:

إنَّ الصدمات النفسية قد تؤدِّي إلى حدوث أمراض عصيبة ونفسية خطيرة جداً، حتى إنَّ البعض قد يفقد عقله.

فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنَّ امرأة مات أهل بيتها فكانت تبكي عليهم حتى أنكرت عقلها، فأتت النبي صلى الله عليه وآله فشكت ذلك إليه، فقال صلى الله عليه وآله لها قولي: «اللهمَّ لا تفتني، اللَّهمَّ لا تخزني، اللَّهمَّ أثرني بعقلي على من تولَّى عقلي»، فقالتهنَّ فذهب عنها ما كانت تجده[٢].

وقد ذكر علماء النفس أنَّ المصاب بصدمة عاطفية كالموت يمرُّ بمراحل عديدة هي:

١ ـ **مرحلة الرفض** وتستمر دقائق أو ساعات، وتكون بتكرار كلمة «لا... لا...، أو التوسل بالميت أن يقوم... أو بالصراخ... ووظيفة هذه الحالة حماية النفس من التأذي بالحدث بشكل حاد كآلية دفاع تجاه الشدة النفسية الناتجة عن الصدمة.

---

(١) ممارسة التغيير: ص٨٢.

(٢) قصص الدُّعاء: ص٢٠٨.

٢ ـ **مرحلة الاحتجاج والتشوش**، وتكون بالسؤال: لماذا مات؟ ماذا حدث له؟ غير معقول، لا أصدق...

٣ ـ **مرحلة تحميل المسؤولية** على النفس أو الطبيب أو الزوجة، بأن يُقال: لماذا سمحت له بالخروج؟ وهنا تبدأ «عقدة الذنب».

٤ ـ **مرحلة إعادة الذكريات**، بأن يتصور حياته ونومه ولباسه يحمل لباسه ويضمه إلى يضمه إلى صدره ويشمه.

٥ ـ **مرحلة الاكتئاب** وتتجلَّى بالحزن العميق والسكوت والانزواء والخمول وكثرة البكاء.

وهذه الحالة قد تطول أو تقصر بحسب حالة الإنسان وتعلقه بالميت، وبحسب وعيه وثقافة مجتمعه، وإذا طالت كثيراً لا بدَّ من عرضها على الطبيب...[1].

امتصاص الصدمة:

إنَّ الإسلام يربِّي أتباعه على امتصاص الصدمات مهما كانت كبيرة وذلك من خلال ما يلي:

١ ـ **الصبر** وهو ما أشار إليه الحديث القدسي.

٢ ـ **الاحتساب**، بأن يحتسب أجر المصاب على الله تعالى، والأجر الإلهي هو الجنة كما في الحديث القدسي.

❋ ❋

(١) مجلة العربي: عدد ٤٥٠.



خيانة الشراكة

عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يقول:

أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر، فإن خان أحدهما الآخر خرجت من بينهما»[١].



المشاركة:

إنَّ الحياة قائمة على المشاركة والتعاون، ففي كل مجال يوجد مشاركة، فبناء الأسرة، والعمل التجاري، والزراعي، والتربوي، وغير ذلك يقوم على المشاركة.

والمشاركة تستبطن التضامن، والتكافل والتعاون والتعاضد، والمساواة وما إلى ذلك من المعاني التي يحبها الله تعالى.

ولأنَّه تعالى يحب هذه الأمور فهو يبارك فيها، وهذا معنى قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا ثالث الشريكين».

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ج٢، ص٢٣٢.

معية الله تعالى:

فهو تعالى مع كل أحد، ومع كل اثنين وثلاثة وأربعة... كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

والنصوص الدينية تذكر بأنَّ الله تعالى مع كل من يعمل الخير، فهو مع المحسنين، والمتقين،.. وهو كذلك مع الشريكين في عملهما بتوفيقه لهما ورعايته لتجارتهما و...

ولكن هذه المعية مشروطة بأمور أهمها:

عدم الخيانة ففي الحديث القدسي: «**ما لم يخن أحدهما الآخر، فإن خان أحدهما الآخر خرجت من بينهما**».

والخروج من بينهما من باب المجاز، والمقصود منه الخروج من عونهما وتوفيقهما ومباركتهما.

قال السيد القبانجي: إنَّ الخيانة هدم لهذه الشركة التي هي بناء للإنسانية، وعلى مقدار ما يتقوم به الحي من مشاركة نزيهة في الحياة، يتقوم انهيار هذا الحي بالخيانة التي يصدع الشريك بها شريكه، فالله إذن مع الشريكين في عونه وتوفيقه، إذا استعانا به والتمسا توفيقهما منه، وأحسنا الأمانة التي يقوم عليها الحق في تعزيز كرامة الإنسان العزيز على خالقه، والله إذن مع الشريكين في بطشه وانتقامه إذا خان أحدهما الآخر، وهذا البطش والانتقام هو عين تخليه عنهما، لأنَّ الراعي إذا تخلى عن رعيته ضلَّت السبيل الذي تسلكه إلى حياتها، وفي رعاء البهيمة إذا أهملها الراعي مثل

لما نحن بصدده من تخلي الحق الذي يرعى الإنسان، عن الرفق به والهيمنة عليه.

أما قوله، جلَّت عظمته: «**خرجت من بينهما**» فهو إشارة جلية إلى أنَّه كان الصلة بينهما، وإذا كان الله صلة بين كل اثنين من عباده سادت المحبة بينهما، وكانت هذه المحبة سبباً في سعادتهما والعمل على توثيق الأواصر بينهما، فإذا زاغت قلوبهما كان هذا الزيغ سبباً في زوال تلك الصلة، وانفصام العروة الوثقى بينهما، وذلك هو الدمار الذي يساور الشركة التي هي علة اتحادهما وتعاضدهما، وقديماً ضرب الإنسان مثلاً أعلى في التضامن بين الزوجين اللذين هما شريكان في الحياة، ضرب مثلاً في أنَّ الولد صلة وثقى بين الزوجين، وأنَّه سبب أول في تركيز دعائم الأسرة التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني.

فالولد الذي هو خلاصة المحبة بين الزوجين، والذي هو مزيج من دمهما المعبر عنه بالرُّوح، والذي هو النقطة الحساسة في استدرار عطفهما عليه والرفق به والحنين إليه والتضامن في سبيل حياته، هذا الولد هو الصلة الوثقى بين أبويه، فإذا تزعزعت الثقة بين الزوجين كان خروج الولد من بينهما ضحية لزعزعة تلك الثقة التي قد تفضي بهما إلى الفراق الأبدي، فيكون هذا الفراق سبباً في انهيار الأسرة بزوال الأبوة والبنوة من صميم ذلك الكيان القائم على التضامن في الحياة.

وإذا كان الولد الذي هو مزيج من دم الأبوين، والذي هو خلاصة المحبة التي كانت وليدة اشتراكهما في الحياة.

إذا كان هذا الولد الصلة الوثقى بين أبويه، تربطهما في العمل

على الخير بين خلودهما في الحياة، فكم تكون الصلة بينهما وثيقة إذا كانت وليدة الخلق الإنساني القائم فيهما؟؟

فإنَّ الله الذي جعل بين عباده المودة والرحمة، وأقام على هاتين الدعامتين بناء العوالم التي تعمر الوجود الحي، هو أقرب إليهما من الولد الذي يؤلف بينهما فيخلق من هذا التأليف شركة يؤسسان بها نظام الأسرة، وبناء الكيان العاصم لهم جميعاً من فساد الحياة المفضي بهم إل تلاشي ذلك الوجود»[١].

الخيانة:

فحصول الخيانة من المشاركين يؤدِّي إلى رفع البركة الإلهية وبالتالي يحصل الخراب.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أربع لا تدخل بيتاً واحدة منهن إلا خرب ولم يعمر بالبركة: الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنا»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «إذا ظهرت الخيانات ارتفعت البركات»[٣].

وخيانة الشريكين تتحقق بأن يتصرف أحدهما بمال الآخر أو بأخذ شيء منه من دون علم الآخر...

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ج٢، ص٢٣٣.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الخيانة».

(٣) المصدر نفسه.

عن رسول الله ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[١].

وعن أبي هارون المكفوف قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا هارون إنَّ الله تبارك وتعالى آلى على نفسه أن لا يجاوره خائن، قلت: وما الخائن؟ قال: من ادّخر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً من أمر الدُّنيا»[٢].

حقوق الشريك:

ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام بعض الحقوق بين الشريكين فقال: «وحق الشريك: فإن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم على حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، ولا تخنه فيما عزّ أو هان من أمره، فإنَّه بلغنا أنَّ يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا»[٣].

ولعلَّ المراد من الحديث هنا «ما لم يتخاونا» أي ما لم يتهم بعضهما البعض بالخيانة.

وممَّا يذكر أيضاً في الحقوق بين الشريكين:

١ ـ توقير الشريك واحترامه.

٢ ـ عدم الكذب عليه.

٣ ـ عدم المكيدة به.

---

(١) شرح رسالة الحقوق: ج٢، ص٢٣٥.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «الخيانة».
(٣) رسالة الحقوق.

٤ ـ القيام بالعمل المطلوب بكل إخلاص بلا تهاون، فالبعض يترك العمل اتكالاً على الشريك.

٥ ـ المواساة في التعب والجهد.

٦ ـ اطلاعه على كل تفاصيل العمل[1].

❖ ❖

وكان الفراغ من إعداد الكتاب
في شهر صفر الخير لسنة ١٤٣١ هجرية في بلدة عديسة العاملية
والحمد لله ربّ العالمين
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين

بقلم:
حسين بن نجيب محمَّد الموسوي

---

(١) شرح رسالة الحقوق: للساعدي: ص٦٥٢.

أهم مصادر الكتاب

١ ـ **الأربعون حديثاً**، ت: السيد الخميني، ط: دار التعارف.
٢ ـ **الأربعون حديثاً**، ت: الشيخ البهائي، ط: مؤسسة الأعلمي.
٣ ـ **الأربعون حديثاً**، ت: الشيخ المازندراني.
٤ ـ **تزكية النفس**، ت: السيد كاظم الحائري، ط: مؤسسة الفقه.
٥ ـ **التشريع الإسلامي**، ت: السيد محمد تقي المدرسي، ط: انتشارات مدرسي.
٦ ـ **شرح الكافي**، ت: الشيخ المازندراني.
٧ ـ **كلمة الله**، ت: السيد حسن الشيرازي، ط: دار العلوم.
٨ ـ **مرآة العقول**، ت: الشيخ محمد باقر المجلسي.
٩ ـ **المظاهر الإلهية**، ت: الشيخ فاضل الصفَّار، ط: مؤسسة الفكر الإسلامي.
١٠ ـ **مواهب الرحمان**، ت: السيد عبد الأعلى السبزواري.
١١ ـ **ميزان الحكمة**، ت: الشيخ محمد الري شهري، ط: الدار الإسلامية.

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام، في رحاب الإمام المهدي عليه السلام
٢ ـ كفاية الزائرين
٣ ـ ضياء المؤمنين
٤ ـ الروح بين العلم والعقيدة
٥ ـ النور المبين في فضل الصلاة على محمد وآله الطاهرين
٦ ـ خدمة الناس في سيرة أهل البيت عليهم السلام
٧ ـ المنهج العبادي للأنبياء والأوصياء والعرفاء
٨ ـ النظام الصحي بين الطب الإسلامي والطب الطبيعي
٩ ـ حياة السيد المسيح عليه السلام
١٠ ـ كيف تواجه الابتلاء
١١ ـ بحوث في الإمامة والولاية
١٢ ـ جمال السالكين السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله
١٣ ـ كيف تقرأ القرآن الكريم
١٤ ـ وصايا العلماء
١٥ ـ غياث الملهوفين في التوسل بمحمّد وآله الطاهرين
١٦ ـ الشفاء في الغذاء في طب النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام
١٧ ـ الأحلام نافذة على عالم الغيب
١٨ ـ يوم القيامة ونسبية الزمن بين العلم والقرآن الكريم
١٩ ـ جواهر الأخبار في ما ورد عن النبي وآله الأطهار

٢٠ ـ مواعظ وعبر من حياة الأنبياء والأوصياء والأولياء
٢١ ـ تكريم الناس
٢٢ ـ الفضائل العلوية
٢٣ ـ الكمالات العلوية
٢٤ ـ البيت السعيد
٢٥ ـ أعمال الحج والعمرة
٢٦ ـ قضاء الحوائج
٢٧ ـ الصدقة نور في الدنيا والآخرة
٢٨ ـ الدين المعاملة وفن العلاقات الاجتماعية
٢٩ ـ الشفاء في الصيام مقارنة بين الصّوم الدّيني والصّوم الطّبّي
٣٠ ـ كيف ننفع الأموات؟
٣١ ـ ادخال السرور على أهل القبور
٣٢ ـ زجر النَّفس: المنسوب للنبي إدريس عليه السلام
٣٣ ـ كيف تحاسب نفسك؟
٣٤ ـ كلمات سيد الأوصياء عليه السلام لمناسبات الموت والعزاء
٣٥ ـ المحاضرات الأخلاقية
٣٦ ـ البرنامج العبادي
٣٧ ـ النذر
٣٨ ـ أسرار جزاء الأعمال
٣٩ ـ في رحاب الله
٤٠ ـ قصص من عالم الأرواح
٤١ ـ آثار وبركات المجالس البيتية
٤٢ ـ الشفاء بالماء ـ حقائق علمية حول إدراك الماء وتأثيره في علاج الأمراض
٤٣ ـ عشاق الولاية ـ قصص وأحوال محبّي النبي وآله صلى الله عليه وآله
٤٤ ـ صلاة الجماعة
٤٥ ـ الرحلة إلى عالم الملكوت

تُطلب الكتب من المؤلف: جنوب لبنان ـ عديسة
تلفـون: ٠٣/٦٤٩١٣٦
٠١/٢٧٩٥٨١